



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى الله عليه وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

السيرة

نفسية القليل

للمعلمة تريا الشيد محمد حسين الطيب البستاني

المجلد العاشر

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بغداد - العراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الميزان في تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبائي

نشرت في الطباعة:

علامة طباطبائي

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٢	تفسير الميزان المجلد ١٠
١٢	اشاره
١٢	اشاره
١٦	(١٠) سورة يونس و هي مائه و تسع آيات (١٠٩)
١٦	[سورة يونس (١٠): الآيات ١ الى ١٠]
١٦	اشاره
١٧	(بيان)
٣٠	(بحث روائى)
٣١	[سورة يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]
٣١	اشاره
٣٢	(بيان)
٣٥	[سورة يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]
٣٥	اشاره
٣٧	(بيان)
٥١	(بحث روائى)
٥٣	[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]
٥٣	اشاره
٥٣	(بيان)
٥٩	(بحث روائى)
٦٠	[سورة يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]
٦٠	اشاره
٦١	(بيان)
٧٣	[سورة يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٥]

٧٣	اشاره
٧٤	(بيان)
٨٠	[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦]
٨٠	اشاره
٨١	(بيان)
٨٩	(بحث روائى)
٨٩	[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠]
٨٩	اشاره
٩٠	(بيان)
١٠٧	(بحث روائى)
١١٢	[سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]
١١٢	اشاره
١١٣	(بيان)
١١٥	(بحث روائى)
١١٧	[سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣]
١١٧	اشاره
١١٩	(بيان)
١٣٢	[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣]
١٣٢	اشاره
١٣٣	(بيان)
١٤٠	(بحث روائى)
١٤١	[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٩]
١٤١	اشاره
١٤٢	(بيان)
١٤٥	(١١) (سوره هود مكيه و هى مائه و ثلاث و عشرين آيه) (١٢٣)
١٤٥	[سوره هود (١١): الآيات ١ الى ٤]

١٤٥	اشاره
١٤٥	(بيان)
١٥٦	[سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦]
١٥٦	اشاره
١٥٧	(بيان)
١٨٨	(بحث روائى)
١٩٣	[سوره هود (١١): الآيات ١٧ الى ٢٤]
١٩٣	اشاره
١٩٤	(بيان)
٢٠٥	(بحث روائى)
٢٠٨	[سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٣٥]
٢٠٨	اشاره
٢٠٩	(بيان)
٢٢١	(كلام فى قدره الأنبياء و الأولياء فلسفى قرآنى)
٢٢٤	[بيان]
٢٣١	(بحث روائى)
٢٣١	[سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩]
٢٣١	اشاره
٢٣٣	(بيان)
٢٥٢	(بحث روائى)
٢٥٨	أبحاث حول قصه نوح فى فصول و هى أبحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه
٢٥٨	١-الإشاره إلى قصته:
٢٥٩	٢-قصته(ع)فى القرآن:
٢٥٩	بعثه و إرساله:
٢٥٩	دينه و شريعته(ع):
٢٦٠	اجتهاده(ع)فى دعوته:

- ٢٦٠ لبثه في قومه:
- ٢٦٠ صنعه(ع)الفلک:
- ٢٦١ نزول العذاب و مجيء الطوفان:
- ٢٦١ قضاء الأمر و نزوله و من معه إلى الأرض:
- ٢٦١ قصة ابن نوح الغريق:
- ٢٦٢ ٣-خصائص نوح(ع):
- ٢٦٣ ٤-قصته(ع)في التوراه الحاضره:
- ٢٦٨ ٥-ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الأمم و أساطيرهم:
- ٢٧٠ ٦-هل كانت نبوته ع عامه للبشر؟
- ٢٧٥ ٧-هل الطوفان كانت عامه لجميع الأرض؟
- ٢٧٥ اشاره
- ٢٧٧ [بحث جيولوجى ملحق بهذا الفصل فى فصول]
- ٢٧٧ ١-الأراضى الرسوبيه:
- ٢٧٨ ٢-الطبقات الرسوبيه أحدث القشور و الطبقات الجيولوجيه:
- ٢٧٩ ٣-انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها:
- ٢٨٠ ٤-العوامل المؤثره فى ازدياد المياه و غزاره عملها فى عهد الطوفان:
- ٢٨١ ٥-نتيجه البحث:
- ٢٨١ ٨-عمره(ع)الطويل:
- ٢٨٢ ٩-أين هو جبل الجودى:
- ٢٨٢ [١٠-شبهه و جوابها]
- ٢٨٣ (كلام فى عباده الأصنام فى فصول)
- ٢٨٣ ١-الإنسان و اطمئنانه إلى الحسن:
- ٢٨٥ ٢-الإقبال إلى الله بالعباده:
- ٢٨٦ ٣-كيف نشأت الوثنيه؟
- ٢٨٨ ٤-اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع و غيرهم:
- ٢٨٩ ٥-الوثنيه الصابئه.

- ٢٩٠ ٦-الوثنيه البرهميه:
- ٢٩٤ ٧-الوثنيه البوذيه:
- ٢٩٤ ٨-وثنيه العرب.
- ٢٩٨ ٩-دفاع الإسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه.
- ٣٠٠ ١٠-بناء سيره النبي على التوحيد و نفى الشركاء:
- ٣٠١ [كلام آخر ملحق بالكلام السابق] [أفي فصول]
- ٣٠١ اشاره
- ٣٠١ ١-التناسخ عند الوثنيين:
- ٣٠٤ ٢-سريان هذه المحاذير إلى سائر الأديان:
- ٣٠٥ ٣-إصلاح الإسلام لهذه المفاسد:
- ٣٠٦ [٤-إشكال الاستشفاع و التبرك في الإسلام]
- ٣٠٨ [سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠]
- ٣٠٨ اشاره
- ٣٠٩ (بيان)
- ٣١٧ (بحث روائي)
- ٣١٨ (كلام في قصة هود)
- ٣١٨ ١-عاد قوم هود:
- ٣١٩ ٢-شخصيه هود المعنويه:
- ٣١٩ [سوره هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٨]
- ٣١٩ اشاره
- ٣٢٠ (بيان)
- ٣٢٥ (بحث روائي)
- ٣٢٨ (كلام في قصة صالح في فصول)
- ٣٢٨ ١-ثمود قوم صالح(ع):
- ٣٢٨ ٢-بعثه صالح(ع):
- ٣٢٩ ٣-شخصيه صالح(ع):

٣٣٠ [سوره هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦] -

٣٣٠ اشاره

٣٣٠ (بيان)

٣٣٨ (بحث روائى)

٣٤٣ (كلام فى قصة البشرى)

٣٤٧ [سوره هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣] -

٣٤٧ اشاره

٣٤٨ (بيان)

٣٥٦ (بحث روائى)

٣٦٣ (كلام فى قصة لوط و قومه فى فصول)

٣٦٣ ١-قصته و قصة قومه فى القرآن:

٣٦٤ ٢-عاقبه أمرهم:

٣٦٥ ٣-شخصيه لوط المعنويه:

٣٦٥ ٤-لوط و قومه فى التوراه:

٣٧٠ [سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥] -

٣٧٠ اشاره

٣٧٣ (بيان)

٣٨٢ (كلام فى معنى حريه الإنسان فى عمله)

٣٨٨ (بحث روائى)

٣٨٩ (كلام فى قصة شعيب و قومه فى القرآن فى فصول)

٣٨٩ ١- [قصته عليه السلام]

٣٩٠ ٢-شخصيته المعنويه

٣٩٠ ٣-ذكره فى التوراه

٣٩١ [سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩] -

٣٩١ اشاره

٣٩١ (بيان)

سرشناسه : طباطبائی، سید محمد حسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدید آور : تفسیر المیزان / محمد حسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجاء: امیر کبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ ریال (دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمد باقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج. ۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج. ۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵ م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص : ۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مِآوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

السوره- كما يلوح من آياتها-مكيه من السور النازله فى أوائل البعثه و قد نزلت دفعه للاتصال الظاهر بين كرائم آياتها، و قد استثنى بعضهم قوله تعالى: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» إلى تمام ثلاث آيات فذكر أنها مدنيه، و بعضهم قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ» فذكر أنها نزلت فى اليهود بالمدينه، و لا دليل من جهه اللفظ على شىء من القولين.

و غرض السوره و هو الذى أنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول فى التوحيد من طريق الإنذار و التبشير كأنها أنزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على النبي ص و تسميتهم القرآن بالسحر فرد الله سبحانه ذلك عليهم ببيان أن القرآن كتاب سماوى نازل بعلمه تعالى، و أن الذى يتضمنه من معارف التوحيد كوحديته تعالى و علمه و قدرته و انتهاء الخلقه إليه و عجائب سننه فى خلقه و رجوعهم جميعا إليه بأعمالهم التى سيجزون بها خيرا أو شرا كل ذلك مما تدل عليه آيات السماء و الأرض و يهتدى إليه العقل السليم فهى معان حقه و لا يدل على مثلها إلا كلام حكيم لا سحر مزوق باطل.

و الدليل على ما ذكرنا افتتاح السوره بالكلام على تكذيبهم القرآن: «أَتَكْفُرُونَ بِاللَّسَّاجِرِ الْمُبِينِ» و اختتامها بمثل قوله: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ» الآية ثم عوده تعالى إلى مسأله الإيحاء بالقرآن و تكذيبهم له فى تضاعيف الآيات مره بعد مره كقوله: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا الْآيَةِ وَقَوْلُهُ: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ» الآية، وقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْفُمُ مَوْعِظَةٌ» الآية، وقوله: «فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» الآية.

فتكرر هذه الآيات و الافتتاح و الاختتام بها يدل على أن الكلام مبنى على تعقيب إنكارهم لكلام الله و تكذيبهم الوحي و لذلك كان من عمدته الكلام فى هذه السوره الوعيد على مكذبي آيات الله من هذه الأمة بعذاب يقضى بين النبي ص و بينهم و أن ذلك من سنه الله فى خلقه، و على تعقيبه تختتم السوره حتى كاد يكون بيان هذه الحقيقه من مختصات هذه السوره فمن الحرى أن تعرف السوره بأنها سوره الإنذار بالقضاء العدل بين النبي و بين أمته و قد اختتمت بقوله: «وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قوله تعالى: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» الإشاره باللفظ الدال على البعد للدلاله على ارتفاع مكانه القرآن و علو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

و الآية- و معناها العلامه- و إن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعانى أو الأعيان الخارجيه كما فى قوله: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ:» الشعراء- ١٩٧ و فى قوله: «وَجَعَلْنَا هَارًا وَابْنَهُمَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ»: الأنبياء- ٩١ و كذا ما هو من قبيل القول كما فى قوله ظاهرا: «وَإِذَا يَدُّنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ»: النحل:- ١٠١ و نحو ذلك لكن المراد بالآيات هاهنا هى أجزاء الكلام الإلهى قطعا فإن الكلام فى الوحي النازل على النبي ص و هو كلام متلو مقرو بأى معنى من المعانى صورنا نزول الوحي.

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهى و تتعين فى الجملة من جهه المقاطع التى

تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم و لذلك ربما وقع الخلاف فى عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين و البصريين و غيرهم.

و المراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذى استقرت فيه الحكمة، و ربما قيل:

إن الحكيم من الفعل بمعنى المفعول و المراد به المحكم غير القابل للانثلام و الفساد، و الكتاب الذى هذا شأنه—و قد وصفه تعالى فى الآيه التاليه بأنه من الوحي—هو القرآن المنزل على النبى ص.

و ربما قيل: إن الكتاب الحكيم هو اللوح المحفوظ، و كون الآيات آياته هو أنها نزلت منه و هى محفوظه فيه، و هو و إن لم يخل عن وجه بالنظر إلى أمثال قوله تعالى: «يَلْهُو قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ:» البروج: ٢٢ و قوله: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ:» الواقعة: ٧٨ لكن الأظهر من الآيه التى نحن فيها و سائر ما فى سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتحة بالحروف «الر» و سائر الآيات المشابهه لها أو الناظره إلى وصف القرآن أن المراد بالكتاب و آياته هو هذا القرآن المتلو المقرو و آياته المتلوه المقروه بما أنه من اللوح المحفوظ من التغيير و البطالان كالكتاب المأخوذ بوجه من الكتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُّبِينٍ:» الحجر: ١، و قوله: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ:» هود: ١، و غير ذلك.

قوله تعالى: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ» إلى آخر الآيه الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إحياء الله إلى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوه القرآنيه.

و قوله: «أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ» إلخ تفسير لما أوحاه إليه، و يتبين به أن الذى ألقاه إليه من الوحي هو بالنسبه إلى عامه الناس إنذار و بالنسبه إلى الذين آمنوا منهم خاصه تبشير فهو لا محاله يضر الناس على بعض التقادير و هو تقدير الكفر و العصيان و ينفعهم على تقدير الإيمان و الطاعه.

و قد فسر البشرى الذى أمره أن يبشر به المؤمنين بقوله: «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه كما يشير إليه قوله: «فى

مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ: القمر-٥٥ فإن الإيمان لما استتبع الزلفى و المنزله عند الله كان الصدق فى الإيمان يستتبع الصدق فى المنزله التى يستتبعها فلهم منزله الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم على المنزله و المكانه من الكنايه و لما كان إشغال المكان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم فى المكان إن كان فى الماديات، و فى المكانه و المنزله إن كان فى المعنويات ثم أضيفت القدم إلى الصدق، و هو صدق صاحب القدم فى شأنه أى قدم منسوبه إلى صدق صاحبها أو قدم هى صادقه لصدق صاحبها فى شأنه.

و هناك معنى آخر و هو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما و للكذب قدما و قدم الصدق هى التى تثبت و لا تزول.

و قوله: «قَالَ الْكَاْفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ» أى النبى ص، و قرئ:

«إن هذا لسحر مبين» أى القرآن و مآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه (ص) بالسحر من جهه القرآن الكريم.

و الجمله كالتعليل لقوله: «كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا» يمثل به معنى تعجبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعاده المألوفه فى سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتوله إليه النفوس فقالوا: إنه لسحر مبين، و إن الجائى به لساحر مبين.

قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» لما ذكر فى الآيه السابقه عجبهم من نزول الوحى و هو القرآن على النبى ص و تكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى فى بيان ما كذبوا به من الجهتين أعنى من جهه أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا- ريب فيه و من جهه أن القرآن الذى رموه بالسحر كتاب إلهى حق و ليس من السحر الباطل فى شىء.

فقوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ» إلخ، شروع فى بيان الجهه الأولى و هى أن ما يدعوكم إليه النبى ص مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبعوه.

و المعنى: أن ربكم معاشر الناس هو الله الذى خلق هذا العالم المشهود كله

سماواته و أرضه في ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته و قام مقام التدبير الذى إليه ينتهى كل تدبير و إداره فشرع يدبر أمر العالم، و إذا انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانه بمعين أو الاعتضاد بأعضاء لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور- و هو الشفاعة- إلا- من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذى لا سبب بالأصالة دونه، و من دونه من الأسباب أسباب بتسيبه و شفاعة من بعد إذنه.

و إذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذى يدبر أمركم لا غيره مما اتخذتموها أربابا من دون الله و شفاعة عنده و هو المراد بقوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى هلا انتقلتم انتقالا فكريا إلى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل في معنى الألوهيه و الخلقه و التدبير.

و قد تقدم الكلام في معنى العرش و الشفاعة و الإذن و غير ذلك في ذيل قوله:

«إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ» الأعراف:- ٥٤ في الجزء الثامن من الكتاب.

قوله تعالى: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا» تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدأ، و قوله: «وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا» من قيام المفعول المطلق مقام فعله و المعنى:

وعده الله وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذى له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقا معناه كون الخلقه الإلهيه بنحو لا تتم خلقه إلا- برجوع الأشياء- و من جملتها الإنسان- إليه تعالى و ذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجى من الأرض و السقوط و الاستقرار عليها، و الأشياء على حال كدح إلى ربها حتى تلاقيه، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» الانشقاق:- ٦ فافهم ذلك.

قوله تعالى: «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» إلخ تأكيد لقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» و تفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع و المعاد.

و يمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ إلخ

أشير به إلى حجتين من الحجج المستعمله في القرآن لإثبات المعاد: أما قوله: «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فلأن الجارى من سنه الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمده من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى إلى أجل معدود.

و ليس انتهاؤه إلى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمه الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمه فإن ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها إلى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودة منها إلى عنده و قد كانت نزلت من عنده، و ما عند الله باق فلم يكن إلا بسطا ثم قبضا فالله سبحانه يبدأ الأشياء ببسط الرحمه و يعيدها إليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله: «لِيُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» إلخ فإن الحجج فيه أن العدل و القسط الإلهى -و هو من صفات فعله- يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته، و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر ياذن الله.

فلا يبقى إلا أن يفرق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به أو يتألمون.

فالحججه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

«بِالْقِسْطِ هَذَا، و قوله: «لِيُجْزِيَ» متعلق بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» على ظاهر التقرير.

و يمكن أن يكون قوله: «لِيُجْزِيَ» إلخ متعلقا بقوله: «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره إلى حججه واحده و هى الحججه الثانيه المذكوره، و الأقرب من جهه اللفظ هو الأخير.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا» إلى آخر الآيه، الضياء -على ما قيل- مصدر ضاء يضيء ضوء و ضياء كعاذ يعوذ عوذا و عواذا، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط، واللفظ -على ما قيل- على تقدير مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضياء و القمر ذا نور.

و كذلك قوله: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ» أى و قدر القمر ذا منازل فى مسيره ينزل كل ليله منزلا من تلك المنازل غير ما نزله فى الليله السابقه فلا يزال يتباعد من الشمس حتى يوافيها من الجانب الآخر، و ذلك فى شهر قمرى كامل فترتسم بذلك الشهور و ترتسم بالشهور السنون، و لذلك قال: «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ».

و الآيه تنبئ عن حجه من الحجج الداله على توحده تعالى فى ربوبيته للناس و تنزهه عن الشركاء، و المعنى أنه هو الذى جعل الشمس ضياء تستفيدون منه فى جميع شئون حياتكم كما يستفيد منه ما فى عالمكم الأرضى من موجود مخلوق، و كذا جعل القمر نورا يستفاد منه، و قدره ذا منازل يؤدى اختلاف منازلها إلى تكون الشهور و السنين فتستفيدون من ذلك فى العلم بعدد السنين و الحساب و لم يخلق ما خلق من ذلك بما يترتب عليه من الغايات و الفوائد إلا بالحق فإنها غايات حقيقه منتظمه تترتب على خلقه ما خلق فليست بلغو باطل و لا صدفه اتفاقيه.

فهو تعالى إنما خلق ذلك و رتبه على هذا الترتيب لتدبير شئون حياتكم و إصلاح أمور معاشكم و معادكم فهو ربكم الذى يملك أمركم و يدبر شأنكم لا رب سواه.

و قوله: «يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجى أو بحسب البيان اللفظى، و لعل الأول أقرب إلى سياق الآيه.

قوله تعالى: «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ» قال فى المجمع، الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين فى جهه غير جهه الآخر فاختلف الليل و النهار ذهاب أحدهما فى جهه الضياء و الآخر فى جهه الظلام، انتهى. و الظاهر أنه مأخوذ من الخلف، و الأصل فى معناه أخذ أحد الشيئين الآخر فى جهه خلفه ثم اتسع فاستعمل فى كل تغاير كائن بين شيئين.

يقال اختلفه أى جعله خلفه، و اختلف الناس فى كذا ضد اتفقوا فيه، و اختلف الناس إليه أى ترددوا بالدخول عليه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف الليل و النهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر و هو توالى الليل و النهار الراسم للأسابيع و الشهور و السنين، و إما اختلاف كل من الليل و النهار فى أغلب بقاع الأرض المسكونه فالليل و النهار يتساويان فى الاعتدال الربيعى ثم يأخذ النهار فى الزيادة فى المناطق الشماليه فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ أول الصيف فيأخذ فى النقيصه حتى يبلغ الاعتدال الخريفى و هو أول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل فى الزيادة على النهار إلى أول الشتاء و هو منتهى طول الليالى ثم يعود راجعا إلى التساوى حتى ينتهى إلى الاعتدال الربيعى و هو أول الربيع هذا فى المناطق الشماليه و الأمر فى المناطق الجنوبيه بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً فى أحد الجانبين زاد الليل طولاً فى الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول بالليل و النهار هو الذى يدبر أمر أهل الأرض بتسليط حراره الأشعه ثم بسط برد الظلمه و نشر الرياح و بعث الناس للحركه المعاشيه ثم جمعهم للسكن و الراحة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا:﴾ النبأ:- ١١.

و الاختلاف الثانى هو الذى يرسم الفصول الأربعه السنويه التى يدبر بها أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: حم السجده:- ١٠.

و النهار و اليوم مترادفان إلا أن فى النهار-على ما قيل-فائده اتساع الضياء و لعله لذلك لا يستعمل النهار إلا بعنايه مقابلته الليل بخلاف اليوم فإنه يستعمل فيما لا-عنايه فيه بذلك كما فى مورد الإحصاء يقال:عشره أيام و عشرين يوماً و هكذا، و لا يقال:عشره نهارات و عشرين نهاراً و هكذا.

و الآيه تشتمل على حجه تامه على توحيده تعالى فى ربوبيته فإن اختلاف الليل

و النهار و ما خلق الله فى السماوات و الأرض يحمل نظاما واحدا عاما متقنا يدبر به أمر الموجودات الأرضيه و السماويه و خاصه العالم الإنسانى تدييرا واحدا يتصل بعض أجزائه ببعض على أحسن ما يتصور.

و هو يكشف عن ربوبيه واحده ترب كل شىء و منه الإنسان فلا رب إلا الله سبحانه لا شريك له فى ربوبيته.

و من المحتمل أن يكون قوله: «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِخْفَ» فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه: «يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» لمكان إن، و الأنسب على هذا أن يكون المراد باختلاف الليل و النهار تواليهما على الأرض دون الاختلاف بالمعنى الآخر فإن هذا المعنى من الاختلاف هو الذى يسبق إلى الذهن من قوله فى الآيه السابقه: «جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ» و هو ظاهر.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُزُجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» إلى آخر الآيتين. شروع فى بيان ما يتفرع على الدعوه السابقه المذكوره بقوله:

«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» من حيث عاقبه الأمر فى استجابته و رده و طاعته و معصيته.

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُزُجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» فوصفهم أولا بعدم رجائهم لقاءه و هو الرجوع إلى الله بالبعث يوم القيامة و قد تقدم الكلام فى وجه تسميته بلقاء الله فى مواضع من هذا الكتاب و منها ما فى تفسير آيه الرؤيه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء و إنكاره يسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهى، و بسقوطها يبطل الوحي و النبوه و ما يتفرع عليه من الدين السماوى.

و إنكار البعث و المعاد ينعطف هم الإنسان على الحياه الدنيا فإن الإنسان و كذا كل موجود ذى حياه له هم فطرى ضرورى فى بقاءه و طلب لسعاده تلك الحياه فإن كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الأخرويّه معا فهو، و إن لم يدعن إلا بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقته همته الفطريه بها، و رضى بها

و سكن بسببها عن طلب الآخرة، وهو المراد بقوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا».

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» من لوازم الوصف الأول أعنى قوله: «لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» و هو بمنزله المفسر بالنسبه إليه، و أن الباء فى قوله: «اطْمَأَنَّنُوا بِهَا» للسببيه أى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخرة.

و قوله: «و الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فإن نسيان الآخرة و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات الله.

و الآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: «فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ XالآيهX: النجم- ٣٠ حيث دل على أن الإعراض عن ذكر الله و هو الغفله عن آياته يوجب قصر علم الإنسان فى الحياه الدنيا و شئونها فلا يريد إلا الحياه الدنيا و هو الضلال عن سبيل الله، و قد عرف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب فى قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ:» ص- ٢٦.

فقد تبين أن إنكار اللقاء و نسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياه الدنيا و الاطمئنان إليها من الآخرة و قصر العلم عليه و انحصار الطلب فيه، و إذ كان المدار على حقيقه الذكر و الطلب لم يكن فرق بين إنكاره و الرضى بالحياه الدنيا قولاً و فعلاً أو فعلاً مع القول الخالى به.

و تبين أيضا أن الاعتقاد بالمعاد أحد الأصول التى يتقوم بها الدين إذ بسقوطه يسقط الأمر و النهى و الوعد و الوعيد و النبوه و الوحى و هو بطلان الدين الإلهى من رأس.

و قوله: «أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» بيان لجزائهم بالنار الخالده قبال أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» إلى آخر الآيه، هذا بيان لعاقبه أمر المؤمنين و ما يشبههم الله على استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم، و إنما يهديهم إلى ربهم لأن الكلام في عاقبه أمر من يرجو لقاء الله، و قد قال تعالى: «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ»: الرعد:- ٢٧.

فإنما يهدي الإيمان بإذن الله إلى الله سبحانه و كلما اهتدى المؤمنون إلى الحق أو إلى الصراط المستقيم أو غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل و مدارج تنتهى بالآخره إليه تعالى قال تعالى: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ»: النجم:- ٤٢.

و قد وصف المؤمنين بالإيمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدايتهم إليه إلى الإيمان وحده فإن الإيمان هو الذى يصعد بالعبد إلى مقام القرب، و ليس للعمل الصالح إلا إعانه الإيمان و إسعاده فى عمله كما قال تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ»: المجادل:- ١١ حيث ذكر للرفع الإيمان و العلم و سكت عن العمل الصالح، و أوضحه منه فى الدلاله قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»: فاطر:- ١٠.

هذا فى الهدايه التى هى شأن الإيمان، و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل الطالح دخلا فى أنواع العذاب و قد ذكر تعالى فى المؤمنين قوله:

« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » كما ذكر فى الكافرين قوله: «أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

و ليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم، و من نعيمها الأنهار التى تجرى من تحتهم فيها، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: الحمد:- ٧ و قوله: «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» X الآيه X: النساء:- ٦٩ أن النعيم بحقيقه معناه فى القرآن الكريم هو الولايه الإلهيه، و قد خص الله أوليائه المقربين بنوع من شراب الجنه اعتنى به فى حقهم كما قال: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجَّرُونَهَا تَفْجِيرًا»: الإنسان- ٦، و قال أيضا «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

نَعِيمٍ -إلى أن قال- X يُسَقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَحْتُوْمٍ -إلى أن قال X- عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ:» المطففين:- ٢٨، و عليك بالتدبر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لك بعض ما أودعه الله سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفة.

قوله تعالى: «دَعُواهُمْ فِيهَا سَبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه- و هم الذين ليس فى قلوبهم إلا الله و لا مدبر لأمرهم غيره- أنه يطهر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشيء إلا الله و فى الله سبحانه فهم يتزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شريك فى الاسم أو فى المعنى أو نقص أو عدم، و تسييح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولاً و فعلاً و لساناً و جناحاً، و ما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك، و قد قال تعالى:

« وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ:» يوسف- ١٠٦.

و هؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه و هو سبحانه الخير الذى لا شر معه قال: «وَ اللَّهُ خَيْرٌ:» طه:- ٧٣.

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السلام أحداً إلا بخير و سلام اللهم إلا أن يكون الذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدل الخير و السلام شراً و ضراً كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خساراً.

ثم إن هذه القلوب الطاهره لا تواجه شيئاً من الأشياء إلا و هى تجده و تشاهده نعمه الله سبحانه حاكيه لصفات جماله و معانى كماله و اصفه لعظمته و جلاله فكلما وصفوا شيئاً من الأشياء و هم يرونه نعمه من نعم الله و يشاهدون فيه جماله تعالى فى أسمائه و صفاته و لا يغفلون و لا يسهون عن ربهم فى شيء كان وصفهم لذلك الشيء و صفا منهم لربهم بالجميل من أفعاله و صفاته فيكون ثناء منهم عليه و حمداً منهم له

فليس الحمد إلا الشاء على الجميل من الفعل الاختياري.

فهذا شأن أوليائه تعالى و هم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد فإذا لقوا ربهم فوفى لهم بوعده و أدخلهم في رحمته و أسكنهم دار كرامته أتم لهم نورهم الذي كان خصهم به في الدنيا كما قال تعالى: «نورهم يسع بين أيديهم و بإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا:» التحريم- ٨.

فسقاهم شرابا طهورا يطهر به سرائرهم من كل شرك جلي و خفي، و غشيهم بنور العلم و اليقين، و أجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فزهوا الله و سبحوه أولا و سلموا على رفقاتهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ثم حمدوا الله سبحانه و أثنوا عليه بأبلغ الحمد و أحسن الشاء.

و هذا هو الذي يقبل الانطباق عليه- و الله أعلم- قوله في الآيتين: «تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم» و فيه ذكر جنة الولاية و تطهير قلوبهم: «دعواهم فيها سيبحانك اللهم» و فيه تنزيهه تعالى و تسيحه عن كل نقص و حاجه و شريك تنزيها على وجه الحضور لأنهم غير محجوبين عن ربهم «و تحيتهم فيها سلام» و هو توسيم اللقاء بالأمن المطلق، و لا يوجد في غيرها من الأمن إلا اليسير النسبي «و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» و فيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسيحهم له و تنزيههم، و هذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنة في كمال العلم.

و قد قدمنا في تفسير قوله تعالى: «الحمد لله رب العالمين:» الحمد: ٢- أن الحمد توصيف، و لا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلا للمخلصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه و خصهم بكرامه من القرب لا واسطه فيها بينهم و بينه قال تعالى:

«سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين:» الصافات: ١٦٠.

و لذلك لم يحك في كلامه حمده إلا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح و إبراهيم و محمد و داود و سليمان (ع) كقوله فيما أمر به نوحا: «فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين:» المؤمنون: ٢٨، و قوله حكاية عن إبراهيم: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل و إسحاق:» إبراهيم- ٣٩، و قوله فيما أمر به محمدا ص

فى عده مواضع: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»: النمل-٩٣، وقوله حكاية عن داود و سليمان:

« وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ: » النمل: -١٥.

و قد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنة فى عده مواضع من كلامه كقوله:

« وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا: » الأعراف-٤٣، وقوله أيضا: « وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ: » فاطر: -٣٤، وقوله أيضا: « وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ: » الزمر: -٧٤، وقوله فى هذه الآية: « وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ».

و الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق أهل الجنة من المؤمنين بالآخرة بعباده المخلصين فيها وعد جميل و بشاره عظيمه للمؤمنين.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى، عن يونس بن عبد الرحمن عن ذكره عن أبى عبد الله (ع):

فى قوله تعالى: « وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا-أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »-الآية قال الولاية

و فى الكافى، بإسناده عن إبراهيم بن عمر اليمانى عن ذكره عن أبى عبد الله (ع):

فى قول الله: « وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا-أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ »-قال: هو رسول الله ص:

أقول: و رواه القمى فى تفسيره، مسندا و العياشى، فى تفسيره مرسلا عن إبراهيم بن عمر عن ذكره عنه (ع). و الظاهر أن المراد به شفاعته (ص).

و يدل على ذلك

ما رواه الطبرسى فى المجمع، حيث قال: قيل: قدم صدق شفاعه محمد ص: قال: و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و ما رواه فى الدر المنثور، عن ابن مردويه عن على بن أبى طالب: فى قوله:

« قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » قال:-محمد ص شفيح لهم يوم القيامة.

و فى تفسير العياشى، عن زيد الشحام عن أبى عبد الله (ع) قال: سألته عن التسبيح قال:-هو اسم من أسماء الله و دعوى أهل الجنة.

أقول: و مراده بالتسيح قولنا سبحان الله و معنى اسميته دلالة على تنزيهه تعالى.

و فى الإختصاص، بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن على بن أبى طالب(ع) عن النبى ص: فى حديث طويل مع يهودى و قد سأله عن مسائل:-

قال(ص): إذا قال العبد: سبحان الله- سبح كل شىء معه ما دون العرش- فيعطى قائلها عشر أمثالها-، و إذا قال: الحمد لله- أنعم الله عليه بنعيم الدنيا- حتى يلقاه بنعيم الآخرة-، و هى الكلمة التى يقولها أهل الجنة إذا دخلوها-، و الكلام ينقطع فى الدنيا ما خلا الحمد لله-، و ذلك قوله تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ .

أقول: و قوله: (و الكلام ينقطع فى الدنيا ما خلا- الحمد لله) أى جميع الكلام المستعمل فى الدنيا لمقاصد تعود إلى مستعمله كالكلام المستعمل لمقاصد المعاش كجميع المحاورات الإنسانية و الكلام المستعمل فى العبادات لغرض الثواب و نحو ذلك ينقطع بانقطاع الدنيا إذ لا خبر بعد ذلك عن هذه المقاصد الدنيوية، و لا يبقى بعدئذ إلا الحمد لله و الثناء عليه بالجميل و هو كلام أهل الجنة فيها.

و قوله: و ذلك قوله: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» معناه أن كون التحية يومئذ هو السلام المطلق يدل على أن ليس هناك إلا موافقه كل شىء و ملائمته لما يريد الإنسان فكل ما يريده فهو له فلا يستعمل هناك كلام لتحصيل غايه من الغايات على حد الكلام الدنيوى إلا الثناء على جميل ما يشاهد منه تعالى فافهم ذلك.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

لما ذكر سبحانه الأصليين من أصول الدعوه الحقه و هما التوحيد و المعاد و احتج عليهما من طريق العقل الفطرى ثم أخبر عن عاقبه الإيمان و الكفر بهما بحث عن سبب إمهال الناس و عدم تعجيل نزول العذاب بساحتهم مع تماديهم فى غيهم و ضلالتهم و عمهم فى طغيانهم و ما هو السبب الذى يوجب لهم ذلك فبين أن الأمر بين لا ستر عليه، و قد بينه لهم رسل الله بالبينات لكن الشيطان زين لهؤلاء المسرفين أعمالهم فأغفلهم عن ذكر المعاد فذهلوا و نسوا بعد ما ذكروا ثم لم يعجل الله لهم العذاب بل أمهلهم فى الدنيا إلى حين ليبتليهم و يمتحنهم فإنما الدار دار ابتلاء و امتحان.

قوله تعالى: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ» إلخ، تعجيل الشئ الإتيان به بسرعه و عجله و الاستعجال بالشئ طلب حصوله بسرعه و عجله، و العمه شده الحيره.

و معنى الآية: لو يعجل الله للناس الشر و هو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحIRON فى طغيانهم أشد التحير.

و توضيحه أن الإنسان عجول بحسب طبعه يستعجل بما فيه خيره و نفعه أى أنه يطلب من الأسباب أن تسرع فى إنتاج ما يبتغيه و يريد به فهو فى الحقيقة يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه لأنه السبب فى ذلك بالحقيقه فهذه سنه الإنسان و هى مبنيه على الأهواء النفسانيه فإن الأسباب الواقعه ليست فى نظامها تابعه لهوى الإنسان بل العالم الإنسانى هو التابع الجارى على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطرارا أحب ذلك أو كرهه.

و لو أن السنه الإلهيه فى خلق الأشياء و الإتيان بالمسببات عقيب أسبابها اتبعت أو شابته هذه السنه الإنسانيه المبنيه على الجهل فعجلت المسببات و الآثار عقيب أسبابها لأسرع الشر و هو الهلاك بالعذاب إلى الإنسان فإن سببه قائم معه، و هو الكفر بعدم رجاء لقاء الله و الطغيان فى الحياه الدنيا لكنه تعالى لا يعجل الشر لهم كاستعجالهم بالخير لأن سنته مبنيه على الحكمه بخلاف سنتهم المبنيه على الجهاله فيذرهم فى طغيانهم يعمهون.

و قد بان بذلك أولا: أن فى قوله «لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ» نوعا من التضمن فقد ضمن فيه «لَقَضَىٰ» معنى مثل الإنزال أو الإبلاغ و لذا عدى بالى.

و المعنى قضى منزلا أو مبلغا إليهم أجلهم أو أنزل أو أبلغ إليهم مقضيا و هو كناية عن نزول العذاب فالكلمه من الكنايه المركبه.

و ثانيا: أن فى قوله: «فَنَدَّرُ الَّذِينَ» التفاتا من الغيبه إلى التكلم مع الغير، و لعل النكته فيه الإشاره إلى توسط الأسباب فى ذلك فإن المذكور من أفعاله تعالى فى الآيه و ما بعدها كتركهم فى عمهمم و كشف الضر و التزيين و الإهلاك أمور يتوسل إليها بتوسط الأسباب، و العظماء إذا أرادوا أن يشيروا إلى دخل أعوانهم و خدمهم فى بعض أمورهم أتوا بصيغه المتكلم مع الغير.

قوله تعالى: «وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» إلى آخر الآيه. الضر بالضم ما يمس الإنسان من الضرر فى نفسه، و قوله: «دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» أى دعانا منبطحا لجنبه إلخ، و الظاهر أن التردد للتعميم أى دعانا على أى حال من أحواله فرض من انبطاح أو قعود أو قيام مصرا على دعائه لا

ينسانا في حال و يمكن أن يكون «لِحَبْنِهِ» إلخ، أحوالاً - ثلاثة من الإنسان لا من فاعل دعانا و العامل فيه «مَسَّ» و المعنى إذا مس الإنسان الضر و هو منبسط أو قاعد أو قائم دعانا في تلك الحال و هذا معنى ما ورد في بعض المرسلات: «دَعَانَا لِحَبْنِهِ» العليل الذي لا يقدر أن يجلس «أَوْ قَاعِدًا» الذي لا يقدر أن يقوم «أَوْ قَائِمًا» الصحيح.

و قوله: «مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ» كناية عن النسيان و الغفلة عما كان لا يكاد ينساه.

و المعنى: و إذا مس الإنسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره و أصر على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذي مسه نسينا و ترك ذكرنا و انجذبت نفسه إلى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زين للمسرفين المفرطين في التمتع بالزخارف الدنيوية أعمالهم فأورثهم نسيان جانب الربوبية و الإعراض عن ذكر الله تعالى.

و في الآيه بيان السبب في تمادى منكرى المعاد في غيهم و ضلالتهم و خصوصيه سببه و هو أن هؤلاء مثلهم كمثل الإنسان يمسه الضر فيذكر ربه و يلح عليه بالدعاء لكشف ضره حتى إذا كشف عنه الضر - و لذلك كان يدعوه - مر لوجهه متوغلا في شهواته و قد نسي ما كان يدعوه و يذكره فلم يكن تركه لدعاء ربه بعد ذكره إلا معلولا لما زين له من عمله فأورثه النسيان بعد الذكر.

فكذلك هؤلاء المسرفون زين لهم أعمالهم فجذبتهم إلى نفسها فنسوا ربهم بعد ذكره، و قد ذكرهم الله مقامه بإرسال الرسل إلى من قبلهم بالبينات و ما كانوا ليؤمنوا و إهلاك القرون من قبلهم بظلمهم و هذه هي السنه الإلهيه يجزى القوم المجرمين.

و من هنا يظهر أن الآيه التاليه: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ» إلخ، متمم للبيان في هذه الآيه: «وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ» إلى آخر الآيه، قد ظهر معناه مما تقدم، و في الآيه التفات في قوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» من الغيبه إلى الخطاب،

و كان النكته فيه التشديد فى الإنذار لأن الإنذار و التخويف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غيره.

ثم فى قوله: «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» التفات آخر بتوجيه الخطاب إلى النبى ص، و النكته فيه أنه إخبار عن السنه الإلهيه فى أخذ المجرمين، و النبى ص هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم يكفروا، و هذا بخلاف قوله: «و لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ» فإنه خبر تاريخى لا ضير فى تصديقهم به.

قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» معناه ظاهر، و فيه بيان أن سنه الامتحان و الابتلاء عامه جاربه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]

إشاره

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هُوَ لَا يَشْفَعُاُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرْبٍ مَسْتَهْتِمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُمُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلَمِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَ فَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لئنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِمَا أُيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَازِلٌ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

احتجاجات يلقتها الله سبحانه نبيه ص ليرد بها ما قالوه فى كتاب الله أو فى آلهتهم أو اقترحوه فى نزول الآيه.

قوله تعالى: «وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ» هؤلاء المذكورون فى الآيه كانوا قوما وثنيين يقدسون الأصنام و يعبدونها، و من سننهم التوغل فى المظالم و الآثام و اقرار المعاصى، و القرآن ينهى عن ذلك كله، و يدعو إلى توحيد الله تعالى و رفض الشركاء، و عباده الله مع التنزه عن الظلم و الفسق و اتباع الشهوات.

و من المعلوم أن كتابا هذا شأنه إذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوه المخالفه فلو قالوا: ائت بقُرْآن غير هذا دل على أنهم يقترحون قرآنا لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوه إلى رفض الشركاء و اتقاء الفحشاء و المنكر، و إن قالوا: بدل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته إلى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول، و ذلك كالشاعر ينشد من شعره أو القاص يقص القصه فلا تستحسنه طابع السامعين فيقولون: ائت بغيره أو بدله، و فى ذلك تنزيل القرآن أنزل مراتب الكلام و هو لهو الحديث الذى إنما يلقي لتلهو به نفس سامعه و تنشط به عواطفه ثم لا يستطيعه السامع فيقول: ائت بغير هذا أو بدله.

فبذلك يظهر أن قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن: «إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» يريدون به قرآنا لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا و يؤتى بذاك، و قولهم: «أَوْ يَدَّبُّهُ» أن يغير ما فيه من المعارف المخالفه لأهوائهم إلى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره و بين تبديله.

فما قيل: إن الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه و تبديله لا يكون

إلا برفعه، غير سديد فإنهم ما كانوا يريدون أن يأتيهم النبي ص بهذا القرآن وغيره معا قطعاً.

و كذا ما ذكره بعضهم أن قولهم: «إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ» إنما أرادوا به أن يمتحنوه بذلك فيغروه حتى إذا أجابهم إلى ذلك كان ذلك نقضا منه لدعوى نفسه أنه كلام الله، وذلك أنهم لما سمعوا ما بلغهم النبي ص من آيات القرآن وتلاه عليهم وتحداهم بالإتيان بمثله وعجزوا عن الإتيان بمثله، وكانوا في ريب من كونه كلام الله، وفي ريب من كونه من النبي ص نفسه ولم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة والعلم، بل كانوا يرونه دون كبار فصحاءهم ومصاقع خطبائهم أرادوا أن يمتحنوه بهذا القول حتى إذا أتاهم بما سألوه كان ذلك ناقضا لأصل دعواه أنه كلام الله.

و كان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان لقوه نفسه فيه كانت خفيه عليهم كأسباب السحر لا بوحى. هذا.

و فيه مضافا إلى مناقضه آخره أوله أنه مدفوع بما يلقيه الله سبحانه من الحجج فإن السؤال الذى لم يصدر إلا بداعى الامتحان والاختبار من غير داع جدى لا معنى للجواب عنه بالإثبات الجدى بحجه جديه وهو ظاهر.

و فى قوله: «وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا» التفات من الخطاب إلى الغيبه، والظاهر أن النكته فيه أن يكون توطئه إلى إلقاء الأمر إلى النبي ص بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» إلخ، فإن ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم و توجيهه إليه (ص).

قوله تعالى: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ» إلى آخر الآيه التلقاء بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان والبيان ويستعمل ظرفا.

و الله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: «إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ» فى أثناء كلامه بقوله «بَيِّنَاتٍ» فإن الآيات إذا كانت بينات ظاهره الاستناد إلى الله سبحانه كشفت كشافا قطعيا عما يريد الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى إلى رسوله ص من تفصيل دينه رد

سؤالهم إليهم تفصيلاً بتلقين نبيه ص الحجة في ذلك بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي» إلى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» إلخ، جواب عن قولهم: «أَوْ بَدَّلَهُ» ومعناه: قل لا أملك - وليس لي بحق - أن أبدله من عند نفسي لأنه ليس بكلامي وإنما هو وحى إلهي أمرني ربي أن أتبعه ولا - أتبع غيره، وإنما لا أخالف أمر ربي لأنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه.

فقوله: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» نفى الحق وسلب الخيره، وقوله: «إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ» في مقام التعليل بالنسبه إلى قوله: «مَا يَكُونُ لِي» وقوله: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» إلخ، في مقام التعليل بالنسبه إلى قوله: «إِنْ أَتَّبَعُ» إلخ، بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهي.

و في قوله: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» نوع محاذاه لما في صدر الكلام من قوله: «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنْتِ بِقُرْآنٍ» إلخ فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد و عدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي ص بأمر من ربه بقوله: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» فيقول المعنى إلى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء الله لكنني لا أشك فيه فلا يمكنني إجابتكم إليه لأنني أخاف عذاب يوم اللقاء، وهو يوم عظيم.

و في تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائده الإنذار مضافاً إلى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسبة.

قوله تعالى: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أدراكهم به أي أعلمكم الله به، و العمر بضمين أو بالفتح فالسكون هو البقاء، و إذا استعمل في القسم كقولهم: لعمرى و لعمرى كعين الفتح.

و هذه الآية تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم و هو قولهم: «إِنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» ومعناها على ما يساعد عليه السياق: أن الأمر فيه إلى مشيه الله لا إلى

مشيتي فإنما أنا رسول و لو شاء الله أن ينزل قرآنا غير هذا و لم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم و لا أدراكم به فإنني مكثت فيكم عمرا من قبل نزول القرآن و عشت بينكم و عاشرتكم و عاشرتموني و خالطتكم و خالطتموني فوجدتموني لا خير عندي من وحي القرآن، و لو كان ذلك إلى و بيدي لبادرت إليه قبل ذلك، و بدت من ذلك آثار و لاحت لوائحه، فليس إلى من الأمر شيء، و إنما الأمر في ذلك إلى مشيه الله و قد تعلقت مشيته بهذا القرآن لا غيره أ فلا تعقلون؟.

قوله تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ» استفهام إنكارى أى لا أحد أظلم و أشد إجراما من هذين الفريقين:

المفترى على الله كذبا، و المكذب بآياته فإن الظلم يعظم بعظمه من يتعلق به و إذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم.

و ظاهر سياق الاحتجاج فى الآيتين أن هذه الآيه من تمامها و المعنى: لا أجيبكم إلى ما اقترحتم على من الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله فإن ذلك ليس إلى و لا لى حق فيه، و لو أجبتكم إليه لكنت أظلم الناس و أشدهم إجراما و لا يفلح المجرمون فإنني لو بدلت القرآن و غيرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على الله كذبا و لا أظلم منه، و لو تركت هذا القرآن و جئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات الله، و لا أظلم منه.

و ربما احتمال كون الاستفهام الإنكارى بشقيه تعريضا للمشركين أى أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء و هو افتراء الكذب على الله و بتكذيبكم بنبوتى و الآيات النازله على و هو تكذيب بآيات الله و لا يفلح المجرمون.

و ذكر بعضهم أن الأول من شقى الترديد للنبي على تقدير إجابتهم و الثانى للمشركين، أى لا أحد أظلم عند الله من هذين الفريقين: المفترين على الله و المكذبين بآياته، و أنا أنعى عليكم الثانى منهما فكيف أرضى لنفسى بالأول و هو شر منه؟ و أى فائده لى من هذا الاجرام العظيم و أنا أريد الإصلاح؟.

و الذى ذكره من المعنى لا بأس به فى نفسه لكن الشأن فى استفادته من الآيه

و دلالة لفظها عليه، وكذا الوجه السابق عليه بالنظر إلى السياق.

قوله تعالى: «و يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» إلى آخر الآية الكلام: موجه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه، و ذلك لمكان «مَا» و كون السوره مكيه من أوائل ما نزل على النبي ص من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها إلى أربابها و بأربابها إلى رب الأرباب و هو الله سبحانه، و يقولون: «إننا على ما بنا من ألوات البشريه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا إلى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب إليه بأحب خلائقه إليه و هم أرباب الأصنام الذين فوض الله إليهم أمر تدبير خلقه، و نتقرب إليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه، و الشفاعة لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع في الكلام قوله: «مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» موضع الأصنام للتلويح إلى موضع خطئهم في مزعمتهم، و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضاره نافعه في الأمور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع أو يشفع أربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضى شفاعتهم و هؤلاء أجسام ميتة لا تشعر بشيء و لا تضر و لا تنفع شيئاً.

و قد أمر الله سبحانه نبيه ص أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة-مضافاً إلى ما يلوح إليه قوله: «مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ»- بقوله: «قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» و محصله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء في شيء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم، و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره، و كيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله و هو يعلم ما في السماوات و الأرض؟.

فالاستفهام إنكارى، ونفى العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها، و لعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوم بالعلم لذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق إذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده و هو لا يعلم.

و قوله: «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» كلمه تنزيه، و هى من كلام الله و ليست مقوله قول النبى ص فإن ظرف المشركين بالنسبه إليه هو الخطاب دون الغيبه فلو كان من كلام النبى ص لقليل: عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا» قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ:» البقره:- ٢١٣ أن الآيه تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس.

أحدهما: الاختلاف من حيث المعاش و هو الذى يرجع إلى الدعاوى و ينقسم به الناس إلى مدع و مدعى عليه و ظالم و مظلوم و متعدد و متعدى عليه و آخذ بحقه و ضائع حقه، و هذا هو الذى رفعه الله سبحانه بوضع الدين و بعث النبيين و إنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و يعلمهم معارف الدين و يواجههم بالإنذار و التبشير.

و ثانيهما: الاختلاف فى نفس الدين و ما تضمنه الكتاب الإلهى من المعارف الحقه من الأصول و الفروع، و قد صرح القرآن فى مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهى إلى علماء الكتاب بغيا بينهم، و ليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول، و بذلك ينقسم الطريق إلى طريقى الهدايه و الضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، و قد ذكر سبحانه فى مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه و لكن يؤخرهم إلى أجل، قال تعالى: «وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا

بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقَضِيَ بَيْنَهُمْ:» الشورى: -١٤ إلى غير ذلك من الآيات.

و سياق الآيه السابقه أعنى قوله تعالى: « وَ يَعْجِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ » إلخ، لا- يناسب من الاختلافين المذكورين إلا الاختلاف الثانى و هو الاختلاف فى نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم و لا ينفعهم و اتخاذهم شفعاء عند الله و مقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمه واحده كونهم على دين واحد و هو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد و مشرك.

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضى أن يحكم الله بينهم بإظهار الحق على الباطل و فيه هلاك المبطلين و إنجاء المحقين لكن السابق من الكلمه الإلهيه منعت من القضاء بينهم، و الكلمه هى قوله تعالى لما أهبط الإنسان إلى الدنيا: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُشْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ:» البقره: -٣٦.

و للمفسرين فى الآيه أقوال عجيبيه منها: أن المراد بالناس هم العرب كانوا على دين واحد حق و هو دين إبراهيم(ع) إلى زمن عمرو بن لحي الذى زوج بينهم الوثنيه فانقسموا إلى حنفاء مسلمين، و عبده أصنام مشركين و أنت خير أنه لا دليل عليه من جهه اللفظ البته.

و منها: أن المراد بالناس جميعهم، و المراد من كونهم أمه واحده كونهم على فطره الإسلام و إن كانوا مختلفين دائما، فلفظه «كَانَ» منسلخ الزمان، و الآيه تحكى عما عليه الناس بحسب الطبع و هو التوحيد، و ما هم عليه بحسب الفعلية و هو الاختلاف فليس الناس بحسب الطبع الفطرى إلا أمه واحده موحدين لكنهم اختلفوا على خلاف فطرتهم.

و فيه أنه خلاف ظاهر الآيه و الآيه التى فى سوره البقره، و كذا ظاهر سائر الآيات كقوله: «وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ:» الشورى: -١٤ و قوله: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ:» آل عمران: -١٩.

على أن القول بوجود الاختلاف الدائم بين الناس مع عدم رجوعه إلى الفطره مما لا يجتمعان.

و منها: أن المراد أن الناس جميعا كانوا على مله واحده هي الكفر و الشرك ثم اختلفوا فكان مسلم و كافر.

و هذا أسخف الأقوال في الآيه فإنه مضافا إلى كونه قولاً بغير دليل ياباه ظاهر الآيات فإن ظاهرها أن ظهور الاختلاف لانتهاؤه إلى بغى الناس من بعد ما جاءهم العلم أى ظهور الكفر و الشرك عن بغى كان هو المقتضى للحكم بينهم و القضاء عليهم بنزول العذاب و الهلاك فإذا كانوا جميعا على الكفر و الشرك من غير سابقه هدى و إيمان فما معنى استناد الاقتضاء إلى البغى عن علم؟ و ما معنى خلق الجميع و وجود المقتضى لإهلاكهم جميعا إلا انتقاض الغرض الإلهي؟.

و هذا القول أشبه بما قالته النصارى في مسأله التفديه إن الله خلق الإنسان ليطعمه فيسكنه الجنة دائما لكنه عصاه و نقض بذلك غرض الخلقه فتداركه الله بتفديه المسيح.

و منها: قول بعضهم: إن المراد بالكلمه فى قوله: «و لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» الخ قوله تعالى فهذه السوره: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». الآيه- ٩٣.

و فيه: أن المراد بالسبق إن كان هو السابق بحسب البيان فالآيه متأخره عن هذه الآيه لوقوعها فى أواخر السوره، و الآيات متصله جاريه. على أن الآيه فى بنى إسرائيل خاصه و الضمير فى قوله: «بَيْنَهُمْ» راجع إليهم و هى قوله: «و لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». يونس- ٩٣.

على أن قوله فى بعض الآيات: «و لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ». الشورى: -١٤ لا يلائم هذا المعنى من السابق.

و إن كان المراد بالسبق السابق بحسب القضاء فينبغي أن يتبع في ذلك أول كلمه قالها الله تعالى في ضلال الناس و شركهم و معصيتهم، و ليست إلا ما قاله عند أول ما أسكن الإنسان الأرض و هو ما قدمناه من الآيه.

قوله تعالى: « وَ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ » الآية كقوله قبلها: « وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » و قوله قبله:

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا » تعد أمورا من مظالم المشركين في أقوالهم و أعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ص لقيمها عليهم كما مر في أول الآيات فقوله: « وَ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ » إلخ، عطف على قوله في أول الآيات: « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ».

و فيها مع ذلك عود بعد عود إلى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم:

« لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » و إن كان طلب آيه أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزاء و تحقيرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عده آيه إلهيه و الدليل عليه قوله تعالى: « فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ » و لم يقل: « قل » كما قال في سائر الآيات كأنه يقول:

و يطلبون منك آيه أخرى غير مكتفين بالقرآن و لا راضين به فإذا لم يكتفوا به آيه فقل: إنما الآيات من الغيب المختص بالله و ليست بيدي فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

فهذا هو المستفاد من الآيه و فيها دلالة على أن النبي ص كان ينتظر آيه فاصله بين الحق و الباطل غير القرآن قاضيه بينه و بين أمته، و سيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآيه-التي يأمر بانتظارها هاهنا-في قوله: « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ »: يونس:- ٤٦ إلى تمام عده آيات.

قوله تعالى: « وَإِذَا أَدْقْنَا الدَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعِيدٍ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا » إلى آخر الآيه مضمون الآيه و إن كان من المعانى العامه الجاربه في أغلب الناس في أكثر الأوقات فإن الفرد من الإنسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقه ذلك لكن الآيه من جهه السياق المتقدم كأنها مسوقه للتعريض للمشركين و مكرهم في آيات الله، و الدليل عليه قوله: « قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا » فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات

حيث كانوا يمكرون بآيات السراء و الضراء بعد ظهورها، و من مكرهم مكرهم فى القرآن الذى هو آيه إلهيه و رحمه أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهاله العالقه بهم و شمول ضنك العيش و الذله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم يمكرون به فتاره يقولون «إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ» و تاره يقولون: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

فالآيه تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه فى آيات الله، و تبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئاً فإن الله أسرع مكرًا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم.

فمعنى الآيه: «وَ إِذَا أَدْقَيْتُمُ النَّاسَ» عبر عن الإصابه بالإذاقه للإيماء إلى التذاذهم بالرحمه و عنايه بالقله فإن الذوق يستعمل فى القليل من التغذى «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» و التعبير بالرحمه فى موضع السراء للإشاره إلى أنها من الرحمه الإلهيه من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه، و يخضعوا لما تدعو إليه الآيه و هو توحيد ربهم و شكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم قد مس آباءنا السراء و الضراء، و الاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» و قولهم:

«إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُ مِنْ أَرْضِنَا».

فأمر الله نبيه ص أن يجيبهم بقوله: «قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا» ثم علله بقوله: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم إليكم يكتبون أعمالكم و يحفظونها و بمجرد، ما عملتم عملاً حفظ عليكم و تعين جزاؤه لكم قبل أن يؤثر مكركم أثره أو لا يؤثر كما فسروه.

و هنا شىء و هو أن الظاهر من قوله تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسِيحِينَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ:» الجاثيه: -٢٩ على ما سيجىء من البيان فى تفسير الآيه إن شاء الله تعالى أن معنى كتابه الملائكه أعمال العباد هو إخراجهم الأعمال من كمون الاستعدادات إلى مرحله الفعلية الخارجيه و رسم نفس الأعمال فى صحيفه الكون و بذلك تنجلي عليه كتابه الرسل لأعمالهم لكونه تعالى أسرع مكرًا تمام الانجلاء فإن حقيقه المعنى على هذا: أنا نحن نخرج أعمالكم التى تمكرون بها من

داخل ذواتكم و نضعها فى الخارج فكيف يخفى علينا كونكم تريدون بنا المكر بذلك؟ و هل المكر إلا صرف الغير عما يقصده بحيله و ستر عليه بل ذاك الذى تزعمونه مكرنا بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرنا و تقدمون على المكر بنا، و هذه المزعمه و الإقدام ضلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته أيديكم، و سيأتى نظير هذا المعنى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيَّتُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية - ٢٣ من السوره.

و فى الآيه التفات من الغيبه إلى الخطاب فى قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ على قراءه تمكرون بناء الخطاب و هى القراءه المشهوره و هو من عجيب الالتفات الواقع فى القرآن و لعل النكته فيه تمثيل معنى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا﴾ فى العين كأنه تعالى لما قال لنبيه (ص): ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا﴾ أراد أن يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلهمهم و أوضح لهم السبب فى كونه أسرع مكرنا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا إلى غيبتهم و عاد الكلام إلى حاله، و خوطب النبى ص ببقية الخطاب: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ إلخ، و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ إلى آخر الآيه، الفلك السفينه و تستعمل مفردا و جمعا، و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: ﴿وَ جَرَيْنَ بِهِمْ﴾ و الريح العاصف: الشديده الهبوب، و قوله:

﴿أَحِيطَ بِهِمْ﴾ كناية عن الإشراف على الهلاك و تقديره أحاط بهم البلاء أو الأمواج، و الإشارة بقوله: ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ إلى الشده. و معنى الآيه ظاهر.

و فيها من عجيب الالتفات من الخطاب إلى الغيبه فى قوله: ﴿وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ - إلى قوله - بِغَيْرِ الْحَقِّ و لعل النكته فيه إرجاعهم إلى الغيبه و توجيه الخطاب إلى النبى ص و وصف أعجب جزء من هذه القصة الموصوفه له ليسمعه و يتعجب منه، و يكون فيه مع ذلك إعراض عن الأمر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أصل البغى

هو الطلب و يكثر استعماله فى مورد الظلم لكونه طلبا لحق الغير بالتعدى عليه و يقيد حينئذ بغير الحق، و لو كان بمعنى الظلم محضا لكان القيد زائدا.

و الجملة من تنمى الآيه السابقه، و المجموع أعنى قوله: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ - إِلَى قَوْلِهِ - بَغَيْرِ الْحَقِّ» بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه إلى عموم قوله قبله:

«وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» إلى آخر الآيه، أو لخصوص قوله:

«قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا» و على أى حال فقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إلخ، مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام فى الآيه السابقه و إن لم يكن من كلام النبى ص فافهم ذلك.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ» إلى آخر الآيه، فى الكلام التفات من الغيبه إلى الخطاب فقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» إلخ، خطاب منه تعالى للناس بلا واسطه، و ليس من كلام النبى (ع) مما أمره الله سبحانه أن يخاطب به الناس.

و الدليل على ذلك قوله تعالى «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ» إلى آخر الآيه، فإنه لا يصلح أن يكون من خطاب النبى ص.

و النكته فى هذا الالتفات هى نظير النكته التى قدمنا ذكرها فى قوله تعالى فى أول الكلام: «إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فكانه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النبى ص و هم يحسبون أن ربهم غائب عنهم غافل عن نياتهم و مقاصدهم فى أعمالهم فيشرف عليهم و يمثل بذلك كونه معهم فى جميع أحوالهم و إحاطته بهم و يقول لهم: أنا أقرب إليكم و إلى أعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبتغوا علينا و تمكروا بنا إنما توجد بتقديرنا و تجرى بأيدينا فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا؟ بل هى بغى منكم على أنفسكم فإنها تبعدكم منا و تكتب آثامها فى صحائف أعمالكم فبغيتكم على أنفسكم و هو متاع الحياه الدنيا تتمتعون به أياما قلائل ثم إلينا مرجعكم فنخبركم و نوضح لكم هناك حقائق أعمالكم.

و قوله: «مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بالنصب فى قراءه حفص عن عاصم و التقدير:

تتمتعون متاع الحياه الدنيا، و بالرفع فى قراءه غيره و هو خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير هو أى بغيركم و عملكم متاع الحياه الدنيا.

و على كلتا القراءتين فقوله: «مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» إلى آخر الآيه، تفصيل لإجمال قوله: «إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ» فقوله «مَتَاعِ» الخ، فى مقام التعليل بالنسبه إلى كون بغيرهم على أنفسهم من قبيل تعليل الإجمال بالتفصيل و بيانه به.

قوله تعالى: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» إلى آخر الآيه، لما ذكر سبحانه فى الآيه السابقه متاع الحياه الدنيا مثل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقه أمره ما يعتبر به المعتبرون، و هو من الاستعاره التمثيليه و ليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شىء و إن أوهم ذلك قوله: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ» ابتداء، و نظائره شائعه فى أمثال القرآن، و الزخرف الزينه و البهجه، و قوله:

«لَمْ تَعْنَى» من غنى فى المكان إذا أقام فيه فأطال المقام، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو إلى ما يدعى إليه و جلب توجهه و هو أعم من النداء فإن النداء يختص بباب اللفظ و الصوت، و الدعاء يكون باللفظ و الإشاره و غيرهما، و النداء إنما يكون بالجهر و لا يقيد به الدعاء.

و الدعاء فى الله سبحانه تكوينى و هو إيجاد ما يريد له لشىء كأنه يدعوه إلى ما يريد، قال تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» :إسراء:- ٥٢ أى يدعوكم إلى الحياه الأخرويه فتستجيبون إلى قبولها، و تشريعى و هو تكليف الناس بما يريد من دين بلسان آياته، و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنايته إلى نفسه بنصب نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه، و لذا كانت العباده فى الحقيقه دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه فى مقام المملوكيه و الاتصال بمولاه بالتبعيه و الذله ليعطفه بمولويته و ربوبيته إلى نفسه و هو الدعاء.

و إلى ذلك يشير قوله تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ: المؤمن - ٦٠ حيث عبر أولاً بالدعاء ثم بدله ثانياً بالعبادة.

وقد التبس الأمر على صاحب المنار فقال في تفسيره: إن قول بعض المفسرين وغيرهم: إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغه ولا شرعا وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية وأعظم أركان التكليفية منها كما ورد في الحديث فكل دعاء شرعى عباده و ما كل عباده شرعية دعاء. انتهى و منشأ خطئه زعمه أن معنى الدعاء هو النداء للطلب و غفلته عما تقدم من تحليل معناه.

و الأصل في معنى السلام على ما ذكره الراغب في المفردات، هو التعرّى عن الآفات الظاهره و الباطنه، و إليه يرجع معناه في جميع مشتقاته، و السلام و السلامه واحد كالرضاع و الرضاعه، و الظاهر أن السلام و الأمن متقاربان معنى، و إنما الفارق أن السلام هو الأمن مأخوذاً في نفسه، و الأمن هو السلام مضافاً إلى ما يسلم منه يقال: هو في سلام، و هو في أمن من كذا و كذا.

و السلام من أسمائه تعالى لأن ذاته المتعالیه نفس الخير الذى لا شرفيه، و تسمى الجنه دار السلام حيث لا شر فيها و لا ضر على ساكنها، و قيل: إنما سميت دار السلام لأنها دار الله الذى هو السلام، و المال واحد فى الحقيقه لأنه تعالى إنما سمى سلاماً لبراءته من كل شر و سوء، و فى سياق الآيه ما يشعر بكون معنى السلام الوصفى مقصوداً فى الكلام.

و قد أطلق سبحانه السلام و لم يقيد به شىء و لا ورد فى كلامه ما يقيد به بعض الحثيات فهو دار السلام على الإطلاق و ليست إلا الجنه فإن ما يوجد عندنا فى الدنيا من السلام إنما هو الإضافى دون المطلق فما من شىء إلا و هو مزاحم ممنوع من بعض ما يحبه و يهواه، و ما من حال إلا و فيه مقارنات من الأضداد و الأنداد.

فإذا أخذت معنى السلام مطلقاً غير نسبى تحصل عندك ما عليه الجنه من الوصف، و انكشف أن توصيفها بهذه الصفه نظير توصيفها فى قوله: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

فِيهَا: ق-٣٥، فَإِنَّ سَلَامَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ وَ لَا يَحِبُّهُ تَلَاظِمُ سُلْطَانَهُ عَلَى كُلِّ مَا يَشَاءُهُ وَ يَحِبُّهُ.

و فِي تَقْيِيدِ دَارِ السَّلَامِ بِكُونِهَا عِنْدَ رَبِّهِمْ دَلَالَةٌ عَلَى قَرَبِ الْحُضُورِ وَ عَدَمِ غَفْلَتِهِمْ عَنْهُ سَبْحَانَهُ هُنَاكَ أَصْلًا، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْهَدَايَةِ وَ مَعْنَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْأَبْحَاثِ السَّابِقَةِ كَتَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَمْدِ وَ غَيْرِهِ.

(بَحْثُ رَوَائِي)

فِي تَفْسِيرِ الْقَمِي، " : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: « قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا - إِنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا - الْآيَةَ، قَالَ فَإِنْ قَرِيشًا قَالَتْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا - فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ تَعَلَّمْتَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى -، قَالَ اللَّهُ: قُلْ لَهُمْ -: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتَهُ عَلَيْكُمْ - وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً - قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ، وَ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ مِنْهُ - حَتَّى أُوحَى إِلَيَّ .

أَقُولُ: وَ فِي انْطِبَاقِ مَضْمُونِهِ عَلَى الْآيَةِ خَفَاءً، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ مَخَاطِبَتِهِمُ النَّبِيَّ ص بِالرَّسَالَةِ.

وَ فِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ص) قَالَ * لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ص يَقُولُ: إِنْ أَحَافَ - إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ - فَلَمْ يَعُدْ إِلَيَّ ذَلِكَ الْكَلَامُ.

أَقُولُ: وَ الرَّوَايَةُ لَا تَخْلُو عَنْ شَيْءٍ .

وَ فِي الدَّرِ الْمَنْشُورِ، أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ " : فَرَعَكَرْمَهُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ الْفَتْحِ - فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَخَذَتْهُ الرِّيحُ فَنَادَى بِاللَّاتِ وَ الْعَزَى -، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: - لَا يَجُوزُ هَاهُنَا أَحَدٌ يَدْعُو شَيْئًا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ مَخْلَصًا، - فَقَالَ عَكَرْمَهُ:

وَ اللَّهُ لَئِنْ كَانَ فِي الْبَحْرِ وَحْدَهُ - إِنَّهُ لَفِي الْبَرِّ وَحْدَهُ، فَأَسْلَمَ.

أقول: و الروايه مرويه بطرق كثيره مختلفه.

و فى تفسير العياشى، عن منصور بن يونس عن أبى عبد الله (ع): * ثلاث يرجعن على صاحبهن -: النكث و البغى و المكر، قال الله -:
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ .

أقول:

و هو مروى عن أنس عن النبى ص قال: ثلاث هن رواجع على أهلها -: النكث و المكر و البغى. ثم تلا- رسول الله ص -: « يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » - « وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا - بِأَهْلِهِ » - « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ »: أوردته فى الدر
المنثور.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى الحليه عن أبى جعفر محمد بن على قال:

ما من عباده أفضل من أن تسأل-، و ما يدفع القضاء إلا الدعاء-، و إن أسرع الخير ثوابا البر-، و أسرع الشر عقوبه البغى- و كفى
بالمرء عيبا- أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه-، و أن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه-، و أن يؤذى جليسه بما لا
يعنيه.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ص: لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما.

و فى تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن العلاء بن عبد الكريم قال:

سمعت أبا جعفر (ع) يقول: فى قول الله عز و جل: « وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ ذَارِ السَّلَامِ » - فقال إن السلام هو الله عز و جل - و داره التى
خلقها لأولياته الجنه.

و فيه، عن ابن شهر آشوب عن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه و زيد بن على بن الحسين (ع): فى قوله تعالى: « وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ
ذَارِ السَّلَامِ » - يعنى به الجنه « وَ يَهْدَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » - يعنى ولايه على بن أبى طالب.

أقول: إن كانت الروايه موقوفه فهى من الجرى أو من الباطن من معنى القرآن، و فى معناها روايات أخر.

ص: ٤١

اشاره

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسَيْنِيَّ وَزِيَادَهُ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا
السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئِهِ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْبَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ
مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ
رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

(بيان)

استئناف يعود فيه إلى ذكر جزاء الأعمال و عود الجميع إلى الله الحق، و قد تقدم إيماء إلى ذلك، و فيه إثبات توحيد الربوبية.

قوله تعالى: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسَيْنِيَّ وَ زِيَادَهُ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ» إلخ، الحسنى مؤنث أحسن و المراد المثوبه
الحسنى، و المراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا
للعامل فى مثل قوله: «لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ: آل عمران-١٩٩ ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما فى قوله:»
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ

أَمْثَالِهَا: الأنعام-١٦٠ و عند ذلك كان مفاد قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنی، و تكون الزیاده هی الزیاده علی مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظیر ما یفیده قوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»: النساء:-١٧٣.

و لو كان المراد بالحسنى فى قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» العاقبه الحسنی، و ليس فيما یعقل فوق الحسنی شیء كان معنی قوله: «و زِيَادَةٌ» الزیاده علی ما یعقله الإنسان من الفضل الإلهی كما یشیر إليه قوله: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» الم السجده-١٧ و ما فى قوله: «لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ» ق-٣٥ فإن من المعلوم أن كل أمر حسن یشاءه الإنسان فالمزید علی ما یشاءه أمر فوق ما یدرکه فافهم ذلك.

و الرهق بفتح الحوق و الغشيان یقال: رهقه الدين أى لحق به و غشيه، و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، و فى توصیفهم بقوله: «و لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ» محاذاه لما فى الآيه التاليه من وصف أهل النار بسواد و جوههم بالقتر و هو سواد صوری و الذله و هی سواد معنوی.

و المعنى: للذين أحسنوا فى الدنيا المثوبه الحسنی و زیاده من فضل الله-أو العاقبه الحسنی و زیاده لا تخطر ببالهم-و لا یغشى و جوههم سواد من قتر و لا ذله، و أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» إلى آخر الآيه، جمله «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: لهم جزاء سيئه بمثلها من العذاب، و الجملة خبر للمبتدأ الذى هو قوله: «الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» و المراد أن الذين كسبوا السيئات لا یجزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئه فجزاء فعله سيئه عقوبه سيئه.

و قوله: «مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أى ما لهم عاصم یعصمهم من الله أى من عذابه و فيه نفى لشركائهم الذين یظنونهم شفعاء علی وجه ینفى كل عاصم مانع سواء كان شریکا شفیعا أو ضدا قويا ممانعا أو أى عاصم غیرهما.

وقوله: «كَانَ لَكُمْ مَا أَغْشَيْتُمْ وَجُوهَهُمْ قَطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلَمًا» القطع جمع قطعه و مظلمًا حال من الليل، والمراد كان الليل المظلم قسم إلى قطع فأغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام، والمتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعه من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض. فليس في الكلام ما يدل على ذلك.

وقوله: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» يدل على دوام بقائهم في النار للدلاله الصحابه و الخلود عليه كما أن نظيره في أصحاب الجنة يدل على نظيره.

قوله تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ» إلى آخر الآيه. المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين و المشركين و شركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين و شركاءهم في هذه الآيه و ما يتلوها ثم يشير إلى الجميع بقوله في الآيه التاليه: «هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ».

وقوله: «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ» أى الزموا مكانكم أنتم و ليلزم شركاؤكم مكانهم و تفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم، و قطعنا الرابطه التى كانت تربطهم بشركائهم و هى رابطه الوهم و الحسبان التى يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم و انقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء و هم ليسوا بشركاء.

و الدليل على هذا الذى ذكرناه قوله تعالى بعده: «وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ» فالكلام على ظاهره من النفى الجدى الصادق لعبادتهم إياهم، و ليسوا يكذبون فى كلامهم هذا بدليل استنادهم إلى شهاده الله سبحانه، و لا أنهم يريدون أنا لم نكن ندعوكم إلى عبادتنا فإن الكلام لا يلائم هذا المعنى، و لا أن مرادهم التعريض لهم بأنكم كنتم تعبدون أهواءكم و شياطينكم المغوين لكم فى الحقيقه فإن ذلك لا يلائم دعواهم الغفله، و كذا لا يلائمه قوله بعده: «هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ» الخ، على ما سيجىء من معناه بل مرادهم نفى العباده حقيقه بنفى حقيقه الشركه، و الاستشهاد على ذلك بشهاده الله و علمه بغفلتهم عن عبادتهم.

و العباده التى هى اتصال ما بالمملوكيه و التذلل من العابد بالمعبود إنما تكون عباده إذا اتصلت و ارتبطت بالمعبود-حتى يتم به معنى اللام فى قولنا:العباده له- و لا- يكون ذلك إلا بشعور من المعبود و علم منه بذلك فإذا لم يتحقق هناك علم لم يتحقق عباده حقيقه،و إنما هى صورته عباده.

فقد تبين أن المراد بقوله: «تُمْ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَلِّذُوا بَيْنَهُمْ» إظهاره و إبرازه تعالى يومئذ حقيقه الأمر الذى سترت عليه الأوهام و حجبته الأهواء فى الدنيا و هو أن حقيقه المولويه و مالكيه زمان التدبير لله سبحانه و ليس لغيره من المولويه و الربوبيه شىء حتى يصح الالتجاء إليه و تصدق عبادته.

فإذا كشف الله الغطاء عن وجه هذه الحقيقه يومئذ بأن للمشركين أن شركاءهم لم يكونوا شركاء و لا معبودين لهم فى الحقيقه- لغفلتهم عن عبادتهم،و إنما كانوا يأتون لهم بصوره العباده التى كان الوهم و الهوى يصور أنها عباده و ليست بها.

و إليه يشير أيضا قوله تعالى: «وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاءُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ»: النحل:- ٨٦.

و قد تبين بذلك أيضا أن قوله: «وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانا تَعْبُدُونَ» قول من شركائهم لهم على الجد و الحقيقه،و يظهر به فساد قول بعضهم:المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا و دعائنا لا أنكم لم تعبدونا أصلا لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع فى الآخره لكونهم ملجئين فيها إلى ترك القبيح.

فإن نفى أصل العباده بما عرفت من معناه هو حق الصدق و إثبات العباده و إن لم يكن كذبا إلا أنه لا يخلو عن مجاز فى الجمله بالنظر إلى حقيقه الأمر على أن ما ذكره أن المراد نفى العباده بأمرهم و دعوتهم معنى لا دليل عليه من جهه اللفظ.

على أن الكذب إنما لا يقع فى الآخره إذا كان عملا و كسبا و إما بمعنى نتيجه الملكات الدنيويه فلا مانع من إمكانه بل هو واقع كما يحكيه تعالى فى قوله: «تُمْ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ»:

الأنعام:- ٢٤ و غيره من الآيات.

و كذا قول بعضهم: إن المراد ما كنتم تخلصوننا بالعبادة، و إنما كنتم تعبدون أهواءكم و شهواتكم و شياطينكم المغويه لكم- فإن صدق عباده الأهواء و الشيطان على عملهم من جهة أنه اتباع للهوى و الشيطان لا ينفي عنه صدق كونه عباده للأصنام كما أنه تعالى يصدق في كلامه الجهات الثلاث جميعا قال تعالى: ﴿وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ﴾: يونس- ١٨ و قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾:

الجاثية- ٢٣، و قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾: يس- ٦٠.

و من المعلوم أن الشركاء يحتجون لنفي كونهم معبودين لهم لا لإثبات كون الهوى و الشيطان معبودين لهم مع الشركاء فإن هذا لا- ينفعهم في الحجة البتة، و يستلزم لغويه إثباتهم الغفلة لأنفسهم في قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لأن الأهواء أيضا ما كانت شاعره بعبادتهم كما أن الأصنام و هي أجسام ميتة كذلك.

و لعل القائل اعتمد في قوله على الحصر المفهوم من قوله: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ﴾ بتقديم المفعول على فعله، و ظاهره أنه قصر قلب مدلوله نفي المعبودية عن أنفسهم و إثباته لغيرهم، ليس نفيًا لأصل العبادة فإنهم يثبتونها في قولهم: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ فإن إضافه المصدر إلى معموله يفيد الثبوت.

لكن الحق أن هؤلاء الشركاء إنما قالوا لهم: ﴿مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ﴾ تجاه ما قاله المشركون على ما حكاها الله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾:

النحل- ٨٦ فنفوا عبادتهم عن الله سبحانه و أثبتوها للشركاء و الشركاء لم يكن ينفعهم إلا نفي عبادة المشركين عن أنفسهم، و أما أنها ثابتة لمن؟ فلا غرض لهم يتعلق بذلك و إنما همهم تنزيه أنفسهم عن دعوى الشركاء، و قد احتجوا على ذلك بإثبات الغفلة عن ذلك لأنفسهم، و لو كانوا شاعرين بعبادتهم و عبدوهم كان لزمهم أعنى الشركاء دعوى الشركاء.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ﴾ إلى آخر الآيه، ظهر معناه بما مر من التقرير و الفاء في قوله: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ يَفِيدُ التَّعْلِيلَ كَقَوْلِنَا: اعْبُدِ اللَّهَ فَهُوَ رَبُّكَ، و هو شائع في الكلام.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ إلى آخر الآيه، البلاء

الاختبار، والإشارة بقوله: «هُنَالِكَ» إلى الموقف الذى ذكره بقوله: «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَزَيْلَانَا بِئِنَّهُمْ

فذلك الموقف موقف اختبار و تمتحن كل نفس ما أسلفت و قدمت من الأعمال فتكشف لها حقيقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عيان لا مجرد الذكر أو البيان، و بمشاهده الحق من كل شىء عيانا ينكشف أن المولى الحق هو الله سبحانه، و تسقط و تنهدم جميع الأوهام، و تضل جميع الدعاوى التى يفتريها الإنسان بأوهامه و أهوائه على الحق.

فهذه الافتراءات و الدعاوى جميعا إنما نشأت من حيث الروابط التى نضعها فى هذه الدنيا بين الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولويه التى نعطيها الأسباب و لا- إله إلا- الله و لا- مولى حقا إلا- هو سبحانه فإذا انجلت حقيقه الأمر، و انكشف غيم الوهم و انتهت حجاب الدعاوى ظهر أن لا مولى حقا إلا هو سبحانه، و بطل جميع الآلهه التى إنما أثبتتها الافتراء من الإنسان، و سقطت و حبطت جميع الأعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عباده حق.

فالفقرات الثلاث من الآيه أعنى قوله: «تَبَلُّوا كُلُّ نَفْسٍ» إلخ، و قوله:

«رُدُّوا إِلَى اللَّهِ» إلخ، و قوله: «وَضَلَّ عَنْهُمْ» إلخ، كل منها تعين الآخرين على إفاده حقيقه معناها، و محصل مفاد المجموع ظهور حقيقه الولاية الإلهيه يومئذ ظهور عيان و أن ليس لغيره تعالى إلا الفقر و المملوكيه المحصنه فيبطل عند ذلك كل دعوى باطله و ينهدم ببيان الأوهام.

كما يشير إلى ذلك قوله: «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ» الكهف: -٤٤، و قوله:

«يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»

غافر-١٦: «و قوله وَ الْأَمْرُ يُؤَمَّنِدُ لِلَّهِ: الانفطار: -١٩، إلى غير ذلك.

فى أمالى المفيد، بإسناده إلى أبى إسحاق الهمدانى عن أمير المؤمنين (ع): فيما كتب إلى محمد بن أبى بكر حين ولاه مصر - وأمره أن يقرأه على الناس، وفيما كتب:

قال الله تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» - والحسنى هى الجنة - والزيادة هى الدنيا.

و فى تفسير القمى، فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (ع) فى الآية: فأما الحسنى فهى الجنة، وأما الزيادة فالدنيا - ما أعطاهم الله فى الدنيا يحاسبهم الله فى الآخرة، و يجمع الله لهم ثواب الدنيا والآخرة. الحديث.

أقول: و الروايتان ناظرتان إلى المعنى الأول الذى قدمناه فى البيان المتقدم و روى ما فى معنى الثانى الطبرسى فى المجمع، عن الباقر (ع).

و فى تفسير البرهان، روى فى نهج البيان عن على بن إبراهيم قال: "قال الزيادة هبه الله عز و جل.

و فى الدر المنثور، أخرج الدارقطنى و ابن مردويه عن صهيب فى الآية قال: قال رسول الله ص: الزيادة النظر إلى وجه الله:

أقول: و روى هذا المعنى بعده طرق من طرق أهل السنه عن النبى ص

و قد تقدم توضيح معناها فى تفسير قوله تعالى: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ»: الأعراف: - ١٤٣ فى الجزء الثامن من الكتاب.

و فى الكافى، بإسناده عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع): فى قوله: «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا» - قال: أ ما ترى البيت إذا كان الليل - كان أشد سوادا من خارج - فكذلك وجوههم يزدادون سوادا:

أقول: و رواه العياشى عن أبى بصير عنه (ع)

و كأنه (ع) يريد تفسير القطع من الليل الواقعه فى الآية.

و في الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ عن السدي: "في قوله: «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ» قال:- نسختها قوله: «مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا- وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ».

أقول: و هو من أسخف القول بل الآيتان ناظرتان إلى جهتين مختلفتين من المعنى و هما الظاهر و الباطن.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]

اشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

حجج ساطعه على توحيدته تعالى فى الربوبية يأمر نبيه ص بإقامتها على المشركين، وهى ثلاث حجج مرتبه بحسب الدقه و المتانته فالحجه الأولى تسلكك من الطريق الذى يعتبره الوثنيون و عبده الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهه تدبيرهم للكون فيعبدون كلا منهم لأجل ما يخص به من الشأن، و ما يرجع إليه من التدبير ليرضى بذلك عمن يعبده فيفيض عليه بركاته أو ليؤمنه فلا- يرسل إليه سخطه و عقابه كما كان يعبد سكان السواحل رب البحر، و أهل الجبال و أهل البر و أهل العلوم و الصنائع و أهل الحروب و الغارات و غيرهم كل يعبد من يناسب تدبيره الشأن الذى يهمله ليرضى عنه ربه فيبارك عليه برضاه أو يكف عنه غضبه.

و محصل الحجه أن تدبير العالم الإنسانى و سائر الموجودات جميعا يقوم به الله سبحانه لا غير على ما يعترفون به فمن الواجب أن يوحده بالربوبية و لا يعبدوا إلا إياه.

و الحجه الثانيه ما يعتبره عامه المؤمنين و ذلك أنهم لا يلتفتون كثيرا إلى زخارف هذه النشأه من لذائذ الماده، و إنما جل اعتنائهم بالحياه الدائمه الأخرويه التى تتعين سعادتها و شقاوتها بالجزاء الإلهى بأعمالهم فإذا قامت اليينه العقليه على الإعاده كالبده كان من الواجب أن لا يعبد إلا الله سبحانه، و لا يتخذ أرباب من دونه طمعا فى ثوابه و خوفا من عقابه.

و الحجه الثالثه وهى التى تحن إليها قلوب الخاصه من المؤمنين و هى أن المتبع عند العقل هو الحق، و لما كان الحق سبحانه هو الهادى إلى الحق دون ما يدعونه من الأرباب من دون الله فليكن هو المتبع دون ما يدعونه من الأرباب، و سيأتى فى تفسير الآيات توضيح هذه الحجج الثلاث بما تنجلي به مزيد انجلاء إن شاء الله.

و لو لا اعتبار هذه النكته كان الظاهر أن تذكر أولا الحجه الثانيه ثم الثالثه ثم الأولى أو تذكر الثانيه ثم يجمع بين الأولى و الثالثه فيذكر بعدها.

قوله تعالى: « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ » إلى آخر الآية. الرزق هو العطاء الجارى، و رزقه تعالى للعالم الإنسانى من السماء هو نزول الأمطار و الثلوج و نحوه، و من الأرض هو إنباتها نباتها و تربيتها الحيوان و منها يرتزق الإنسان، و ببركه هذه النعم الإلهيه يبقى النوع الإنسانى و المراد بملك السمع و الأبصار كونه تعالى متصرفا فى الحواس الإنسانيه التى بها ينتظم له أنواع التمتع من الأرزاق المختلفه التى أذن الله تعالى أن يتمتع بها فإنما هو يشخص و يميز ما يريد مما لا يريد بإعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فيتحرك نحو ما يريد، و يتوقف أو يفر مما يكرهه بها.

فالحواس هى التى تتم بها فائده الرزق الإلهى، و إنما خص السمع و البصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما فى الأعمال الحيويه أكثر من غيرهما، و الله سبحانه هو الذى يملكهما و يتصرف فيهما بالإعطاء و المنع و الزيادة و النقصه.

و قوله: « وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » الحياه بحسب النظر البادئ فى الإنسان هى المبدأ الذى يظهر به العلم و القدره فى الشىء فيصدر أعماله عن العلم و القدره ما دامت الحياه، و إذا بطلت بطل الصدور كذلك.

ثم اكتشف من طريق النظر العلمى أن ذلك لا يختص بأقسام الحيوان كما كان يعطيه النظر الابتدائى فإن الملاك الذى كان يوجب للحيوان كونه ذا حياه- و هو كونه ذا نفس يصدر عنها أعمال مختلفه لا- على وتيره واحده طبيعيه كحركته إلى جهات مختلفه بحركات مختلفه و سكونه من غير حركه- موجود فى النبات.

و كذلك الأبحاث الجاربه على الطرق الحديثه تعطى ذلك فإن جراثيم الحياه الموجوده فى الحيوان التى إليها تنتهى أعماله الحيويه توجد فى النبات نظيرها فهو ذو حياه كمثلى الحيوان فالنظر العلمى على أى حال يهدى إلى عموم الحياه لجميع أنواع الحيوان و النبات.

ثم الحياه و هى تقابل الموت الذى هو بطلان مبدأ الأعمال الحيويه تعود بحسب التحليل إلى كون الشىء بحيث ترتب عليه آثاره المطلوبه منه كما أن الموت عدم كونه كذلك فحياه الأرض هى كونها نابته مخضره و موتها خلافه، و حياه العمل

كونه بحيث ينتهي إلى الغرض الذى أتى به لأجله و موته خلافه، و حياه الكلمه كونها بحيث تؤثر فى السامع أثرا مطلوباً و موتها خلافه، و حياه الإنسان كونه جارياً على ما تهدي إليه الفطره الإنسانيه ككونه ذا عقل سليم و نفس زاكيه، و لذا عد القرآن الشريف الدين حياه للإنسان لأنه يرى أن الدين الحق و هو الإسلام هو الفطره الإلهيه.

إذا تبين هذا اتضح أن خروج الحى من الميت و خروج الميت من الحى يختلف.

معناه بحسب اختلاف المراد بالحياه و الموت فعلى النظرتين الأوليين هو خروج الحيوان أو الحيوان و النبات بالكينونه من غيرها كالمنى و البيضه و البذر فإن الحى كما لا تدوم له هذه الحياه بقاء إلى غير النهايه لا تذهب أيضاً بحسب البدء فى حياه غير متناهيه و لا طريق إلى إثباته، و خروج أجزاء غير ذات حياه من الحيوان أو النبات بالانفصال.

و على النظره الأخيره أعنى نظره تعميم الحياه لكل ما يترتب عليه آثارها المطلوبه منها هو أن يخرج من الأمور غير المفيده فى باب أمور مفيده فى ذلك الباب بالكينونه و التولد كخلق الإنسان الحى و الحيوان الحى و النبات الحى من التراب الميت و بالعكس، و كخروج الإنسان العاقل الصالح من الإنسان الذى لا عقل له و لا صلاح و بالعكس، و خروج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن.

و ظاهر الآيه الكريمه بالنظر إلى سياقها و مقام المخاطبه فيها أن يكون المراد بإخراج الحى من الميت و بالعكس فيها هو هذا المعنى الأخير، و ذلك أن الآيه تقيم الحجه على المشركين من المسلك الذى كانوا يسلكونه فى الاحتجاج على اتخاذ الآلهه المختلفه و هو أن العالم المشهود مجموعه من موجودات مختلفه متشتمته علويه و سفليه و السفليه من إنسان و حيوان و نبات و بحر و بر و أمور وراء ذلك كثيره، و كل منها تحت تدبير مدبر شفيع عند الله نعبده بعباده صنمه ليقرّبنا إلى الله زلفى و بالجمله انتهاء التدبيرات على اختلافها إلى مدبرات مختلفه يوجب وجود أرباب من دون الله كثيره.

و الآيه ترد عليهم حجتهم ببيان انتهاء التدبيرات المختلفه إليه تعالى و أن ذلك

يدل على أن الله سبحانه رب كل شيء وحده، فهي تخاطبهم بأنكم تعترفون بأن ما يخصكم من التدبير كرزقكم و ما يعمكم و غيركم منه ينتهى إلى الله سبحانه فهو المدبر لأمركم و أمر غيركم فهو الرب لا رب سواه.

و قد بدأت فى التعداد بما يخص الإنسان أعنى قوله: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» و ختمت بما يعمه و غيره أعنى قوله: «وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» و ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ» هو التدبير الخاص بالإنسان فيكون المراد ملك السمع و الأبصار التى لأفراد الإنسان، و كذا إخراج الحى من الإنسان من ميتة و بالعكس، و قد تبين أن الحياه المخصوصه بالإنسان هو كونه ذا نعمه العقل و الدين.

فالمراد بإخراج الحى من الميت و بالعكس-و الله أعلم-إخراج الإنسان الحى بالسعاده الإنسانيه من الإنسان الميت الذى لا سعاده له و بالعكس.

فالله سبحانه يلقن نبيه ص الحججه على توحيد الربوبيه فأمره بقوله:

«قُلْ إِنْ يَقُولُ لَهُمْ فِي سِيَاقِ الْأَسْتِفْهَامِ «مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» بِالْأَمْطَارِ وَ الْإِنْبَاتِ وَ التَّكْوِينِ «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ» مِنْكُمْ فَتَمَّ بِهِمَا فَائِدُهُ رِزْقُكُمْ حَيْثُ تَرْتَزِقُونَ بِتَشْخِصِهِمَا مِنْ طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَ لَوْلَاهُمَا لَمْ تَوْفِقُوا لِذَلِكَ وَ فَنَيْتُمْ عَنْ آخِرِكُمْ «وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ» أَيْ كُلِّ أَمْرٍ مَفِيدٍ فِي بَابِهِ مِنْ غَيْرِهِ «وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» فَيَتَوْلَدُ الْإِنْسَانُ السَّعِيدُ مِنَ الشَّقِيِّ وَ الشَّقِيُّ مِنَ السَّعِيدِ «وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» فِي جَمِيعِ الْخَلْقِ.

«فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ» اعترافاً بأنه الذى ينتهى إليه جميع هذه التدبيرات فى الإنسان و غيره لأن الوثنيين يعتقدون ذلك فأمر النبى ص أن يوبخهم أولاً- على ترك تقوى الله بعباده غيره مع ظهور الحججه ثم يستنتج لهم من الحججه وجوب توحيدته تعالى فقال: «قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ» ثم قال: «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ».

قوله تعالى: «فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ» الجملة الأولى نتيجة الحججه السابقه، و قد وصف الرب بالحق ليكون توضيحاً لمفاد الحججه، و توطئه و تمهيداً لقوله بعده: «فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ».

وقوله: «فَمَاذَا بَعِيدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون في عبادة الأصنام فإنه إذا كانت ربوبيته تعالى حقه فإن الهدى في اتباعه و عبادته فإن الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذى هو الباطل إلا الضلال.

فتقدير الكلام: فما ذا بعد الحق الذى معه الهدى إلا الباطل الذى معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شىء و أقيم الباقي مقامه إيجازاً، و قيل: فما ذا بعد الحق إلا الضلال، و لذا قال بعضهم: إن فى الآية احتباكاً- و هو من المحسنات البديعية- و هو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شىء يدل عليه الآخر فإن تقدير الكلام: فما ذا بعد الحق إلا الباطل؟ و ما ذا بعد الهدى إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول و الهدى من الثانى و بقى قوله: فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ و الوجه هو الذى قدمناه.

ثم تمم الآية بقوله: «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» أى إلى متى تصرفون عن الحق الذى معه الهدى إلى الضلال الذى مع الباطل.

قوله تعالى: «كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَدُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» ظاهر السياق أن الكلمة التى تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هى أنهم لا يؤمنون أى أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتماً و هو أن الفاسقين و هم على فسقهم- لا يؤمنون و لا تنالهم الهداية الإلهية إلى الإيمان، و قد قال تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»: المائدة: ١٠٨.

و على هذا فالإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» إلى ما تحصل من الآية السابقة: أن المشركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فى الضلال إذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

فمعنى قوله: «كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» إلخ، أن الكلمة الإلهية و القضاء الحتمى الذى قضى به فى الفاسقين- و هو أنهم لا يؤمنون- هكذا حقت و ثبتت فى الخارج و أخذت مصداقها و هو أنهم خرجوا عن الحق فوقعوا فى الضلال أى أنا لم نقض عدم هدى الفاسقين و عدم إيمانهم ظلماً و لا جزافاً و إنما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فى الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلك.

و فى الآيه دلالة على أن الأمور الضرورية و الأحكام و القوانين البينة التى تجرى فى النظام المشهود كقولنا: لا واسطه بين الحق و الباطل و لا بين الهدى و الضلال لها نوع استناد إلى القضاء الإلهى، و ليست ثابتة فى ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

و ربما ذكر بعض المفسرين: أن المراد بالكلمه فى الآيه كلمه العذاب و قوله:

« أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » فى موضع التعليل بتقدير لاهمه، و التقدير كثبوت هذه الحججه عليهم حقت كلمه ربك على الذين فسقوا و هى وعيدهم بالعذاب و إنما حقت عليهم العذاب لأنهم لا يؤمنون.

و لا يخلو عن سقم فإن وجه الشبه غير ظاهر و لا متفق فيهما فالحججه ثابتة عليهم بذاتها و أما العذاب فليس ثبوته كذلك بل لأمر آخر و هو أنهم لا يؤمنون.

و الحججه- كما سمعت فى البيان المتقدم- حجه ساذجه يعترف بحقيقتها الوثنيه، و قد صرفوها عن وجهها و أقاموا على ما يدعونها من ربوبيه أربابهم و استحقاقها للعباده من دون الله حيث قالوا: إن تدبير كل شأن من شئون العالم العامه إلى واحد من هذه الأرباب فهو رب ذلك الشأن، و إنما نعبد أصنامها و تماثيلها لرضيها بذلك فتشفع لنا عند الله بما لها من القرب عنده.

فأخذت الآيه اعترافهم بأن هذه التدابير لله سبحانه- و كيف لا تكون له و هو خالق الكل و مبيها؟- فله سبحانه وحده حقيقه الربوبيه و هو المستحق للعباده لا غيره.

قوله تعالى: « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » إلى آخر الآيه. تلقين للاحتجاج من جهه المبدأ و المعاد فإن الذى يبدأ كل شىء ثم يعيده يستحق أن يعبد الإنسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه و ينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

ولما كان المشركون- و هم المخاطبون بالحججه- غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ص أن يتصدى جواب سؤاله بنفسه و قال: « قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ » و إلى متى تصرفون عن الحق.

و ليس اعتماد الآيه على مسأله الإيداء و الإعاده فى احتجاجها اعتمادا على مقدمه غير بينه و لا مبينه فقد احتج عليها فى كلامه تعالى من طرق مختلفه كاحتجاج من طريق لزوم الغايه فى فعله، و من طريق وجوب الجزاء على الأعمال فى العدل و غير ذلك و قد نفى سبحانه الريب عن البعث و القيامه فيما يبلغ عشر مواضع من كلامه.

و الحججه- كما تقدم الإيماء إليه- حجه عامه المؤمنين الذين يعبدونه تعالى خوفا من العقاب أو رغبه فى الثواب الذى أعد لهم يوم القيامه.

قوله تعالى: «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ» إلى آخر الآيه، يهدى للحق و إلى الحق بمعنى واحد فالهدايه تتعدى بكلتا الحرفين، و قد ورد تعديتها باللام فى مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله: «أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ:» الم السجده:- ٢٦، و قوله: «يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ:» إسراء:- ٩ إلى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام فى قوله: «يَهْدِي لِلْحَقِّ» للتعليل ليس بشيء.

لقن سبحانه نبيه ص هذه الحججه و هى ثالثه الحجج، و هى حجه عقليه يعتمد عليها الخاصه من المؤمنين، و توضيحها أن من المرتكز فى الفطره الإنسانيه و به يحكم عقله أن من الواجب على الإنسان أن يتبع الحق حتى إنه إن انحرف فى شيء من أعماله عن الحق و اتبع غيره لغلط أو شبهه أو هوى فإنما اتبعه لحسابانه إياه حقا و التباس الأمر عليه، و لذا يعتذر عنه بما يحسبه حقا فالحق واجب الاتباع على الإطلاق و من غير قيد أو شرط.

و الهادى إلى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، و من الواجب ترجيحه على من لا يهدى إليه أو يهدى إلى غيره لأن اتباع الهادى إلى الحق اتباع لنفس الحق الذى معه و وجوب اتباعه ضرورى.

و قد اعتمد فى الحججه على هذه المقدمه الضروريه فافتتح الكلام فيها بسؤالهم عن شركائهم هل فيهم من يهدى إلى الحق؟ و من البين أن لا- جواب للمشركين فى ذلك مثبتا إذ شركاؤهم سواء أ كانوا جمادا غير ذى حياه كالأوثان و الأصنام أم كانوا من الإحياء كالملائكه و أرباب الأنواع و الجن و الطواغيت من فرعون و نمرود و غيرهما لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا.

و إذ لم يكن لهم في ذلك جواب مثبت فإنهم لا يجيبون، و لذلك أمر النبي ص أن يخلفهم في الجواب فيجيب في ذلك-أعنى الهدايه إلى الحق- بإثباتها لله سبحانه فقيل: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ» فإن الله سبحانه هو الذى يهدى كل شىء إلى مقاصده التكوينية و الأمور التى يحتاج إليها فى بقاءه كما فى قوله: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه- ٥٠ و قوله الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى: «الأعلى: ٣» و هو الذى يهدى الإنسان إلى سعادته الحياه و يدعوه إلى الجنه و المغفره بإذنه بإرسال الرسل و إنزال الكتب و تشريع الشرائع، و أمرهم ببث الدعوه الحقه الدينيه بين الناس.

و قد مر فى تفسير قوله تعالى: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» آل عمران:- ٦٠ إن الحق من الاعتقاد و القول و الفعل إنما يكون حقا بمطابقه السنه الجاريه فى الكون للذى هو فعله فالحق بالحقيقه إنما يكون حقا بمشيته و إرادته.

و إذ تحقق أنه ليس من شركائهم من يهدى إلى الحق، و أن الله سبحانه يهدى إلى الحق سألهم بقوله: «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى»؟ أن يقضوا فى الترجيح بين اتباعه تعالى و اتباع شركائهم و هو تعالى يهدى إلى الحق و هم لا يهدون و لا- يهتدون إلا- بغيرهم، و من المعلوم أن الرجحان لمن يهدى على من لا- يهدى أى لاتباعه تعالى على اتباعهم، و المشركون يحكمون بالعكس، و لذلك لامهم و وبخهم بقوله: «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»؟.

و التعبير فى الترجيح فى قوله: «أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ» بأفعل التفضيل الدال على مطلق الرجحان دون التعيين و الانحصار مع أن اتباعه تعالى حق لا غير و اتباعهم لا نصيب له من الحق إنما هو بالنظر إلى مقام الترجيح و ليسهل بذلك قبولهم للقول من غير إثارة لعصبيتهم و تهيج لجهالتهم.

و قد أبدع تعالى فى قوله «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى» و القراءه الدائره: «لا يَهْدَى» بكسر الهاء و تشديد الدال و أصله يهتدى، و ظاهر قوله: «لا يَهْدَى إِلَّا أَنْ يُهْدَى» و قد حذف متعلقات الفعل فيه أنه إنما يهتدى بغيره لا بنفسه.

و الكلام قد قوبل فيه قوله: «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» بقوله: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي» مع أن الهداية إلى الحق يقابلها عدم الهداية إلى الحق، وعدم الاهتداء إلى الحق يقابله الاهتداء إلى الحق فلازم هذه المقابلة الملازمه بين الاهتداء بالغير وعدم الهداية إلى الحق، وكذا الملازمه بين الهداية إلى الحق والاهتداء بالذات فالذى يهدى إلى الحق يجب أن يكون مهتديا بنفسه لا بهدايه غيره و الذى يهتدى بغيره ليس يهدى إلى الحق أبدا.

هذا ما تدل عليه الآيه بحسب ظاهرها الذى لا ريب فيه وهو أعدل شاهد على أن الكلام موضوع فيها على الحقيقه دون التجوزات المبنيه على المساهله التى بنى عليها و نداولها فيما بيننا معاشر أهل العرف فننسب الهداية إلى الحق إلى كل من تكلم بكلمه حق و دعا إليها و إن لم يعتقد بها أو اعتقد و لم يعمل بها أو عمل و لم يتحقق بمعناها، و سواء اهتدى إليها بنفسه أو هداه إليها غيره.

بل الهداية إلى الحق أعنى الإيصال إلى صريح الحق و متن الواقع ليس إلا لله سبحانه أو لمن اهتدى بنفسه أى هداه الله سبحانه من غير واسطه تتخلل بينه و بينه فاهتدى بالله و هدى غيره بأمر الله سبحانه، و قد تقدمت نبذه من الكلام فى هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى: «وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» الآية البقره: -١٢٤.

و قد تبين بما قدمناه فى معنى الآيه أمور:

أحدها: أن المراد بالهداية إلى الحق ما هو بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون ما هو بمعنى إراءه الطريق المنتهى إلى الحق فإن من الضرورى أن وصف طريق الحق يتأنى من كل أحد سواء اهتدى إلى الحق بنفسه أو بغيره أو لم يهتد.

و ثانيها: أن المراد بقوله: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى» من لا يهتدى بنفسه، و هذا أعم من أن يكون ممن يهتدى بغيره أو يكون ممن لا يهتدى أصلا، لا بنفسه و لا بغيره كالأوثان و الأصنام التى هى جماد لا يقبل هدايه من غيره، و ذلك أن قوله:

«إِلَّا أَنْ يُهْدَى» استثناء من قوله: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي» الأعم من أن لا يهتدى أصلا أو يهتدى بغيره و المأخوذ فى قوله: «أَنْ يُهْدَى» فعل دخلت عليه أن المصدريه

المأوله إلى المصدر، والجمله الفعلية المأوله إلى المصدر كذلك لا يدل على التحقق بخلاف المصدر المضاف إلى معموله ففرق بين قوله: «أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ:» البقره:- ١٨٤ فلا- يدل على الوقوع و بين نحو قوله: «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ:» يونس:- ٢٩ فيدل على الوقوع، ويقال: ضربك زيدا عجب إذا ضربته، و أن تضرب زيدا عجب إذا هممت أن تضربه.

فقوله: «أَمْنٌ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى» معناه من لا يكون هداه من نفسه إلا أن تأتيه الهدايه من ناحيه الغير، و من المعلوم أنها إنما تأتيه من الغير إذا كان في طبعه أن يقبل ذلك، و أما إذا لم يقبل فإنما يبقى له من الوصف أنه لا يهتدى فافهم ذلك.

و للمفسرين في معنى هذا الاستثناء أقوال عجيبه:

منها: أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال لأن من نفى عنهم الهدايه ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم و عزيزا و الملائكه (ع)، و هؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهدايه الله و وحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم :

«وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا:» الأنبياء:- ٧٣.

و فيه: أن محصله أن المعنى لا يهدى إلا أن يهديه الله تعالى فيهدى غيره بعد اهتدائه بهدايته تعالى، و قد اختل عليه معنى الآيه من أصله فإن من لا- يهتدى إلى الحق بنفسه لا- يتأتى له أن يهدى إلى الحق فإنه إنما يماس الحق من وراء حجاب فكيف يوصل إليه؟.

على أن ما ذكره لا ينطبق على الأصنام التي هي مورد الاحتجاج في الآيه فإنها لا تقبل الهدايه من أصلها، و قد ذكر المسيح و عزيزا و هما ممن قدسته النصرى و اليهود و ليس وجه الكلام في الآيه إليهم و إن شملتهما و غيرهما الآيه بحسب عموم الملاك.

و منها: أن الاستثناء منقطع و المراد بمن لا يهدى الأصنام التي لا تقبل الهدايه أصلا فحسب، و المعنى: أم من لا يهتدى أصلا كالأصنام إلا أن يهديه الله فيهدى حينئذ.

و فيه: أنه لا يفى بتوجيه المقابلة التي بين قوله: «مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» وقوله: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي» فإن الهداية إلى الحق والاهتداء إليه لا يتقابلان إلا أن يثول المعنى إلى مثل قولنا: أ فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهتدى أصلا إلا أن يهديه الله فيهتدى فيهدى غيره، و يرد عليه أنه لا وجه حينئذ لتخصيصه بمثل الأصنام ممن لا يهتدى أصلا حتى يصير الاستثناء منقطعا بل يعم ما لا يهتدى أصلا لا بنفسه و لا بغيره، و من لا يهتدى بنفسه و يهتدى بغيره كالملائكة مثلا، و يرد عليه ما ورد على الوجه السابق.

□

و منها: أن المراد بمن لا يهدى الأصنام التي لا تقبل الهداية و «إِلَّا» بمعنى حتى و المعنى لا يهتدى و لا يقبل الهداية حتى يهدى. و فيه: أن التردد يرجع حينئذ إلى مثل قولنا: أ فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهتدى أصلا حتى يهدى إلى الحق، و يعود الاستثناء مستدركا لا يتعلق به غرض فى الكلام. مضافا إلى أن مجيء إلا بمعنى حتى غير ثابت و على تقدير ثبوته قليل فى الكلام لا يحمل على مثله أفصح الكلام.

و منها: أن المراد بمن لا- يهدى إلا- أن يهدى الملائكة و الجن ممن يعبدون من دون الله و هم يقبلون الهداية من الله و إن لم يهتدوا من عند أنفسهم أو المراد الرؤساء المضلون الذين يدعون إلى الكفر فإنهم و إن لم يهتدوا لكنهم يقبلون الهداية و لو هدوا إلى الحق لهدوا إليه.

و فيه: أن الآيات واقعه فى سياق الاحتجاج على عبده الأصنام، و القول بأن المراد بمن لا يهدى إلا أن يهدى الملائكة و الجن أو الرؤساء المضلون يخرجها عن صلاحية الانطباق على المورد.

و ثالثها: أن الهداية إلى الحق بمعنى الإيصال إليه إنما هى شأن من يهتدى بنفسه أى لا- واسطه بينه و بين الله سبحانه فى أمر الهداية إما من بادئ أمره أو بعنايه خاصه من الله سبحانه كالأنبياء و الأوصياء من الأئمة، و أما الهداية بمعنى إراءه

الطريق و وصف السبيل فلا- يختص به تعالى و لا- بالأئمه من الأنبياء و الأوصياء كما يحكيه الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إذ يقول: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» المؤمن:- ٣٨ و قال: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» الإنسان:- ٣.

و أما قوله تعالى خطابا للنبي ص و هو إمام: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» القصص:- ٥٦ و غيره من الآيات فهي مسوقه لبيان الأصالة و التبعية كما في آيات التوفى و علم الغيب و نحو ذلك مما سيقت لبيان أن الله سبحانه هو المالك لها بالذات و الحقيقة، و غيره يملكها بتمليك الله ملكا تبعا أو عرضيا، و يكون سببا لها بإذن الله، قال تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» الأنبياء:- ٧٣ و فى الأحاديث إشارة إلى ذلك و أن الهدايه إلى الحق شأن النبى و أهل بيته (ص) و قد مر بعض الكلام فى الهدايه فيما تقدم.

و قوله فى ذيل الآية: «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» استفهام للتعجب استغرابا لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدى و لا يهتدى إلى الحق.

قوله تعالى: «وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» أغنى يغنى يتعدى بمن و عن كليهما و قد جاء فى الكلام الإلهى بكل من الوجهين فعدى بمن كما فى الآية، و بعن كما فى قوله: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ» الحاقة:- ٢٩.

و إنما نسب اتباع الظن إلى أكثرهم لأن الأقل منهم و هم أئمة الضلالة على يقين من الحق، و لم يؤثروا عليه الباطل و يدعوا إليه إلا بغيا كما قال تعالى: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ» البقرة:- ٢١٣.

و أما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليدا لهم لحسن ظنهم بهم.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» تعليل لقوله: «وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا» و المعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِلُ بِلِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ
 لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
 وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ
 مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَ لَوْ كَانُوا لَا
 يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَمَا أَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ
 يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ لَمَّا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

رجوع إلى أمر القرآن و أنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه و تلقين الحجه فى ذلك، و للآيات اتصال بما تقدمها من قوله: «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ» الآية، فقد تقدم أن من هدايته تعالى إلى الحق هدايته الناس إلى دينه الذى يرتضيه من طريق الوحى إلى أنبيائه و الكتب التى أنزلها إليهم ككتب نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد(ع)، و هذه الآيات تذكرها و تقيم الحجه على أن القرآن منها هاد إلى الحق، و لذلك أشير إليها معه حيث قيل:

« وَ لَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ».

و فى آخر الآيات الرجوع إلى ذكر الحشر و هو من مقاصد السوره كما تقدم.

قوله تعالى: « وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ » إلى آخر الآية، قد تقدمت الإشارة إلى أن نفى صفة أو معنى بنفى الكون يفيد نفى الشأن و الاستعداد، و هو أبلغ من نفيه نفسه ففرق بين قولنا ما كان زيد ليقوم، و قولنا: لم يقم أو ما قام زيد إذ الأول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد و لا استعداد له استعدادا، و الثانى ينفى القيام عنه فحسب، و فى القرآن منه شىء كثير كقوله:

«فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ:» يونس:- ٧٤ و قوله: «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ» الشورى:- ٥٣: «و قوله وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ». العنكبوت:- ٤٠ فقوله: « وَ مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ » نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل و هو أبلغ من نفى فعليته، و المعنى ليس من شأن هذا القرآن و لا- فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتره على الله سبحانه.

و قوله: « وَ لَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب و هو التوراه و الإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: «يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ:» الصف:- ٦، و إنما وصفهما بما بين

يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح و كتاب إبراهيم(ع) فإذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الأقرب منها زمانا إليه و هو التوراه و الإنجيل موصوفا بأنه بين يديه.

و ربما قيل: إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الأمور كالبعث و النشور و الحساب و الجزاء، و ليس بشيء.

و قوله: « وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ » عطف على « تَصْدِيقَ » و المراد بالكتاب بدلاله من السياق جنس الكتاب السماوى النازل من عند الله سبحانه على أنبيائه و التفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجه بعضها فى بعض المنطويه جانب منها فى آخر بالإيضاح و الشرح.

و فيه دلالة على أن الدين الإلهى المنزل على أنبيائه(ع) واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال و التفصيل، و القرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» آل عمران:- ١٩.

و إن القرآن الكريم مفصل لما أجمله الكتب السماويه السابقه مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: «وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ» المائده:- ٤٨ و قوله: «لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى لا- ريب فيه هو من رب العالمين، و الجملة الثانيه كالتعليل للأولى.

قوله تعالى: « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » إلى آخر الآيه، أم منقطعه و المعنى بل يقولون افتراه، و الضمير للقرآن، و اتصاف السوره بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل.

و المعنى قل للذين يقولون افتراه: إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فإنه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا و جاز أن يؤتى بمثله و فى ذلك تحد ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طويله كانت أو قصيره.

و من هنا يظهر أولا: أن التحدى ليس بسوره معينه فإنهم لم يرموا بالافتراء

بعض القرآن دون بعض بل جميعه، و هو يكلفهم أن يأتوا بسوره مثل ما يدعون أنه افتراه، و إنما ادعوه لجميع القرآن دون بعضه.

و لا- يصغى إلى قول من يقول: إن التنكير في «بِسُورِهِ» للتعظيم أو للتنوع و المراد سوره من السور يذكر فيها قصص الأنبياء و أخبار و عيد الدنيا و الآخره لأن الافتراء إنما يتهم به الإخبار دون الإنشاء. أو يقول: المراد سوره طويله مثل هذه السوره سوره يونس- في اشتمالها على أصول الدين و الوعد و الوعيد.

و ذلك أن القرآن بجميع آياته منسوب إلى الله سبحانه، و لا يختلف في ذلك ما يتضمن الإخبار و ما يتضمن الإنشاء، و ما كانت سوره طويله أو قصيره حتى الآيه الواحده، و الرمي بالافتراء يصح أن يتعلق بالجميع لأنه تكذيب للنسبه المتعلقه بالجميع.

و ثانيا: أن الآيه لا تتحدى ببلاغه القرآن و فصاحته فحسب بل السياق في هذه الآيه و في سائر الآيات التي وردت مورد التحدى يشهد على أن التحدى إنما هو بما عليه القرآن من صفه الكمال و نعت الفضيله من اشتماله على مخ المعارف الإلهيه، و جوامع الشرائع من الأحكام العباديه و القوانين المدنيه السياسيه و الاقتصاديه و القضائيه، و الأخلاق الكريمه و الآداب الحسنه، و قصص الأنبياء و الأمم الماضيه، و الملاحم و الأخبار الغيبيه، و وصف الملائكه و الجن و السماء و الأرض و الحكمه و الموعظه و الوعد و الوعيد، و أخبار البدء و العود، و قوه الحجج و جذاله البيان و النور و الهدايه من غير أن يختلف جزء منه عن جزء، أضف إلى ذلك وقوعه في بلاغته و فصاحته موقعا يقصر عن البلوغ إليه أيدي البشر.

و لقد قصر الباحثون من علماء الصدر الأول و من يتلونهم إذ قصروا إعجازه على بلاغته و فصاحته و كتبوا في ذلك كتبا و ألفوا رسائل فصرفهم ذلك عن التدبر في حقائقه و التعمق في معارفه و أنهاهم إلى أن عدوا المعاني أمورا مطروحه في الطريق يستوى فيه البدوى و الحضرى و العامى و الخاصى و الجاهل و العالم، و أن الفضل لنظم اللفظ على نظم المعنى و لا قيمه لما وراء ذلك.

وقد وصفه الله تعالى بكل وصف جميل دخيل في التحدى كوصفه بأنه نور و رحمه و هدى و حكمه و موعظه و برهان و تبيان لكل شىء و تفصيل الكتاب و شفاء للمؤمنين و قول فصل و ما هو بالهزل، و أنه مواقع للنجوم، و أنه لا اختلاف فيه و لم يصرح ببلاغته بعينها.

و أطلق القول بأنهم لا- يأتون بمثله و لو دعوا من استطاعوا من دون الله، و لو اجتمع على ذلك الجن و الإنس و كان بعضهم لبعض ظهيرا و لم يقيد الكلام بالبلاغه و الفصاحه.

و قد فصلنا القول فى إعجاز القرآن فى تفسير قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ» البقره: ٢٣ فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» إلى آخر الآيه.

الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه فيه معارف حقيقه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم، و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذبوا به حتى يضطروهم إلى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» يشير إلى يوم القيامة كما يؤيده قوله تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» الأعراف-٥٣.

و هذا يؤيد ما قدمناه فى تفسير قوله: «ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» آل عمران-٧ فى الجزء الثالث من الكتاب أن المراد بالتأويل فى عرف القرآن هو الحقيقه التى يعتمد عليها معنى من المعانى من حكم أو معرفه أو قصه أو غير ذلك من الحقائق الواقعيه من غير أن يكون من قبيل المعنى، و أن لجميع القرآن و ما يتضمنه من معرفه أو حكم أو خبر أو غير ذلك تأويلا.

و يؤيد ذلك أيضا قوله بعد: «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» فإن التشبيه

يعطى أن المراد أن الذين من قبلهم من المشركين أيضا كذبوا بما دعاهم إليه أنبياءهم لكونهم لم يحيطوا بعلمه و لما يأتيهم تأويله، فلما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدعوة الدينيه من معارف و أحكام تأويل كما أن لمعارف القرآن و أحكامه تأويلا من غير أن يكون من قبيل المفاهيم و معانى الألفاظ كما توهموه.

فمحصل المعنى أن هؤلاء المشركين الرامين للقرآن بأنه افتراء مثل المشركين و الكفار من الأمم السابقه استقبلتهم من الدعوة الدينيه بمعارفها و أحكامها أمور لم يحيطوا بها علما حتى يوقنوا بها و يصدقوا، فحملهم الجهل على التكذيب بها و لما يأتيهم اليوم الذى يظهر لهم فيه تأويلها و حقيقه أمرها ظهورا يضطرهم على الإيقان و التصديق بها و هو يوم القيامه الذى يكشف لهم فيه الغطاء عن وجه الحقائق بواقعيتها فهؤلاء كذبوا و ظلموا كما كذب الذين من قبلهم و ظلموا فانظر كيف كان عاقبه أولئك الظالمين حتى تحس بما سيصيب هؤلاء.

هذا ما يعطيه دقيق البحث فى معنى الآيه، و للمفسرين فيها أقوال شتى مختلفه مبنيه على ما ذهبوا إليه من معنى التأويل لا جدوى فى التعرض لها و قد استقصينا أقوالهم سابقا.

قوله تعالى: « وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ » قسمهم قسمين من يؤمن بالقرآن و من لا يؤمن به ثم كنى عن لا- يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك أن الذين يكذبون بما فى القرآن إنما كذبوا به لأنهم مفسدون.

فالآيه لبيان حالهم الذى هم عليه من إيمان البعض و كفر البعض و أن الكفر ناش من رذيله الإفساد.

و أما ما ذكره بعضهم فى تفسير الآيه: أن المراد أن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم إلا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستتصال بل سيكون قومك قسمين قسم سيؤمن بهذا القرآن و قسم لا يؤمن به أبدا فهو معنى خارج عن مدلول الآيه البته.

قوله تعالى: «وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ» إلى آخر الآيه، تلقين للتبري على تقدير تكذيبهم له، وهو من مراتب الانتصار للحق ممن انتهض لإحيائه فالطريق هو حمل الناس عليه إن حملوا وإلا فالتبري منهم لئلا يحملوه على باطلهم.

وقوله: «أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» تفسير لقوله: «لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ».

قوله تعالى: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ» الاستفهام للإنكار، وقوله: «وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ» قرينه على أن المراد بنفي السمع نفى ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب.

و المعنى: و منهم الذين يستمعون إليك و هم صم لا سمع لقلوبهم، و لست أنت قادرا على إسماعهم و لا سمع لهم.

قوله تعالى: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يُنظِرُ لِنَفْسِكَ» إلى آخر الآيه. الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ» مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلى به هؤلاء المحرومون من السمع و البصر من جهة الصمم و العمى من آثار ظلمهم أنفسهم من غير أن يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فإنهم إنما أوتوا ما أوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ» «إلخ» ظاهر الآيه أن يكون «يَوْمَ» ظرفا متعلقا بقوله: «فَدَّ خَسِرَ» إلخ، وقوله:

« كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً » إلخ، حالا من ضمير الجمع في « يَحْشُرُهُمْ » و قوله: « يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ » حالا ثانيا مبينا للحال الأول.

و المعنى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله في يوم يحشرهم إليه حال كونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير أن

ينكر بعضهم بعضا أو ينسأه.

وقد ذكر بعضهم أن قوله: «كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا» صفة ليوم أو صفة للمصدر المحذوف المدلول عليه بقوله: «يَحْشُرُهُمْ»، و ذكر بعض آخر أن قوله: «يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ» صفة لساعه، وهما من الاحتمالات البعيده التي لا يساعد عليها اللفظ.

و كيف كان ففي الآيه رجوع إلى حديث اللقاء المذكور في أول السوره و انعطاف على ما ذكره آنفا أن من المتوقع أن يأتيهم تأويل الدين.

فكأنها تقول: إنهم و إن لم يأتهم تأويل القرآن بعد لا ينبغي لهم أن يغتروا بالجمود على مظاهر هذه الحياه الدنيا و يستكثروا الأمد و يستبطنوا الأجل فإنهم سوف يحشرون إلى الله فيشاهدون أن ليست الحياه الدنيا إلا متاعا قليلا، و لا اللبث فيها إلا لبثا يسيرا كأن لم يلبثوا إلا ساعه من النهار يتعارفون بينهم.

فيومئذ يظهر لهم خسرانهم في تكذيبهم بلقاء الله ظهور عيان و ذلك بإتيان تأويل الدين و انكشاف حقيقه الأمر و ظهور نور التوحيد على ما كان، و وضوح أن الملك يومئذ الله الواحد القهار جل شأنه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

اشاره

وَإِذْ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِذَا مَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَمْ تُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَ يَسْتَبْشِرُونَكَ أَمْ حَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسِيرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

الآيات تنبئ عن سنه إلهيه جاريه، و هي أن الله سبحانه قضى قضاء حق لا يرد ولا يبدل أن يرسل إلى كل أمه رسولا يبلغهم رسالته ثم يحكم بينه وبينهم حكما فصلا بإنزال العذاب عليهم وإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين.

ثم تأمر النبي ص أن يخبرهم أن هذه الأمة يجرى فيهم ما جرى في الأمم الماضية من السنه الإلهيه من غير أن يستثنوا من كليتها غير أنه (ص) لم يذكر لهم فيما لقنه الله من جواب سؤالهم عن وقت العذاب إلا أن القضاء حتم وللأمة عمرا وأجلا كالفرد ينتهي إليه أمد حياتها، وأما وقت النزول فقد أبهم إبهاما.

وقد قدمنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: الأنفال: -٣٣ أن الآيه لا تخلو عن إشعار بأن الأمة ستنتزع منهم نعمه الاستغفار بعد زمن النبي ص فينزل عليهم العذاب، وقد تقدم أن

الشواهد قائمه على كون الآيه مدنيه فهي بعد هذه الآيات المكيه من قبيل الإيضاح فى الجمله بعد الإبهام و من ملاحم القرآن.

و قد حمل بعض المفسرين ما وقع من حديث العذاب فى هذه الآيات على عذاب الآخره، و سياق الآيات يأبى ذلك.

قوله تعالى: «وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ» إما نرينك أصله: إن نرك، زيد عليه ما و النون الثقيله للتأكيد، و الترديد بين الإراده و التوفى للتسويه و استيعاب التقادير، و المعنى إنا مرجعهم على أى تقدير، و لفظه ثم للتراخى بحسب ترتيب الكلام دون الزمان و الآيه مسوقه لتطبيب نفس النبى ص و لتكون كالتوطئه لحديث قضاء العذاب الذى ستفصله الآيات التاليه لهذه الآيه.

و المعنى طب نفسا إنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك أو توفيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم إنا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجه للعذاب لا تغيب عنا و لا نساها.

و الالتفات من قوله: «نُرِيَنَّكَ إِلَى قَوْلِهِ: «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ» للدلاله على عله الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» قضاء إلهى منحل إلى قضاءين أحدهما: أن لكل أمه من الأمم رسولا يحمل رساله الله إليهم و يبلغها إياهم، و ثانيهما: أنه إذا جاءهم و بلغهم رسالته فاختلفوا من مصدق له و مكذب فإن الله يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم.

هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ» فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير: فإذا جاء رسولهم إليهم و بلغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق، و يدل على ذلك قوله: «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه، و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب

و قد تقدم الفرق بين الرسول و النبي في مباحث النبوه في الجزء الثاني من الكتاب، و هذا القضاء المذكور في الآيه من خواص الرساله دون النبوه.

قوله تعالى: «و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود، و هو القضاء بينهم في الدنيا، و السائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي ص، و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» إلخ، فقول بعضهم: إن السؤال عن عذاب يوم القيامة أو إن السائلين بعض المشركين من الأمم السابقة لا يلتفت إليه.

قوله تعالى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» إلى آخر الآيه، لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في معنى قولنا: أى وقت يفى ربك بما وعدك أو يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرنا؟ فهلا- عجل لكم ذلك و ذلك- أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التاليه و هذا نظير قولهم: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ» الحجر: ٧.

لقن سبحانه النبي ص أن يبدأهم فى الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرا حتى يدفعه عنها و لا نفعا حتى يجلبه إليها و يستعجل ذلك إلا ما شاء الله أن يملكه من ضر و نفع فالأمر إلى الله سبحانه جميعا، و اقتراحهم عليه بأن يعجل لهم القضاء و العذاب من الجهل.

ثم يجيب عن سؤالهم عن أصل تعيين الوقت جوابا إجماليا بالإعراض عن تعيين الوقت و الإقبال على ذكر ضروره الوقوع، أما الأول فإنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، و أمره الذى لا يتسلط عليه إلا هو، و قد تقدم قوله فى آيات السوره :

«و يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّْمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَضِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ» الآية- ٢٠ من السوره.

و أما الثانى أعنى ذكر ضروره الوقوع فقد بين ذلك بالإشاره إلى حقيقه هى من النواميس العامه الجاريه فى الكون تنحل بها العقده و تندفع بها الشبهه، و هى أن لكل أمه أجلا لا يتخطاهم و لا يتخطونه فهو آتيهم لا محاله، و إذا أتاهم لم يخبط فى وقوعه موقعه و لا- ساعه، و هو قوله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ» أى و أنتم أمه من الأمم فلا محاله لكم أيضا أجل كمثلهم إذا جاءكم لا تستأخرون ساعه و لا تستقدمون.

فإذا فقهوا هذا الكلام و تدبروه بأن لهم أن لكل أمه حياه اجتماعيه و راء الحياه الفرديه التى لكل واحد من أفرادها و لحياتها من البقاء و العمر ما قضى به الله سبحانه لها و لها، من السعاده و الشقاوه و التكليف و الرشد و الغى و الثواب و العقاب نصيبها، و هى مما اعتنى بها التدبير الإلهى نظير الفرد من الإنسان حذو النعل بالنعل.

و يدلهم على ذلك ما يحدثهم به التاريخ و يفصح عنه الآثار من ديارهم الخربه و مساكنهم الخاليه، و قد قص عليهم القرآن أخبار بعضهم كقوم نوح، و عاد قوم هود، و ثمود قوم صالح، و كلده قوم إبراهيم و أهل سدوم و سائر المؤتفكات قوم لوط و القبط قوم فرعون و غيرهم.

فهؤلاء أمم منقرضه سكنت أجراسهم و خمدت أنفاسهم و لم ينقرضوا إلا- بعذاب و هلاك، و لم يعذبوا إلا بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات و لم يأت قوما منهم رسوله إلا- و اختلفوا فى الحق الذى جاءهم فمنهم من آمن به و منهم من كذب به و هم الأكثرون.

فهذا يدلهم على أن هذه الأمم- و قد اختلفوا فى الحق لما جاءهم- سيقضى الله بين رسوله و بينهم فإخذهم بما أخذ به من خلت من قبلهم من الأمم و إن الله لبالمرصاد.

و على الباحث المتدبر أن يتنبه لأن الله سبحانه و إن بدأ فى وعيده بالمشركين غير أنه هدد فى أثناء كلامه المجرمين فتعلق الوعيد بهم، و من أهل القبله مجرمون كغيرهم فلينتظروا عذابا و اصبا يفصل به الله بينهم و بين نبيه ص، و لينسوا ما يلقيه الشيطان فى روعهم أن أمتهم هذه أمه مرحومه رفع الله عنهم عذاب الدنيا

إكراما منه لنبیهم فی الرحمه فهم فی أمن من عذاب الله و إن انهمكوا فی كل إثم و خطیئه و هتكوا كل حجاب مع أنه لا كرامه عند الله إلا- بالتقوى و قد خاطب المؤمنین من هذه الأمه بمثل قوله: «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَ لَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ:» النساء:- ۱۲۳.

و ربما تعدى المتعدى فعطف عذاب الآخره على عذاب الدنيا فذكر أن الأمه مغفور لهم محسنهم و مسيئهم فلا يبقى لهم فى الدنيا إلا كرامه أن لهم أن يفعلوا ما شاءوا فقد أسدل الله عليهم حجاب الأمن و لا فى الآخره إلا المغفره و الجنه. و لا- يبقى على هذا للمله و الشريعه إلا- أنها تكاليف و أحكام جزافيه لعب بها رب العالمين و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

فهذا كله من الإعراض عن ذكر الله و هجر كتابه، وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» إلى آخر الآيتين، البيات و التبييت الإتيان ليلا و يغلب فى الشر كقصد العدو عدوه ليلا.

و لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى معنى استعجال آيه العذاب التى يلجئهم إلى الإيمان رجح بعد بيان تحقق الوقوع إلى توبيخهم و ذمهم من الجهتين فوبخهم أولا- على استعجالهم بالعذاب، و هو عذاب فجائى من الحزم أن يكون الإنسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقنا لنبیه(ص):

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ» و أخبرونى «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا» ليلا «أَوْ نَهَارًا» فإنه عذاب لا يأتىكم إلا بغته إذ لستم تعلمون وقت نزوله «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ» من العذاب «الْمُجْرِمُونَ» أى ما ذا تستعجلون منه و أنتم مجرمون لا يتخطاكم إذا أتاكم.

ففى قوله: «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» التفات من الخطاب إلى الغيبه و كان النكته فيه رعايه حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر و ليكون تعرضا لملاك نزول العذاب عليهم و هو إجرامهم.

و وبخهم ثانيا على تأخير إيمانهم إلى حين لا ينفعهم الإيمان فيه و هو حين نزول العذاب فإن آيه العذاب يلجئهم إلى الإيمان قطعاً على ما هو المجرب من إيمان الإنسان عند إشراف الهلكه، و من جهة أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى: «أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ الْعَذَابُ أَمْتُمْ بِهِ» أى بالقرآن أو بالدين أو بالله «آلآنَ» أى أ تؤمنون به فى هذا الآن و الوقت «وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» الأشبه أن تكون الآيه متصله بقوله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ، فتكون الآيه الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم و إهلاكه إياهم، و الآيه الثانيه تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك: ذوقوا عذاب الخلد و هو عذاب الآخره و لا تجزون إلا أعمالكم التى كنتم تكسبونها و ذنوبكم التى تحملونها و الخطاب تكوينى كنى به عن شمول العذاب لهم و نيله إياهم، و على هذا المعنى فالآيتان: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ -X إلى قوله -X تَسْتَعْجِلُونَ» و اردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى: «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» إلى آخر الآيه - يستنبئونك - أى يستخبرونك و قوله: «أَحَقُّ هُوَ» بيان له، و الضمير على ما يفيد السيق راجع إلى القضاء أو العذاب، و المآل واحد، و قد أمر سبحانه نبيه ص أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته، و بعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» إثبات لتحققه و قد أكد الكلام بالقسم و الجملة الاسميه و إن و اللام، و قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ» إلى آخر الآيه، إشاره إلى شدة العذاب و أهميه التخلص منه عندهم، و إسرار الندامه إخفاؤها

و كتمانها خشية الشماته و نحوها، و الظاهر أن المراد بالقضاء و العذاب فى الآيه هو القضاء و العذاب الدنيويان لا غير.

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» الآيه و ما بعدها بيان برهانى على حقيه ما ذكره من كونه حقا واقعا لا يمنع عنه مانع فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض إذا كان مملوكا لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها إليه تعالى، و لم يكن لغيره شىء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف فى شىء كان مستندا إلى إرادته فقط من غير أن يستند إلى مقتض آخر خارج يتصرف فى ذاته المقدسه فيحمله على الفعل، أو يتقيد بعدم مانع خارجى إذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط إلى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئا فعله من غير ممد أو عائق، و إذا وعد وعدا كان حقا لا مرد له من غير أن يتغير عن وعده بصارف.

فإمعان النظر فى ملكه تعالى المطلق الحقيقى يهدى إلى العلم بأن وعده حق لا يمازجه باطل و لكن أكثرهم و هم العامه من الناس لا يعلمون لعجزهم عن الإمعان فى هذه الأبحاث الحقيقيه أو إعجابهم بسداجه الفهم و انسلاكهم فى سلك العامه.

فهم على ذلك يقيسون ملكه تعالى إلى ملك العظماء المستعلين من الإنسان فإنهم يجدون الواحد من عظمائهم و قد أوتى ملكا و سلطانا و من كل ما يتنافس فيه فيرون له القدره المطلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ثم يجدونه ربما يهيم و يسعى و لا يقع ما اهتم به أو وعد وعدا ثم لم يف به رعايه لمصلحه شخصه أو غيره أو لمانع عائق فيقيسون أمره تعالى إلى أمره، و وعده إلى وعده. على أن الوعد عندهم قول من شأنه جواز أن ينطبق على الخارج و أن لا ينطبق.

مع أن حقيقه معنى ملكه و سلطانه و سعه قدرته و نفوذ إرادته أن الناس يعتقدون له ذلك و يتصورونه عظيما فيهم و لو طحنته نازلات الدهر يوما فأهلكته

أو تغيرت عليه عقائد الناس بسبب من الأسباب سلبتة ما عنده من ملك و قدره، و معنى وقوع ما أرادته أو أحبه أن الأسباب الكونية ساعدته على ذلك و وافقته على ما أحبه، و لو لم تساعده و لم توافقه كليه الأسباب لم يكن له أن يضطرها إلى الخضوع لما يتوهم لنفسه من القدره كما لا توافقه على مثل الموت و الحياه و الشباب و الشيب و الصحه و المرض و أمور أخرى كثيره فليس له من الأمر شيء.

لكنه سبحانه مالك لخلقه بمعنى أن وجود كل شيء قائم به متكون متحول بأمره منوط بإذنه، و ما تصرف فيه من شيء فإنما يتصرف عن نفسه لا- عن اقتضاء من مقتض خارج مؤثر فيه أو عدم مانع يعوقه عن فعله فلا ينتسب شيء إلا إليه تعالى نفسه أو إلى غيره بإذنه بمقدار ما أذن فكيف يمكن أن يتخلف عن مشيئه شيء فيرجع إلى غيره و لا غير هناك يرجع نحوه و ينتسب إليه؟.

و قوله تعالى فعله بما يدل بنفسه على مراده فكيف يتسرب إليه الكذب و هو متن الخارج، و العين الخارجى لا كذب فيه؟ و إنما الكذب و الخطأ شأن المفاهيم الذهنيه من حيث انطباقها على الخارج، و كيف يكون وعده باطلا و وعده لنا هو فعله الغائب عن نظرنا المستقبل لنا، و قد وجه كليه الأسباب إليه و لا مرد له؟.

فإمعان النظر فى هذه الحقائق ينور للباحث المتدبر معنى ملكه تعالى لما فى السماوات و الأرض، و أن لازم ذلك أن وعد الله حق، و أن الارتباب فيه إنما هو من الجهل بمقامه تعالى.

و لذلك قال تعالى أولا: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ثم عقبه بقوله كالاستنتاج منه: «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» ثم استدرك فقال: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ثم بين ملكه بقوله: «هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ» إلخ فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: «هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» احتجاج على ما تقدم فى الآيه السابقه من ملكه تعالى بالنسبه إلى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول: إن أمركم جميعا من حياه و موت و رجوع إليه تعالى فكيف لا تكونون ملكا له.

فى تفسير القمى، و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا» يعنى ليلا، «أَوْ نَهَارًا مَا ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» فهذا عذاب ينزل فى آخر الزمان على فسقه أهل القبله-و هم يجحدون نزول العذاب عليهم.

أقول: و الروايه تتأيد بالآيات و تؤيد ما أسلفناه من البيان.

و فيه، بإسناده عن الحسن بن موسى الخشاب، عن رجل، عن حماد بن عيسى عن عمه، عن أبى عبد الله (ع) قال: سئل عن قوله تبارك و تعالى: «وَ أَسِرُّوا النَّدَامَةَ-لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ» قال: قيل له ما ينفعهم أسرار الندامه و هم فى العذاب؟ قال: كرهوا شماته الأعداء.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبَدَلِكُمْ فَلْيَنْزِحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَ ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَثُرُوا أَصْحَابُ السُّورَةِ (٦٠) وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَغْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَضْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَ لَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْعَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَوْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

عاد الكلام فى الآيات إلى وصف القرآن الكرىم بما له من كرائم الأوصاف و يتلوه متفرقات ترتبط بسابق القول فى غرض السوره، و فيها موعظه و حكمه و حجه على مقاصد شتى، و فيها وصف أولياء الله و بشارتهم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» إلى آخر الآيه.

قال الراغب فى المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له، القلب و العظه و الموعظه الاسم، انتهى. و الصدر معروف و الناس لما وجدوا القلب فى الصدر و هم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه و به يعقل الأمور و يحب و يبغض و يريد و يكره و يشتاق و يرجو و يتمنى، عدوا الصدر خزانه لما فى القلب من أسراره و الصفات الروحيه التى فى باطن الإنسان من فضائل و رذائل، و فى الفضائل صحه القلب و استقامته، و فى الرذائل سقمه و مرضه، و الرذيله داء يقال: شفيت صدرى بكذا إذا ذهب به ما فى صدره من ضيق و حرج، و يقال: شفيت قلبى، فشفاء الصدر و شفاء ما فى الصدر كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحيه الخبيثه التى تجلب إلى الإنسان الشقاء و تنغص عيشته السعيده و تحرمه خير الدنيا و الآخره.

و الهدى هى الدلاله على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب، و قد تقدم فى ذيل قوله تعالى: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ»: الأنعام: ١٢٥ فى الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

و الرحمه تأثر خاص فى القلب عن مشاهده ضر أو نقص فى الغير يبعث الراحم إلى جبر كسره و إتمام نقصه، و إذا نسبت إليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثير لتنزهه تعالى عن ذلك فىنطبق على مطلق عطيته تعالى و إفاضته الوجود على خلقه.

و عطيته إذا نسبت إلى مطلق خلقه كانت هى ما ينسب إليه تعالى من وجودهم و بقائهم و رزقهم الذى يمد به بقاؤهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه التى لا تحصى كثره و إن تعبدوا نعمت الله لا تحصوها، و إذا نسبت إلى المؤمنين خاصة كانت هى ما يختص بهم من سعادته الحياه الإنسانيه بمظاهرها المختلفه التى ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقه الإلهيه و الأخلاق الكريمه و الأعمال الصالحه، و الحياه الطيبه فى الدنيا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم إذا وصف القرآن بأنه رحمه للمؤمنين كان معناه أنه يغشى المؤمنين

أنواع الخيرات و البركات التي كثرها الله فيه لمن تحقق بحقائقها و تلبس بمعانيها، قال تعالى: «و نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»: إسرائ: ٨٢.

و إذا أخذت هذه النعوت الأربعة التي عدها الله سبحانه للقرآن في هذه الآيه أعنى أنه موعظه و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمه، و قيس بعضها إلى بعض ثم اعتبرت مع القرآن كانت الآيه بيانا جامعاً لعامه أثره الطيب الجميل و علمه الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أول ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكن من نفوسهم و يستقر في قلوبهم.

فإنه يدركهم أول ما يدركهم و قد غشيهم يم الغفله و أحاطت بهم لجه الحيره فأظلمت باطنهم بظلمات الشك و الريب، و أمرضت قلوبهم بأدواء الرذائل و كل صفة أو حاله رديه خبيثه فيعظهم موعظه حسنه ينبههم بها عن رقد الغفله، و يزجرهم عما بهم من سوء السريره و الأعمال السيئه، و يبعثهم نحو الخير و السعاده.

ثم يأخذ في تطهير سرهم عن خبائث الصفات، و لا يزال يزيل آفات العقول و أمراض القلوب واحدا بعد آخر حتى يأتي على آخرها.

ثم يدلهم على المعارف الحقه و الأخلاق الكريمة و الأعمال الصالحه دلالة بلطف برفعهم درجه بعد درجه، و تقريبتهم منزله فمنزله حتى يستقروا في مستقر المقربين، و يفوزوا فوز المخلصين.

ثم يلبسهم لباس الرحمه و ينزلهم دار الكرامه و يقرهم على أريكه السعاده حتى يلحقهم بالنيبين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، و يدخلهم في زمرة عباده المقربين في أعلى عليين.

فالقرآن واعظ شاف لما في الصدور هاد إلى مستقيم الصراط مفيض للرحمه بإذن الله سبحانه، و إنما يعظ بما فيه و يشفي الصدور و يهدي و يبسط الرحمه بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصول بين الله و بين خلقه فهو موعظه و شفاء لما في

الصدور و هدى و رحمه للمؤمنين. فافهم ذلك.

و قد افتتح سبحانه الآيه بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» و هو خطاب لعامة الناس دون المشركين أو مشركى مكه خاصه و إن كانت الآيه واقعته فى سياق الكلام معهم و ذلك لأن النعوت المذكوره فيها بقوله: «قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» تتعلق بعامتهم دون قبيل خاص منهم.

و من غريب التفسير قول بعضهم: إن المراد بالرحمه ما يتصف به المؤمنون من الرحمه و الرأفه فيما بينهم و هو خطأ يدفعه السياق البته.

قوله تعالى: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» الفضل هو الزياده، و تسمى العطيهِ فضلا لأن المعطى إنما يعطى غالبا ما لا يحتاج إليه من المال ففى تسميه ما يفيضه الله على عباده فضلا إشاره إلى غناه تعالى و عدم حاجته فى إفاضته إلى ما يفيضه و لا إلى من يفيض عليه.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامه خلقه، و بالرحمه خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمه السعاده الدينيه إذا انضمت إلى النعمه العامه من حياه و رزق و سائر البركات العامه كان المجموع منهما أحق بالفرح و السرور و أخرى بالانبساط و الابتهاج.

و من الممكن أن يتأيد ذلك بقوله: «بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» حيث أدخلت باء السببيه على كل من الفضل و الرحمه، و هو مشعر بكون كل واحد منهما سببا مستقلا و إن جمع بينهما ثانيا بقوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» للدلاله على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

و يمكن أن يكون المراد بالفضل غير الرحمه من الأمور المذكوره فى الآيه السابقه أعنى الموعظه و شفاء ما فى الصدر و الهدى، و المراد بالرحمه الرحمه بمعناها المذكور فى الآيه السابقه و هى العطيهِ الخاصه الإلهيه التى هى سعاده الحياه فى الدنيا و الآخره.

و المعنى على هذا أن ما تفضل الله به عليهم من الموعظه و شفاء ما فى الصدر

و الهدى، و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيبه ذلك أحق أن يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ»[□] النور: ٢١- حيث نسب زكاتهم إلى الفضل و الرحمه معا و استناد الزكاه إلى الفضل بمعنى العطيهِ العامه بعيد عن الفهم، و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد في الروايه من تفسير الآيه بالنبي ص و على (ع) أو بالقرآن و الاختصاص به و سيجيء إن شاء الله.

و قوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» ذكروا أن الفاء في قوله: «فَلْيَفْرَحُوا» زائده كقول الشاعر: «فإذا قتلت فعند ذلك فاجزعي.» و الظرف أعنى قوله: «فَبِذَلِكَ» بدل من قوله: «بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»، و متعلق بقوله: «فَلْيَفْرَحُوا» قدم عليه لإفاده الحصر، و قوله: «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله أن الآيه تفرع على مضمون الآيه السابقه فإنه تعالى لما خاطب الناس امتنانا عليهم بأن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما في صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرع عليه أنه ينبغي لهم حينئذ أن يفرحوا بهذا الذي امتن به عليهم من الفضل و الرحمه لا بالمال الذي يجمعونه فإن ذلك- و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم- خير من المال الذي ليس إلا فتنه ربما أهلكتهم و أشقتهم.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا» إلى آخر الآيه. نسبه الرزق و هو ما يمد الإنسان في بقائه من الأمور الأرضيه من مأكول و مشروب و ملبوس و غيرها إلى الإنزال مبنى على حقيقه يفيدها القرآن و هى أن الأشياء لها خزائن عند الله تنزل من هناك على حسب ما قدرها الله سبحانه، قال تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزَلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» الحجر: ٢١ و قال تعالى: «وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» الذاريات: ٢٢ و قال: «وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ مَوَاطِنَ الْأَرْضِ» الزمر: ٦ و قال: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ:» الحديد: ٢٥.

و أما ما قيل: إن التعبير بالإنزال إنما هو لكون أرزاق العباد من المطر الذي

ينزله الله من السماء، فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الأنعام و في الحديد، والرزق الذي تذكر الآيه أن الله أنزله لهم فجعلوا منه حراما و حلالا هو الأنعام من الإبل و الغنم كالوصيله و السائبه و الحام و غيرها.

و اللام في قوله: «لَكُمْ» للغايه و تفيد معنى النفع أى أنزل الله لأجلكم و لتنتفعوا به، و ليست للتعديه فإن الإنزال إنما يتعدى بعلى أو إلى، و من هنا أفاد الكلام معنى الإباحه و الحل أى أنزلها الله فأحلها، و هذا هو النكته في تقديم التحريم على الإحلال في قوله: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَ حَلَالاً» أى كان الله أحله لكم بإنزاله رزقا لكم تنتفعون به في حياتكم و بقائكم و لكنكم قسمتموه قسامين من عند أنفسكم فحرمتم قسما و أحللتهم آخر فالمعنى: قل لهم يا محمد: أخبروني عما أنزل الله لكم و لأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسامين و جعلتم بعضه حراما و بعضه حلالا ما هو السبب في ذلك؟ و من البين أنه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى.

و قوله: «قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق إلى حرام و حلال، و إذ كان من البين أنه ليس ذلك عن إذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربهم بوحى أو رسول كان من المتعين أنه افتراء فلاستفهام في سياق الترديد كناية عن إثبات الافتراء لهم و توبيخ و ذم.

و الذى يقضى به النظر الابتدائى أن الترديد فى الآيه غير حاصر إذ كما يجوز أن يكون تقسيمهم رزق الله إلى حرام و حلال عن إذن من الله أو افتراء عليه تعالى كذلك يجوز أن يكون عن مصلحه أحرزوها أو زعموها فى ذلك أو عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه إلى الله تعالى فىكون افتراء عليه.

و من وجه آخر الترديد فى الآيه بين إذن الله و الافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا- و هو دائر بينهم إما أن يكون من الله أو افتراء عليه، و من الممكن أن يمنع ذلك فى بادئ النظر فكثير من السنن الدائره بين الناس كوتتها طبيعه مجتمعهم أو عاداتهم القوميه و غير ذلك.

لكن التدبير فى كلامه تعالى و البحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى، و ليس لأحد من خلقه أن يبادر إلى تشريع حكم و وضعه فى المجتمع الإنسانى، قال تعالى: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» يوسف:- ٤٠.

و قد أشار تعالى إلى لم ذلك فى قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» الروم:- ٣٠ فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمدا على الخلقه و الفطره منطبقا عليها غير مخالف لما ينطق به الكون و الوجود.

و ذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا كما قال: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً» المؤمنون:- ١١٥ بل خلقهم لأغراض إلهيه و غايات كماليه يتوجهون إليها بحسب جبلتهم و يسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم إليه من السبيل الميسر لهم كما قال: «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه:- ٥٠، و قال: «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» عبس:- ٢٠.

فوجود الأشياء فى بدء خلقها مناسب لما هيئ لها من منزله الكمال مجهز بقوى و أدوات يتوسل بها إلى غايتها، و لا يسير شىء منها إلى كماله المهيأ له إلا من طريق الصفات الاكتسابيه و الأعمال، فمن الواجب بالنظر إلى ذلك أن يكون الدين أعنى القوانين الجاربه فى الصفات و الأعمال الاكتسابيه منطبقا على الخلقه و الفطره فإن الفطره لا تنسى غايتها و لا تتخطاها، و لا تبعث نحو فعل و لا تزجر عن فعل إلا لدعوه ما جهزت به إليه، و لا يدعو الجهاز إلا لأجل ما جهز لأجله و هو الغايه.

فالإنسان لما كان مجهزا بجهاز التغذية و النكاح كان حكمه الحقيقى فى دين الفطره هو التغذية و النكاح دون الجوكيه و الرهبانيه مثلا، و لما كان مطبوعا على الاجتماع و التعاون كان من حكمه أن يشارك سائر الناس فى مجتمعهم و يقوم بالأعمال الاجتماعيه، و على هذا القياس.

فالذى يتعين للإنسان من الأحكام و السنن هو الذى يدعو إليه الكون العالمى الذى هو جزء حقير منه، و قد جهز وجوده بما يسوقه إليه من مرحله الكمال، فهذا

الكون العام المرتبط ببعض أجزائه ببعض، و هو مركب إرادته الله تعالى هو الحامل للشريعة الفطرية الإنسانية، و الداعى إلى دين الله الحنيف.

فالدين الحق هو حكم الله سبحانه لا حكم إلا له، و هو المنطبق على الخلقه الإلهيه، و ما وراءه من حكم هو باطل لا يسوق الإنسان إلا إلى الشقاء و الهلاك و لا يهديه إلا إلى عذاب السعير.

و من هنا ينحل ما تقدم من العقدين فإن الحكم لما كان لله سبحانه وحده كان كل حكم دائر بين الناس إما حكما لله حقيقه مأخوذا من لدنه بوحى أو رساله أو حكما مفترى على الله، و لا ثالث للقسمين.

على أن المشركين كانوا ينسبون أمثال هذه الأحكام التي ابتدعوها و استنوا بها فيما بينهم إلى الله سبحانه كما يشير إليه قوله تعالى: «وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا»: الآيه الأعراف:- ٢٨.

قوله تعالى: «وَ مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» إلى آخر الآيه، لما كان جواب الاستفهام المتقدم: «آلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» معلوما من المورد، و هو أنه افتراء، استعظم وخامه عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البداهه فلا محاله له أثر سيئ، و لذلك قال تعالى إيعادا و تهديدا: «وَ مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

و أما قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَمَدُّو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» فهو شكوى و عتبي يشار به إلى ما اعتاد عليه الناس من كفران أكثرهم لنعمه الله، و عدم شكرهم قبل عطيته و نعمته، و المراد بالفضل هاهنا هو العطيه الإلهيه فإن الكلام فى الرزق الذى أنزله الله لهم و هو الفضل و تحريمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجع ذيل الآيه إلى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته، و المعنى أن الله ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمه الله و رزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» إلى آخر الآية، قال الراغب: الشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمر قال: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» انتهى.

وقوله: «وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ» الظاهر أن الضمير إلى الله سبحانه ومن الأولى للابتداء والنشوء والثانيه للبيان، والمعنى ولا تتلو شيئاً هو القرآن ناشئاً ونازلاً من قبله تعالى، والإفاضه في الفعل الخوض فيه جمعا.

وقد وقع في قوله: «إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» التنفات من الغيبه إلى التكلم مع الغير، والنكته فيه الإشاره إلى كثره الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكه والناس والله من ورائهم محيط، والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم للدلاله على أن لهم أعوانا وخدمه.

وليس ينبغي أن يغفل عن أن أصل الالتفات يبدأ من أول الآية فإن الآيات السابقه كانت تخاطب النبي ص وتأخذ المشركين على الغيبه وتكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه، وقد حولت هذه الآية وجه الكلام إلى النبي ص بما يخص به نفسه فقالت: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ» ثم جمعتهم والمشركين وغيرهم جميعا في خطاب واحد فقالت: «وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» وذلك بضمهم إلى النبي ص وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك أنت وقومك تفعلون كذا وكذا.

والدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم والتغليب قوله بعده: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ» إلخ، فإنه يكشف عن كون الخطاب معه (ص) جاريا على ما كان.

وعلى أي حال فالتحول المذكور في خطاب الآية للإشاره إلى أن السلطنه والإحاطه التامه الإلهيه واقعه على الأعمال شهاده وعلما على أتم ما يكون من كل جهه من غير أن يستثنى منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك أو يغفل عن عمل من الأعمال فلا يتوهم أحد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامه،

و ليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة و ليأخذ حذره.

و ذكر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله في قوله قبالا: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ» فإن أحد شئونه (ص) للإيماء إلى أهميه أمرها و مزيد العناية بها.

و في الآيه أولا- تشديد في العظه على النسي ص و على أمته و ثانيا: أن الذي يتلوه النسي ص من القرآن للناس من وحي الله و كلامه لا يطرقة تغيير و لا يدب فيه باطل لا في تلقيه من الله و لا في تلاوته للناس فالآيه قريبه المضمون من قوله :

«عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبَّهُمْ:» الجن:- ٢٨.

و قوله: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» إلى آخر الآيه. العزوب الغيبه و التباعد و الخفاء، و فيه إشاره إلى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبه و حفظه لها في كتاب من غير زوال، و قد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله :

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ:» الأنعام:- ٥٩ في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه إلى الإيمان بكتاب الله و الندب إلى توحيد الله تعالى بمعناه الواسع.

و للدلاله على أهميه المطلب افتتح بلفظه «أَلَا» التنبيهيه، و الله سبحانه يذكر في هذه الآيه و الآيتين بعدها أولياءه و يعرفهم و يصف آثار ولايتهم و ما يختصون به من الخصيصه.

و الولايه و إن ذكروا لها معاني كثيره لكن الأصل في معناها ارتفاع الواسطه الحائله بين الشئيين بحيث لا يكون بينهما ما ليس منهما، ثم استعيرت لقب الشئ من الشئ بوجه من وجوه القرب كالقرب نسبا أو مكانا أو منزله أو بصدقه أو غير ذلك و لذلك يطلق الولي على كل من طرفي الولايه، و خاصه بالنظر إلى أن كلا منهما يلي من الآخر ما لا يليه غيره فالله سبحانه ولى عبده المؤمن لأنه يلي أمره و يدبر شأنه فيهديه إلى صراطه المستقيم و يأمره و ينهيه فيما ينبغي له أو لا ينبغي و ينصره في الحياه الدنيا و في الآخره.

و المؤمن حقا ولى ربه لأنه يلى منه إطاعته فى أمره و نهيه و يلى منه عامه البركات المعنويه من هدايه و توفيق و تأييد و تسديد و ما يعقبها من الإكرام بالجنه و الرضوان.

فأولياء الله-على أى حال-هم المؤمنون فإن الله يعد نفسه وليا لهم فى حياتهم المعنويه حيث يقول: «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ»: آل عمران:-٦٨.

غير أن الآيه التاليه لهذه الآيه المفسره للكلمه تأبى أن تكون الولايه شامله لجميع المؤمنين و فيهم أمثال الذين يقول الله سبحانه فيهم: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»: يوسف:-١٠٦ فإن قوله فى الآيه التاليه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» يعرفهم بالإيمان و التقوى مع الدلاله على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل: «آمَنُوا» ثم قيل عطفاً عليه: «وَكَانُوا يَتَّقُونَ» فدل على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم و من المعلوم أن الإيمان الابتدائى غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان أو هو قبل التقوى و خاصه التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الإيمان مرتبه أخرى من مراتب الإيمان غير المرتبه الأولى منه.

فقد تقدم فى الجزء الأول من الكتاب آيه ١٣٠ من البقره أن لكل من الإيمان و الإسلام و كذا الشرك و الكفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الأولى من الإسلام إجراء الشهادتين لسانا و التسليم ظاهرا، و تليه المرتبه الأولى من الإيمان و هو الإذعان بمؤدى الشهادتين قلبا إجمالا- و إن لم يسر إلى جميع ما يعتقد فى الدين من الاعتقاد الحق، و لذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات، قال تعالى :

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» يوسف:-١٠٦.

و لا يزال إسلام العبد يصفو و ينمو حتى يستوعب تسليمه لله سبحانه فى كل ما يرجع إليه و إليه مصير كل أمر، و كلما ارتفع الإسلام درجه و رقى مرتبه كان الإيمان المناسب له الإذعان بلوازم تلك المرتبه حتى يسلم العبد لربه حقيقه معنى ألوهيته و ينقطع عنه السخط و الاعتراض فلا- يسخط لشيء من أمره من قضاء و قدر و حكم، و لا يعترض على شيء من إرادته، و بإزاء ذلك الإيمان باليقين بالله و جميع

ما يرجع إليه من أمر، وهو الإيمان الكامل الذى تتم به للعبد عبوديته.

قال تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» النساء: ٦٥، والأشبه أن تكون هذه المرتبة من الإيمان أو ما يقرب منه هو المراد بالآية أعنى قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» فإنه الإيمان المسبوق بتقوى مستمر دون الإيمان بمرتبته الأولى كما تقدم.

على أن توصيفه أهل هذا الإيمان بأنهم «لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» يدل على أن المراد منه الدرجة العاليه من الإيمان الذى يتم معه معنى العبودية و المملوكية المحضه للعبد الذى يرى معه أن الملك لله وحده لا شريك له، و أن ليس إليه من الأمر شىء حتى يخاف فوته أو يحزن لفقده.

و ذلك أن الخوف إنما يعرض للنفس عن توقع ضرر يعود إليها، والحزن إنما يطرأ عليها لفقد ما تحبه أو تحقق ما تكرهه مما يعود إليها نفعه أو ضرره، و لا يستقيم تحقق ذلك إلا فيما يرى الإنسان لنفسه ملكا أو حقا متعلقا بما يخاف عليه أو يحزن لفقده من ولد أو مال أو جاه أو غير ذلك. و أما ما لا علقه للإنسان به بوجه من الوجوه أصلا فلا يخاف الإنسان عليه و لا يحزن لفقده البته.

و الذى يرى كل شىء ملكا طلقا لله سبحانه لا يشاركه فى ملكه أحد لا يرى لنفسه ملكا أو حقا بالنسبه إلى شىء حتى يخاف فى أمره أو يحزن، و هذا هو الذى يصفه الله من أوليائه إذ يقول: «الْأَلَاءِ لِي أَوْ لِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» فهؤلاء لا يخافون شيئا و لا يحزنون لشيء لا فى الدنيا و لا فى الآخرة إلا أن يشاء الله و قد شاء أن يخافوا من ربهم و أن يحزنوا لما فاتهم من كرامته إن فاتهم و هذا كله من التسليم لله فافهم ذلك.

فإطلاق الآية يفيد اتصافهم بهذين الوصفين: عدم الخوف و عدم الحزن فى النشأتين الدنيا و الآخرة، و أما مثل قوله تعالى: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَاتِ وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ» الزخرف: ٧٠ فإن ظاهر الآيات و إن كان هو أنها تريد الأولياء بالمعنى الذى تصفه الآية التى نحن فيها إلا أن إثبات عدم الخوف و الحزن لهم يوم القيامة لا ينفى ذلك عنهم فى غيره. نعم

هناك فرق من جهة أخرى و هو خلوص النعمه و الكرامه و بلوغ صفاتها يوم القيامة و كونها مشوبه غير خالصه فى غيره.

و نظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فصلت: -٣١ فإن الآيات و إن كانت ظاهره فى كون هذا التنزل و القول و البشاره يوم الموت لمكان قوله: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ و قوله:

﴿أُبَشِّرُوا﴾ غير أن الإثبات فى وقت لا يكفى للنفى فى وقت آخر كما عرفت.

هذا ما يدل عليه الآيه بحسب إطلاق لفظها و تأييد سائر الآيات لها، و قد قيد أكثر المفسرين قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بالاستناد إلى آيات الآخرة-يوم الموت و القيامة، و أهملوا ما تفيده خصوصيه اللفظ فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ﴾ و أخذوا بالإيمان و التقوى أمرين متقارنين فرجع المعنى إلى أن أولياء الله هم المتقون من أهل الإيمان و لا خوف عليهم فى الآخرة و لا هم يحزنون و هذا- كما عرفت- من التقييد من غير مقيد.

و عمم بعضهم نفى الخوف و الحزن فذكر أنهم متصفون به فى الدنيا و الآخرة غير أنه أفسد المعنى من جهة أخرى فقال: إن المراد بالأولياء على ما تفسرهم به الآيه الثانيه جميع المتقين من المؤمنين، و المراد بعدم خوفهم و حزنهم أنهم لا يخافون فى الآخرة مما يخاف منه الكافرون و الفاسقون و الظالمون من أهوال الموقف و عذاب الموقف و عذاب الآخرة و لا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم و أنهم لا يخافون فى الدنيا كخوف الكفار و لا يحزنون كحزنهم.

قال: و أما أصل الخوف و الحزن فهو من الأعراض البشرىه التى لا يسلم منها أحد فى الدنيا، و إنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس و أرضاهم بسنن الله اعتقادا و علما بأنه إذا ابتلاههم بشىء مما يخيف أو يحزن فإنما يريهم بذلك لتكميل نفوسهم و تمحيصها بالجهد فى سبيله الذى يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيره. انتهى.

أما تقييده الآيه بأن المنفى عن الأولياء هو الخوف و الحزن اللذين يعرضان

للكفار دون ما يعرض لعامة المؤمنين بحسب الطبع البشرى و استناده فى ذلك إلى الآيات الكثيره فهو من التقييد من غير مقيد، و أما قوله إن أصل الخوف و الحزن مما لا يسلم منه أحد أصلا فهو من عدم تحصيل المراد بالكلام لعدم تعمقه فى البحث عن الأخلاق العالیه و المقامات المعنويه الإنسانيه فحمله ذلك على أن يقيس حال المكرمين من عباد الله المقربين من الأنبياء و الأولياء إلى ما يجده من حال المتوسطين من عامه الناس فزعم أن ما يغشى العامه من الأعراض التى سماها أحوالا طبيعیه يغشى الخاصه لا- محاله، و أن ما يتعذر أو يتعسر على المتوسطين من الأحوال فهو كذلك عند الكاملين، و لا يبقى حينئذ للمقامات المعنويه و الدرجات الحقيقيه إلا- أنها أسماء ليس وراءها حقيقه، و اعتبارات وضعيه اصطلح عليها نظير المقامات الوهميه و الدرجات الرسميه الاجتماعيه التى نتداولها فى مجتمعاتنا لمصلحه الاجتماع.

فلا وفى حق البحث العلمى حتى يهديه إلى حق النتيجة فيتبين أن التوحيد الكامل يقصر حقيقه الملك فى الله سبحانه فلا يبقى لغيره شىء من الاستقلال فى التأثير حتى يتعلق به لنفسه حب أو بغض أو خوف أو حزن و لا فرح و لا أسى و لا غير ذلك، و إنما يخاف هذا الذى غشيه التوحيد و يحزن أو يحب أو يكره بالله سبحانه، و يرتفع التناقض حينئذ بين قولنا: إنه لا يخاف شيئا إلا الله و بين قولنا: إنه يخاف كثيرا مما يضره و يحذر أمورا يكرهها فافهم ذلك.

و لا البحث القرآنى أتقن و استفرغ فيه الوسع حتى يظهر له أن قوله تعالى:

« أَلَا - إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أطلق فيه نفى الخوف و الحزن من غير تقييد بشىء أو حال إلا ما صرح به آيات من وجوب مخافه الله فهؤلاء لا يخافون من شىء فى دنيا و لا آخره إلا من الله سبحانه و لا يحزنون.

و أما الآيات الكثيره التى تصف المؤمنين بعدم الخوف و الحزن عند الموت أو يوم القيامة فهى إنما تصف أحوالهم فى ظرف و لا يستوجب نفى شىء أو إثباته فى مورد خلافه فى غيره و هو ظاهر.

و الآيه مع ذلك تدل على أن هذا الوصف إنما هو لطائفه خاصه من المؤمنين

يمتازون عن غيرهم بمرتبه خاصه من الإيمان تخصصهم دون غيرهم من عامه المؤمنين و ذلك بما يفسرها من قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» بما تقدم من تقرير دلالتة.

و بالجمله ارتفاع الخوف من غير الله و الحزن عن الأولياء ليس معناه أن الخير و الشر و النفع و الضرر و النجاه و الهلاك و الراحة و العناء و اللذه و الألم و النعمه و البلاء متساويه عندهم و متشابهه في إدراكهم فإن العقل الإنسانى بل الشعور العام الحيوانى لا يقبل ذلك.

بل معناه أنهم لا يرون لغيره تعالى استقلالاً في التأثير أصلاً، و يقصرون الملك و الحكم فيه تعالى فلا يخافون إلا إياه أو ما يحب الله و يريد أن يحذروا منه أو يحزنوا عليه.

قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» يبشرهم الله تعالى بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ» إنشاءً للبشاره كان معناه وقوع ما بشر به في الدنيا و في الآخرة كليهما، و إن كان إخباراً بأن الله سيبشرهم بشرى كانت البشاره واقعه في الدنيا و في الآخرة، و أما المبشر به فهل يقع في الآخرة فقط أو في الدنيا و الآخرة معاً؟ الآيه ساكتة عن ذلك.

و قد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى: «وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»: الروم:- ٤٧ و قوله: «إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»: المؤمن:- ٥١ و قوله: «بُشْرًا كُمْ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»: الحديد:- ١٢ إلى غير ذلك.

و قوله: «لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» إشاره إلى أن ذلك من القضاء المحتوم الذى لا سبيل للتبدل إليه، و فيه تطيب لنفوسهم.

قوله تعالى: «وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» تأديب للنبي ص بتعزيتة و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه و الطعن في دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول في الآيه التالیه فكاد يحزن لله فسلاه

الله و طيب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده و هو أن العزه لله و أنه سميع لمقالهم عليهم بحاله و حالهم و إذ كان له تعالى كل العزه فلا يعبا بما اعتزوا به من العزه الوهميه فهذوا ما هذوا، و إذ كان سميعا عليما فلو شاء لأخذهم بالنكال و إذ كان لا يأخذهم فإنما في ذلك مصلحه الدعوه و خير العاقبه.

و من هنا يظهر أن كلا من قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ» و قوله: «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» عله مستقلة للنهي و لذا جيء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» إلى آخر الآيه فيه بيان مالكيته تعالى لكل من في السماوات و الأرض التي بها يتم للإله معنى الربوبيه فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه، و هذا الملك لله وحده لا شريك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركه إلا ما في ظن الداعين و في خرصهم من المفهوم الذي لا مصداق له.

فالآيه تقيس شركاءهم إليه تعالى و تحكم أن نسبتهم إليه تعالى نسبه الظن و الخرص إلى الحقيقه و الحق، و الباقي ظاهر.

و قد قيل: «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و لم يقل: ما في السماوات و ما في الأرض لأن الكلام في ربوبيه العباد من ذوى الشعور و العقل و هم الملائكه و الثقلان.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا» الآيه. الآيه تتم البيان الذي أورد في الآيه السابقه لإثبات ربوبيته تعالى و الربوبيه- كما تعلم- هي الملك و التدبير، و قد ذكر ملكه تعالى في الآيه السابقه، فبذكر تدبير من تدابيره العامه في هذه الآيه تصلح به عامه معيشه الناس و تستبقى به حياتهم يتم له معنى الربوبيه.

و للإشاره إلى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه، و مع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم إلى أنواع الحركات و التنقلات لكسب مواد الحياه و إصلاح شئون المعاش فليس يتم أمر الحياه الإنسانيه بالحركه فقط أو بالسكون فقط فدبر الله

سبحانه الأمر في ذلك بظلمه الليل الداعيه إلى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العى و التعب و النصب و إلى الارتياح و الأنس بالأهل و التمتع مما جمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبوديه، و بضوء النهار الباعث إلى الرؤيه فالاشتياق فالطلب.

قوله تعالى: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَمَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» إلى آخر الآيه الاستيلاء بمعناه المعروف عند الناس هو أن يفصل الموجود الحى بعض أجزاء مادته فيربيه بالحمل أو البيض تربيته تدريجيه حتى يتكون فردا مثله، و الإنسان من بينها خاصه ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر و ذخراً ليوم الفاقه، و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عز اسمه منزّه عن الأجزاء متعال عن التدريج فى فعله برىء عن المثل و الشبهه مستغن عن غيره بذاته.

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكوره كما تعرض لنفيه من جميعها فى قوله: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَمَدًا سُبْحَانَهُ يَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ يُدْعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» البقره: -١١٧ و قد مرت الإشاره إلى ذلك فى تفسير الآيات فى الجزء الأول من الكتاب.

و أما الآيه التى نحن فيها فهى مسوقه للاحتجاج على نفى الولد من الجهه الأخيره فحسب و هو أن الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلك إنما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً، و الله سبحانه هو الغنى الذى لا يخالطه فقر فإنه المالك لما فرض فى السماوات و الأرض من شىء.

و قوله: «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ أَى برهان» «بِهَذَا» إثبات لكونهم إنما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى أنه لا دليل لكم على ما قلموه بل الدليل على خلافه و هو أنه تعالى غنى على الإطلاق، و الولد إنما يطلبه من به فاقه و حاجه، و الكلام على ما اصطلاح عليه فى فن المناظره من قبيل المنع مع السند.

و قوله: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» توبيخ لهم فى قولهم ما ليس لهم به

علم، و هو مما يستقبحه العقل الإنساني و لا سيما فى ما يرجع إلى رب العالمين عز اسمه.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» تخويف و إنذار بشؤم العاقبه، و فى الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله أولا عنهم من طريق الغيبه قولهم: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا إليه و افتروا عليه فقال: «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» و إنما خاطبهم متنكرا من غير أن يعرفهم نفسه حيث قال:

«عَلَى اللَّهِ» و لم يقل: على أو علينا صونا لعظمه مقامه أن يخالطهم معروفا ثم أعرض عنهم تنزها عن ساحه جهلهم و رجع إلى خطاب رسوله قائلا: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» لأنه إنذار شأنه.

قوله تعالى: «مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» خطاب للنبي ص فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس بحدائه إلا متاع قليل فى الدنيا ثم الرجوع إلى الله و العذاب الشديد الذى يدوقونه.

(بحث روائى)

فى أمالى الشيخ، قال: أخبرنا أبو عمرو قال: أخبرنا أحمد قال: حدثنا يعقوب بن يوسف بن زياد قال: حدثنا نصر بن مزاحم قال: حدثنا محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: "بفضل الله و برحمته" بفضل الله النبى ص، و برحمته على (ع):

أقول: و رواه الطبرسى و ابن الفارسى عنه مرسلًا، و رواه أيضا فى الدر المنثور، عن الخطيب و ابن عساكر عنه.

و فى المجمع، قال أبو جعفر الباقر (ع): فضل الله رسول الله ص - و رحمته على بن أبى طالب (ع).

أقول: و ذلك أن النبى ص نعمه أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من

الرساله و مواد الهدايه، و على (ع) هو أول فاتح لباب الولايه و فعليه التحقق بنعمه الهدايه فهو الرحمه فينطبق الخبر على ما قدمناه في تفسير الآيه.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي عن ابن عباس: "قل بفضل الله القرآن و برحمته" حين جعلهم من أهل القرآن.

أقول: أي الفضل مواد المعارف و الأحكام التي فيه، و الرحمه فعليه تحقق ذلك في العاملين به فيرجع إلى ما قدمناه في تفسير الآيه فتبصر، و لا مخالفه بين هذه الروايه و الروايه السابقه حينئذ بحسب الحقيقه.

و في تفسير القمي،: "في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية قال: كان رسول الله ص إذا قرأ هذه الآية -بكى بكاء شديدا: أقول: و رواه في المجمع، عن الصادق (ع).

و في أمالي المفيد، بإسناده عن عبايه الأسدي عن ابن عباس قال: سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عن قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقبل له: من هؤلاء الأولياء؟ فقال أمير المؤمنين (ع):

قوم أخلصوا الله في عبادته، و نظروا إلى باطن الدنيا -حين نظر الناس إلى ظاهرها- فعرفوا آجلها حين غرت الخلق سواهم بعاجلها - فتركوا ما علموا أنه ستركهم، و أماتوا منها ما علموا أنه سيميتهم.

ثم قال: أيها المطل نفسه بالدنيا -الراكض على حبالها- المجتهد في عماره ما سيخرب منها -ألم تر إلى مصارع آبائك في البلاد- و مصارع أبنائك تحت الجنادل و الثرى؟ كم مرضت بيدنك و عللت بكفنك -تستوصف لهم الأطباء- و تستغيث لهم الأحياء- فلم تغن عنهم غناؤك، و لا ينجع عنهم دواؤك؟

و في تفسير العياشي، عن مرشد العجلي عن أبي جعفر (ع) قال: وجدنا في كتاب علي بن الحسين (ع): «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون»

قال: إذا أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله ص، و تورعوا عن محارم الله، و زهدوا في عاجل زهره الدنيا، و رغبوا فيما عند الله، و اكتسبوا الطيب من رزق الله، و لا- يريدون هذا التفاخر و التكاثر- ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبه- فأولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا- و يثابون على ما قدموا لآخرتهم.

و في الدر المشهور، أخرج أحمد و الحكيم و الترمذى عن عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ص يقول: إنه لا يحق العبد حق صريح الإيمان- حتى يحب الله و يبغض الله تعالى- فإذا أحب الله و أبغض الله- فقد استحق الولاء من الله. الحديث.

أقول: و الروايات الثلاث في معنى الولاية يرجع بعضها إلى بعض و ينطبق الجميع على ما قدمناه في تفسير الآية.

و فيه، أخرج ابن المبارك و ابن أبي شيبه و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن سعيد بن جبير عن النبي ص: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» قال: يذكر الله لرؤيتهم.

أقول: ينبغي أن يحمل إلى أن من آثار ولايتهم ذلك لا أن كل من كان كذلك كان من أهل الولاية إلا أن يراد أنهم كذلك في جميع أحوالهم و أعمالهم، و في معناها

ما روى عن أبي الضحى و سعد عن النبي ص: في الآية قال: إذا رأوا ذكر الله.

و فيه، أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو القاسم بن منده في كتاب سؤال القبر من طريق أبي جعفر عن جابر بن عبد الله قال: أتى رجل من أهل البادية رسول الله ص فقال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله:

« الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ - لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ » فقال رسول الله ص: أما قوله لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا «فهى الرؤيا الحسنه ترى للمؤمن فيبشر بها في دنياه، و أما قوله: « وَ فِي الْآخِرَةِ » فإنها بشاره المؤمن عند الموت أن الله قد غفر لك- و لمن حملك إلى قبرك.

أقول: و في هذا المعنى روايات كثيره من طرق أهل السنه و رواها الصدوق

مرسلا و قوله: «تري للمؤمن» بصيغته المجهول أعم من أن يراها هو نفسه أو غيره و قوله: «عند الموت» قد أضيف إليه في بعض الروايات البشرى يوم القيامة بالجنة.

و في المجمع: في قوله: «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» عن أبي جعفر (ع): في معنى البشاره في الدنيا: الرؤيا الصالحه يراها المؤمن لنفسه- أو ترى له، و في الآخرة الجنة- و هي ما يبشرهم به الملائكة عند خروجهم من القبور، و في القيامة إلى أن يدخلوا الجنة- يبشرونهم حالا بعد حال:

أقول: و قال بعد ذلك و روى ذلك في حديث مروى عن النبي ص انتهى و روى مثله عن الصادق (ع) و رواه القمي في تفسيره، مضمرا .

و في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن زريق عن الصادق (ع): في قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قال: هو أن يبشراه بالجنة عند الموت يعنى محمدا و عليا (ع).

و في الكافي، بإسناده عن أبان بن عثمان عن عقبه أنه سمع أبا عبد الله (ع) يقول: إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره رأى. قلت: جعلت فداك و ما يرى؟ قال: يرى رسول الله ص فيقول له رسول الله. أنا رسول الله أبشر، ثم قال:

ثم يرى على بن أبي طالب (ع) فيقول: أنا على بن أبي طالب الذي كنت تحب- أما لأنفعنك اليوم.

قال: قلت له: أ يكون أحد من الناس يرى هذا- ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال:

إذا رأى هذا أبدا مات و أعظم ذلك- قال: و ذلك في القرآن قول الله عز و جل:

« الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ - لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ».

أقول: و هذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت (ع) بطرق كثيره جدا و قوله: «و أعظم ذلك» أى عده عظيما. و قد أخذ في الحديث قوله تعالى:

« الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ » كلاما مستقلا ففسره بما فسر، و تقدم نظيره في روايه الدر المنثور، عن جابر بن عبد الله عن النبي ص مع أن ظاهر السياق كون الآيه مفسره لقوله قبلها: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ» الآيه و هو يؤيد ما قدمناه في بعض الأبحاث

السابقه أن جميع التقادير من الترتيبات الممكنه فى كلامه تعالى حجه يحتج بها كما فى قوله: «قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ:» الأنعام:- ٩١ وقوله: «قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ» وقوله: «قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ» وقوله: «قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ».

و فى الدر المشهور، أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و الترمذى و صححه و ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ص: إن الرساله و النبوه قد انقطعت فلا رسول بعدى و لا نبى- و لكن المبشرات. قالوا: يا رسول الله و ما المبشرات قال: رؤيا المسلم و هى جزء من أجزاء النبوه:

أقول: و روى ما فى معناه عن أبى قتاده و عائشه عنه (ص).

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه و مسلم و الترمذى و أبو داود و ابن ماجه عن أبى هريره قال: قال رسول الله ص: إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، و أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا، و رؤيا المسلم جزء من ستة و أربعين جزء من النبوه، و الرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحه بشرى من الله، و الرؤيا من تحزن- و الرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه. و إذا رأى أحدكم ما يكره- فليقم و ليتفل و لا يحدث به الناس الحديث.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه عن عوف بن مالك الأشجعى قال: قال رسول الله ص: الرؤيا على ثلاثه: تخويف من الشيطان- ليحزن به ابن آدم- و منه الأمر يحدث به نفسه فى اليقظه- فيراه فى المنام، و منه جزء من ستة و أربعين جزء من النبوه.

أقول: أما انقسام الرؤيا إلى الأقسام الثلاثه كما ورد فى الروايتين و فى معناهما روايات أخرى من طرق أهل السنه و أخرى من طرق أئمه أهل البيت (ع) فسيجىء توضيحه فى تفسير سوره يوسف إن شاء الله تعالى.

و أما كون الرؤيا الصالحه جزء من ستة و أربعين جزء من النبوه فقد وردت به روايات كثيره من طرق أهل السنه رواها عنه (ص) جمع من الصحابه كأبى هريره و عباده بن الصامت و أبى سعيد الخدرى و أبى رزين،

و روى أنس و أبو قتاده و عائشه عنه (ص): أنها من أجزاء النبوه كما تقدم.

و عن الصفدى أنه وجه الروايه بأن مده نبوه النبى ص ثلاث و عشرون سنه دعا فيها إلى ربه ثلاث عشره سنه قبل الهجره، و عشر سنين بعدها، و قد ورد أن الوحى كان يأتيه سته أشهر من أولها من طريق الرؤيا الصالحه حتى نزل القرآن، و النسبه بين السته الأشهر و بين الثلاث و عشرين سنه نسبه الواحد إلى السته و الأربعين.

و قد روى عن ابن عمر و أبى هريره عنه(ص): أنها جزء من سبعين جزء من النبوه فإن صحت هذه الروايه كان المراد بالتعداد مجرد التكنيثر من غير خصوصيه لعدد السبعين.

و اعلم أن الرؤيا ربما أطلقت فى لسان القرآن و الحديث على ما يشاهده الرائي ما لا يشاهده غيره و إن لم ينم نومه الطبيعى، و قد نبهنا عليه فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب و أحسن كلمه فى تفسيرها

قوله(ص): تنام عيني و لا ينام قلبى.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

اشاره

وَ أُتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ كَافِرِينَ فَمَا تَنْظُرُونَ (٧١) فَأِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

تذكر الآيات إجمال قصه نوح(ع) و من بعده من الرسل إلى زمن موسى و هارون(ع)، و ما عامل به الله سبحانه أممهم المكذبين لرسلمهم حيث أهلكتهم و نجا رسله و المؤمنين بهم ليعتبر بها أهل التكذيب من هذه الأمة.

قوله تعالى: «وَ اتُّلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ» إلى آخر الآية المقام مصدر ميمى و اسم زمان و مكان من القيام، و المراد به الأول أو الثالث أى قيامى بأمر الدعوه إلى توحيد الله أو مكاتتى و منزلتى و هى منزله الرساله، و الإجماع العزم و ربما يتعدى بعلى قال الراغب: و أجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل إليه بالفكره نحو فأجمعوا كيدكم و شركاءكم.

و الغمه هى الكربه و الشده و فيه معنى التغطيه كان الهم يغطى القلب، و منه الغمام للغييم سسمى به لتغطيته وجه السماء، و الفضاء إلى الشىء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلك.

و معنى الآية: «وَ اتُّلُّ» يا محمد «عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ» و خبره العظيم حيث واجه قومه و هو واحد يتكلم عن نفسه، و هو مرسل إلى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك، و أتم الحجه على مكذبيه فى ذلك «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و نهضتى لأمر الدعوه إلى التوحيد أو منزلتى من الرساله «وَ تَذَكِّرُنَا بِاللَّهِ وَنُحْيِيكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ إِنَّكُمْ لَعِنْدَهُمْ» إلى قتلى و إيقاع ما تقدرون عليه من الشر بى لإراحه أنفسكم منى «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» قبال ما يهددنى من تخرج صدوركم و ضيق نفوسكم على يارجاع أمرى إليه و جعله و كيلا- يتصرف فى شئونى و من غير أن أشتغل بالتدبير «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم فى الشدائد، و اعزموا على بما بدا لكم، و هذا أمر تعجيزى، ثُمَّ لَا يَكُنْ

«إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسل إلى كل سبب في دفعي» ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ «بدفعي و قتلى» وَ لَا تُنظِرُونِ «و لا تمهلوني».

و في الآية تحديده (ع) على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم، و إظهار أن ربه قد ير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشركائهم و آلهتهم.

قوله تعالى: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَلَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ» إلى آخر الآية. تفرغ على توكله بربه، و قوله: «فَلَمَّا سَأَلْتُمْ» إلخ، بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتم و أعرضتم عن استجابته دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أضر فى إعراضكم شيئاً لأنى إنما كنت أضر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله.

و قوله: «وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى الذين يسلمون الأمر إليه فيما أراده لهم و عليهم، و لا يستكبرون عن أمره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به إيصال نفع أو دفع شر.

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْمِكِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ خَلَائِفَ» إلى آخر الآية، الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الأرض و الباقيين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ» إلى آخر الآية، يريد بالرسول من جاء منهم بعد نوح إلى زمن موسى (ع). و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزة التى اقترحتها الأمم على أنبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين أممهم، و يؤيده قوله بعده: «فَلَمَّا كَانُوا لِيَوْمِئِذٍ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» إلخ، فإن السابق إلى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن فى وسعهم أن يؤمنوا ثانياً بما كذبوا به أولاً.

و لازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسول بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثوا دعوتهم فيهم و دعوهم إلى توحيد الله فكذبوا به و بهم ثم اقترحوا

عليهم آية معجزه فجاء وهم بها فلم يؤمنوا.

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآيه في تفسير قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾: الأعراف: ١٠١ في الجزء الثامن من الكتاب، و بينا هناك أن في الآيه إشاره إلى عالم الذر غير أنه لا ينافى إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفا فليراجع.

(بحث روائي)

في الكافي، عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن محمد بن إسماعيل عن صالح بن عقبه عن عبد الله بن محمد الجعفي وعقبه جميعا عن أبي جعفر (ع) قال: إن الله عز وجل خلق الخلق فخلق من أحب مما أحب - فكان مما (١) أحب أن خلقه من طين الجنة - وخلق من أبغض مما أبغض - وكان ما أبغضه أن خلقه من طينه النار - ثم بعثهم في الظلال، فقلت: و أي شيء الظلال؟ فقال: أ لم تر إلى ظلك في الشمس شيء و ليس بشيء -.

ثم بعث منهم النبيين - فدعوهم إلى الإقرار بالله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ ثم يدعوهم إلى الإقرار بالنبيين - فأقر بعض و أنكر بعض، ثم يدعوهم إلى ولايتنا فأقر بها و الله من أحب - و أنكرها من أبغض، و هو قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾. ثم قال أبو جعفر (ع): كان التكذيب من قبل:.

أقول: و رواه في العلل، بإسناده إلى محمد بن إسماعيل عن صالح بن عبد الله و عقبه عنه (ع)، و رواه العياشي عن الجعفي عنه (ع).

و في تفسير العياشي، عن زراره و حمران عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع):

خلق الخلق و هم أظله - فأرسل رسوله محمدا ص - فمنهم من آمن به و منهم من كذبه - ثم بعثه في الخلق الآخر فأمن به من كان آمن به في الأظله - و جرده من جرده يومئذ

ص: ١٠٤

فقال: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ».

أقول: قد فصلنا القول في ما يسمى عالم الذر في تفسير قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ» الآية. و أوضحنا هناك أن آيات الذر تثبت عالما إنسانيا آخر غير هذا العالم الإنساني المادى التدريجى المشوب بالآلام و المصائب و المعاصى و الآثام المشهود لنا من طريق الحس.

و هو مقارن لهذا العالم المحسوس نوعا من المقارنه لكنه غير محكوم بهذه الأحكام الماديه، و ليس تقدمه على عالمنا هذا تقدا بالزمان بل بنوع آخر من التقدم نظير التقدم المستفاد من قوله: «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: يس: ٨٢ فإن «كن» و «يكون» يحكيان عن مصداق واحد و هو وجود الشيء خارجا لكن هذا الوجود بعينه بوجهه الذى إلى الله متقدم عليه بوجهه الآخر، و هو بوجهه الربانى غير تدريجى و لا زمانى و لا غائب عن ربه و لا منقطع عنه بخلاف وجهه إلى الخلق على التفصيل الذى تقدم هناك.

و الذى أوردناه من الروايه فى هذا البحث الروائى تشير إلى عالم الذر كالذى مرت سابقا غير أنها تختص بمزيه و هى ما فيها من لطيف التعبير بالظلال فإن بإجاده التأمل فى هذا التعبير يتضح المراد أحسن الاتضاح فإن فى الأشياء الكونيه أمورا هى كالظلال فى أنها لازمه لها حاكبه لخصوصيات وجودها و آثار وجودها، و مع ذلك فهى هى و ليست هى.

فإننا إذا نظرنا إلى الأشياء و جردنا النظر و محضناه فى كونها صنع الله و فعله المحض غير المنفك منه و لا المنفصل عنه - و هى نظره حقه واقعيه - لم يتحقق فيها إلا - التسليم لله و الخضوع لإرادته و التذلل لكبريائه و التعلق برحمته و أمر ربوبيته و الإيمان بوحدانيته و بما أرسل به رسله و أنزله إليهم من دينه.

و هذه الوجودات ظلال - أشياء و ليست بأشياء - إذا قيست إلى وجودات الأشياء الماديه، و أخذ العالم المادى أصلا مقيسا إليه و هو الذى بنت عليه الآيات من جهه كون غرضها بيان ثبوت التكليف بالتوحيد تكليفا لا محيص عنه مسئولا عنه يوم القيامه.

و لو أخذت جهه الرب تعالى أصلا و قيس إليه هذا العالم المادى بما فيه من الموجودات الماديه-و هو أيضا نظر حق-كان هذا العالم هو الظل و كانت جهه الرب تعالى هو الأصل و الشخص الذى له الظل كما يشير إليه قوله تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ:»، القصص: ٨٨ و قوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ:»، الرحمن-٢٧.

و أما ما رواه العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع): فى قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» قال: «بعث الله الرسل إلى الخلق-و هم فى أصلاب الرجال و أرحام النساء-فمن صدق حينئذ صدق بعد ذلك، و من كذب حينئذ كذب بعد ذلك».

فظاهره أن للبعث تعلقا بالنظف التى فى الأصلاب و الأرحام. و هم أحياء عقلاء مكلفون، و هذا مما يدفعه الضروره كما تقدم فى الكلام على آيه النذر اللهم إلا- أن يحمل على أن المراد كون عالم النذر محيطا بهذا العالم المادى التدريجى الزمانى من جهه كونه غير زمانى فلا يتعلق الوجود الذرى بزمان دون زمان و هو مع ذلك محمل بعيد.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنَتْلِفَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتِنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السِّحْرَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَلَمَّا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لِمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ زِينَةً وَ آمَوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُسْفِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْبَاتًا وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

ثم ساق الله سبحانه نبأ موسى وأخيه ووزيره هارون مع فرعون وملئه وقد أوجز في القصة غير أنه ساقها سوقاً ينطبق بفصولها على المحصل من حديث بعثه النبي ص ودعوته عتاه قومه والطواغيت من قريش وغيرهم، وعدم إيمانهم به إلا -ضعفاؤهم الذين كانوا يفتنونهم حتى التجئوا إلى الهجره فهاجر هو(ص) وجمع من المؤمنين به إلى المدينة فعقبه فراغته هذه الأمة و ملؤهم فأهلكهم الله بذنوبهم وبأ الله المؤمنين ببركه الإسلام مبعوا صدق و رزقهم من الطيبات ثم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم و سيقضى الله بينهم.

فكان ذلك كله تصديقا لما أسر الله سبحانه إلى نبيه ص في هذه الآيات فيما سيستقبله و قومه من الحوادث، و لقوله(ص) يخاطب أصحابه و أمته: لتتبعن سنه بنى إسرائيل حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه.

قوله تعالى: « ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ » إلخ، أى ثم بعثنا من بعد نوح و الرسل الذين من بعده موسى و أخاه هارون بآياتنا إلى فرعون و الجماعه الذين يختصون به من قومه و هم القبط فاستكبروا عن آياتنا و كانوا مستمرين على الاجرام.

قوله تعالى: « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا » إلخ، الظاهر أن المراد بالحق هو الآيه الحقه كالثعبان و اليد البيضاء، و قد جعلهما الله آيه لرسالته بالحق فلما جاءهم

الحق قالوا و أكدوا القول: إن هذا-يشيرون إلى الحق من الآية-لسحر مبین واضح كونه سحرا،و إنما سمي الآية حقا قبال تسميتهم إياها سحرا.

قوله تعالى: « قَالَ مُوسَىٰ أَمْ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ۗ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۗ فَلَمَّا سَمِعَ مُقَاتِلَتَهُمْ تِلْكَ وَ رَمَاهُمْ الْحَقُّ بِأَنَّهُ سِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ لَهُمْ مُنْكَرًا لِقَوْلِهِمْ فِي صُورِهِ الْاِسْتِفْهَامُ: « أَمْ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۗ إِنَّهُ لَسِحْرٌ بَلْ كَرَّ الْاِنْكَارُ مُسْتَفْهَمًا بِقَوْلِهِ: « أَسِحْرٌ هَذَا ۗ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۗ فَلَمَّا سَمِعَ مُقَاتِلَتَهُمْ تِلْكَ وَ رَمَاهُمْ الْحَقُّ بِأَنَّهُ سِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ لَهُمْ مُنْكَرًا لِقَوْلِهِمْ فِي صُورِهِ الْاِسْتِفْهَامِ مَحْذُوفٍ اِيجَازًا لِدَلَالَةِ الْاِسْتِفْهَامِ الثَّانِي عَلَيْهِ، وَ قَوْلِهِ: « وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۗ » يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جَمَلُهُ حَالِيَهُ مَعْلَلُهُ لِلاِنْكَارِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: « أَسِحْرٌ هَذَا ۗ »، وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اِخْبَارًا مُسْتَقِلًّا بَيَانًا لِلْوَاقِعِ يَبْرُؤُ بِهٖ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ يَقْتَرِفَ السِّحْرَ لِأَنَّهُ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ الْفَلَاحَ وَ لِلسَّاحِرِينَ اَنْهَمُ لَا يَفْلِحُونَ.

قوله تعالى: « قَالُوا أَ جِئْنَا لِنُلْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ اٰبَاءَنَا ۗ اِلٰخ، اللفظ هو الصرف عن الشيء، والمعنى: قال فرعون و ملؤه لموسى معاتبين له: « أَ جِئْنَا لِنُلْفِتِنَا ۗ » و تصرفنا « عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ اٰبَاءَنَا ۗ » يريدون سنه قدمائهم و طريقتهم « وَ تَكُونُ لَكُمْ اَلْكِبْرِيَاءُ فِي الْاَرْضِ ۗ » يعنون الرئاسة و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمون بذلك أنكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله إلى ابطال طريقتنا المستقره في الأرض، و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها في الناس و إيماننا بكمما و طاعتنا لكمما الكبرياء و العظمه في المملكه.

و بعبارة أخرى إنما جئنا لتبدلا الدوله الفرعونه المتعرفه في القبط إلى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكمما و قيادتكمما، و ما نحن لكمما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكمما و تبلغا غايتكمما من هذه الدعوه المزوره.

قوله تعالى: « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۗ » كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصل في سائر الآيات القاصه للقصه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى: « فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ اَلْقُوا ۗ اِلٰخ، أي لما جاءوا و واجهوا موسى و تهيئوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال

و العصى، و قد كانوا هيئوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيات و الثعابين بسحرهم.

قوله تعالى: «فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا لَمَوْسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ» ما قاله (ع) بيان لحقيقته من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيروره العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الجبال و العصى و أظهوره في صور الحيات و الثعابين بسحرهم.

و الحقيقة التي بينها لهم أن الذي جاءوا به سحر و السحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صوره الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم، و إذ كان باطلا في نفسه فإن الله سيبطله لأن السنه الإلهيه جاريه على إقرار الحق و إحقاقه في التكوين و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و إن كانت للباطل جوله أحيانا.

و لذا علل قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ» بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» فإن الصلاح و الفساد شأنان متقابلان، و قد جرت السنه الإلهيه أن يصلح ما هو صالح و يفسد ما هو فاسد أى إن يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح أن يناسب و يلائم سائر الحقائق الكونيه في نظامها الذي تجرى هي عليه، و يمتزج بها و يخالطها فيصلحه الله سبحانه و يجريه على ما كان من طباعه، و أثر العمل الفاسد أن لا يناسب و لا يلائم سائر الحقائق الكونيه فيما تقتضيه بطباعها و تجرى عليه بجلتها فهو أمر استثنائي في نفسه، و لو أصلحه الله في فساده كان ذلك إفسادا للنظام الكونى.

فيعارضه سائر الأسباب الكونيه بما لها من القوى و الوسائل المؤثره، و تعيده إلى السيره الصالحه إن أمكن و إلا أبطلته و أفتته و محته عن صحيفه الوجود البته.

و هذه الحقيقة تستلزم أن السحر و كل باطل غيره لا يدوم في الوجود و قد قررها الله سبحانه في كلامه في مواضع مختلفه كقوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» و قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ» و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» المؤمن-٢٨، و منها قوله في هذه الآيه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ».

و أكده بتقريره في جانب الإثبات بقوله في الآيه التاليه: «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ

بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

« كما سيأتى توضيحه.

قوله تعالى: « وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة فى جانب النفى بقوله: « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلِ الْمُفْسِدِينَ » أبان عنه فى جانب الإثبات أيضا فى هذه الآية بقوله: « وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ » وقد جمع تعالى بين معنى النفى و الإثبات فى قوله: « لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ: » الأنفال: ٨.

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات فى الآية أقسام الأفضيه الإلهيه فى شئون الأشياء الكونيه الجاربه على الحق فإن قضاء الله ماض و سنته جاربه أن يضرب الحق و الباطل فى نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلائه، و ذلك قوله تعالى: « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ: » الرعد: ١٧، و سيجىء استيفاء البحث فيه فى ذيل الآية إن شاء الله تعالى.

و الحاصل أن موسى (ع) إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليقفهم على سنه إلهيه حقه غفلوا عنها، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل، و لذا بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزه، و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه فى مواضع أخرى من كلامه.

و قوله: « وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » ذكر الاجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق، و لذلك نسب الله كراهه ظهور الحق إليهم بما هم مجرمون فى قوله:

« وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » و فى معناه قوله فى أول الآيات: « فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ».

قوله تعالى: « فَمَّا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِذْ يُرِيهِ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ » إلى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير فى «قومه» راجع إلى فرعون،

و الذريه الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آبائهم من القبط فتبعوا أمهاتهم فى الإيمان بموسى، و قيل:الذريه بعض أولاد القبط، و قيل:أريد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون، و قد ذكرا فى القرآن و جاريه و امرأه هى مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضمير لموسى(ع) و المراد بالذريه جماعه من بنى إسرائيل تعلموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون، و قيل:هم جميع بنى إسرائيل و كانوا ستمائه ألف نسبه سماهم ذريه لضعفهم، و قيل:ذريه آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد، و هذه الوجوه- كما ترى- لا دليل على شىء منها فى الآيات من جهه اللفظ.

و الذى يفيد السباق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا إلى موسى و المراد بالذريه من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسرائيل دون ملئهم الأقوياء و الشرفاء، و الاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، و العاده الجاريه فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء و الأقوياء بأى وسيله أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعيه و جاههم القومى، و يتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمه و مرأاه النصيح و التجنب عما لا يرتضيه فلم يكن فى وسع الملأ من بنى إسرائيل أن يعلنوا موافقه موسى على بغيته، و يتظاهروا بالإيمان به.

على أن قصص بنى إسرائيل فى القرآن أعدل شاهد على أن كثيرا من عتاه بنى إسرائيل و مستكبريهم لم يؤمنوا بموسى إلى أواخر عهده و إن كانوا يتسلمون له و يطيعونه فى عامه أو امره التى كان يصدرها لبذل المساعى فى سبيل نجاه بنى إسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم و حريه شعبيهم و منافع أشخاصهم، فالإطاعه فى هذه الأمور أمر و الإيمان بالله و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و يستقيم على هذا معنى قوله: «و مَلَأْنِيهِمْ» بأن يكون الضمير إلى الذريه و يفيد الكلام أن الذريه الضعفاء كانوا فى إيمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بنى إسرائيل فإنهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم أنفسهم أو تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه

و يطيبوا أنفسهم فلا يضيّقوا عليهم و ينقصوا من إيدائهم و التشديد عليهم.

و أما ما قيل: إن الضمير راجع إلى فرعون لأنه ذو أصحاب أو للذرية لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار إليه البتة و خاصه أول الوجهين.

و قوله: «أَنْ يَفْتِنَهُمْ» أى يعذبهم ليعودوا إلى ملته و قوله: «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ» أى و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال في الأرض مسرف في الأمر.

فالمعنى -و الله أعلم- فتنوع على قصه بعثهما و استكبار فرعون و ملئه أنه لم يؤمن بموسى إلا -ضعفاء من بنى إسرائيل و هم يخافون ملأهم و يخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم و كان ينبغى لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عاليا في الأرض مسلطا عليهم و إنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحد في الظلم و التعذيب.

و لو صح أن يراد بقومه كل من بعث إليهم موسى و بلغهم رساله و هم القبط و بنو إسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجه إلى ما تقدم من تكلفاتهم.

قوله تعالى: «وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِيَّاكُمْ آتَمَّتْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» لما كان الإيمان بالله بما يفيد للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالا و أنه سبب فوق الأسباب إليه ينتهى كل سبب، و هو المدبر لكل أمر، يدعوه إلى تسليم الأمر إليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل، و لازم ذلك إرجاع الأمر إليه و التوكل عليه، و قد أمرهم في الآيه بالتوكل على الله، علقه أولا على الشرط الذى هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذى هو الإسلام.

فالكلام فى تقدير: «إِنْ كُنْتُمْ آتَمْتُمْ بِاللَّهِ وَ مُسْلِمِينَ لَهُ فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ» و قد فرق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول: «إِنْ كُنْتُمْ آتَمْتُمْ وَ أَسْلَمْتُمْ فَتَوَكَّلُوا» لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم، و أما الإسلام فهو من كمال

الإيمان، وليس من الواجب الضروري أن يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأخرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون أحدهما واجبا واقعا منهم، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله-وقد آمنتم- و كنتم مسلمين له-و ينبغي أن تكونوا كذلك-فتوكلوا على الله ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ إلخ، سؤال منهم نتيجة توكلهم و هو أن ينزع الله منهم لباس الضعف و الذلة، و ينجيهم من القوم الكافرين.

أما الأول فقد أشاروا إليه بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ و ذلك أن الذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنه للقوى الظالم كما أن الأموال و الأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ التغابن: -١٥، و الدنيا فتنه لطالبتها فسؤالهم ربهم أن لا- يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف و الذلة بسلب الغرض منه و هو سلب الشئ بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكاية عنهم فى الآيه الثانيه: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ إلخ، التبوى أخذ المسكن و المنزل، و مصر بلد فرعون، و قبله فى الأصل بناء نوع من المصدر كجلسه أى الحاله التى يحصل بها التقابل بين الشئ و غيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أى اجعلوا بيوتكم متقابله يقابل بعضها بعضا و فى جهه واحده و كان الغرض أن يتمكننا منهم بالتبليغ و يتمكنوا من إقامة الصلاه جماعه كما يدل عليه أو يشعر به قوله بعده: ﴿وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لوقوعه بعده.

و أما قوله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» فالسياق يدل على أن المراد به البشارة بإجابة ما سألوه في دعائهم المذكور آنفا: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ».

و المعنى: و أوحينا إلى موسى و أخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر-و كأنهم لم يكونوا إلى ذاك الحين إلا كهية البدويين يعيشون في الفساطيط أو عيشه تشبهها-و اجعلا أنما و قومكما بيوتكم متقابلة و في جهة واحده يتصل بذلك بعضكم ببعض و يتمشى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع في الصلوات، و أقيموا الصلاة و بشر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون و قومه.

قوله تعالى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا» إلخ، الزينه بناء نوع من الزين و هي الهياة التي تجذب النفس إلى الشىء، و النسبه بين الزينه و المال العموم من وجه فبعض الزينه ليس بمال يبذل بإزائه الثمن كحسن الوجه و اعتدال القامه، و بعض المال ليس بزينه كالأنعام و الأراضي، و بعض المال زينه كالحلى و التقابل الواقع بين الزينه و المال يعطى أن يكون المراد بالزينه جهه الزينه من غير نظر إلى المالىه كالحلى و الرياش و الأثاث و الأبنيه الفاخره و غيرها.

و قوله: «رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ» قيل اللام للعاقبه، و المعنى و عاقبه أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك و لا يجوز أن يكون لام الغرض لأننا قد علمنا بالأدله الواضحه أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال و لا يريد أيضا منهم الضلال، و كذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا. انتهى.

و هو حق لكن فى الإضلال الابتدائى المستحيل عليه تعالى، و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبت كلامه فى موارد كثيره، و قد كان فرعون و ملؤه مصرين على الاستكبار و الإفساد ملحين على الاجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينه و أموالا ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

و ربما قيل: إن اللام فى «ليضلوا» للدعاء، و ربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أى لئلا يضلوا عن سبيلك، و السياق لا يساعد على شىء من الوجهين.

و الطمس - كما قيل - تغير إلى الدثور و الدروس فمعنى «اطمس على أموالهم» غيرها إلى الفناء و الزوال، و قوله: «وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ» من الشد المقابل للحل أى أقس قلوبهم و اربط عليها ربطاً لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب، و قول بعضهم: إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم و ألم، و كذا قول آخرين:

إنه كناية عن إماتتهم و إهلاكهم من الوجوه البعيده.

فمعنى الآية: و قال موسى - و كان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون و ملئه و يقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال و الإضلال كما يدل عليه سياق كلامه فى دعائه - ربنا إنك جازيت فرعون و ملأه على كفرهم و عتوهم جزاء السوء فأتيتهم زينه و أموالا فى الحياه الدنيا ربنا إرادته منك لأن يضلوا من اتبعهم عن سبيلك، و إرادتك لا تبطل و غرضك لا يلغو ربنا أدم على سخطك عليهم و اطمس على أموالهم و غيرها عن مجرى النعمه إلى مجرى النقمه و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفا لا ينفعهم الإيمان و هو زمان يرون فيه العذاب الإلهى.

و هذا الدعاء من موسى (ع) على فرعون و ملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، و علمه أنه لا يتقرب منهم فى الحياه إلا أن يضلوا و يضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» نوح: - ٢٧، و حاشا ساحه الأنبياء (ع) أن يتكلموا على الخرص و المظنه فى موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه و عز شأنه.

قوله تعالى: «قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمًا وَ لَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» الخطاب - على ما يدل عليه السياق - لموسى و هارون و لم يحك الدعاء فى الآية السابقه إلا عن موسى، و هذا يؤيد ما ذكره المفسرون: أن موسى (ع) كان يدعو، و كان هارون يؤمن له و أمين دعاء فقد كانا معا يدعوان و إن كان متن الدعاء لموسى (ع) وحده.

و الاستقامه هو الثبات على الأمر، و هو منهما (ع) الثبات على الدعوه

إلى الله و على إحياء كلمه الحق، و المراد بالذين لا يعلمون الجهله من شعب إسرائيل و قد وصفهم موسى (ع) بالجهل كما فى قوله: «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ»: الأعراف: -١٣٨.

و المعنى: «قال» الله مخاطبا لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا» من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه، و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم «فَأَسِئْتَقِيمَا» و اثبتنا على ما أمرتما به من الدعوه إلى الله و إحياء كلمه الحق «وَلَا تَتَّبِعَانَّ» البته «سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» بإجابته ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم، و فيه نوع تلويح إلى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجمله فالآيه تذكر إجابته دعوتهم المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للإيمان و وعدهما بذلك و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابته و كذا الآيه المخبره عن كيفية إنجازها،

و قد نقل فى المجمع، عن ابن جريح: " أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه " قال: و روى ذلك عن أبى عبد الله (ع)، و رواه عنه (ع) فى الإحتجاج، و كذا فى الكافى، و تفسير العياشى، عن هشام بن سالم عنه (ع) و فى تفسير القمى، عن أبيه عن النوفلى عن السكونى عنه (ع) .

قوله تعالى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا» إلى آخر الآيه، البغى و العدو كالعنوان الظلم و إدراك الشىء اللحق به و التسلط عليه كما أن إتباع الشىء طلب اللحق به.

و قوله: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» أى آمنت بأنه.

و قد وصف الله بالذى آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزة البحر و الأمان من الغرق، و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصر عليه من المعصيه و هو الشرك بالله و الاستكبار على الله، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «الْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» الْآنَ بِالْمَدِّ أَصْلُهُ أ الْآنَ أَى أ تَوْمَنُ بِاللَّهِ الْآنَ وَ هُوَ حِينَ أُدْرِكُكَ الْعَذَابَ وَ لَا إِيمَانَ وَ تَوْبَةَ حِينَ غَشِيَانَ الْعَذَابَ وَ مَجِيءَ الْمَوْتِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتَ مِنَ الْمَفْسِدِينَ، وَ أَفْنَيْتَ أَيَامَكَ فِي مَعْصِيَتِهِ، وَ لَمْ تَقْدِمِ التَّوْبَةَ لَوَقْتِهَا فَمَا ذَا يَنْفَعُكَ الْإِيمَانَ بَعْدَ فَوْتِ وَقْتِهِ وَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ مُوسَى وَ هَارُونَ سَأَلَاهُ رَبُّهُمَا أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْذَابَ أَلِيمٍ وَ يَسُدَّ سَبِيلَهُ إِلَى الْإِيمَانَ إِلَّا حِينَ يَغْشَاهُ الْعَذَابُ فَلَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانَ وَ لَا تَغْنَى عَنْهُ التَّوْبَةُ شَيْئًا.

قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِرِدْنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» التَّنْجِيهِ وَ الْإِنْجَاءُ تَفْعِيلٌ وَ إِفْعَالٌ مِنَ النِّجَاةِ كَالْتَخْلِيصِ وَ الْإِخْلَاصِ مِنَ الْخِلَاصِ وَ زَنَا وَ مَعْنَى.

وَ تَنْجِيَّتِهِ بِبَدَنِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنْ لَهُ أَمْرًا آخَرَ وَرَاءَ الْبَدَنِ فَقَدَهُ بَدَنُهُ بِغَشْيَانِ الْعَذَابِ وَ هُوَ النَّفْسُ الَّتِي تَسْمَى أَيْضًا رُوحًا، وَ هَذِهِ النَّفْسُ الْمَأْخُودَةُ هِيَ الَّتِي يَتَوَفَّاها اللَّهُ وَ يَأْخُذُها حِينَ مَوْتِها كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها»: الزمر: ٤٢، وَ قَالَ: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ»: الم السجده: ١١، وَ هِيَ الَّتِي يَخْبِرُ عَنْها الْإِنْسَانُ بِقَوْلِهِ: «أنا» وَ هِيَ الَّتِي بَها تَتَحَقَّقُ لِلْإِنْسَانِ إِنْسَانِيَّتُهُ، وَ هِيَ الَّتِي تَدْرِكُ وَ تَرِيدُ وَ تَفْعَلُ الْأَفْعَالَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِوَسْطِهِ الْبَدَنِ بِمَا لَهُ مِنَ الْقُوَى وَ الْأَعْضَاءِ الْمَادِيَّةِ، وَ لَيْسَ لِلْبَدَنِ إِلَّا أَنَّهُ آلَهُ وَ أَدَاهُ تَعْمَلُ بِها النَّفْسُ أَعْمَالَها الْمَادِيَّةِ.

وَ لِمَكَانِ الْإِتِّحَادِ الَّذِي بَيْنَها وَ بَيْنَ الْبَدَنِ يَسْمَى بِاسْمِها الْبَدَنِ وَ إِلَّا فَأَسْمَاءُ الْأَشْخَاصِ فِي الْحَقِيقَةِ لِنَفْسِهِمْ لَا لِأَبْدَانِهِمْ، وَ نَاهِيكَ فِي ذَلِكَ التَّغْيِيرِ الْمُسْتَمِرِّ الَّذِي يَعْضُضُ الْبَدَنَ مَدَى الْحَيَاةِ، وَ التَّبَدُّلِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي يَطْرُقُ عَلَيْهِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ حَتَّى رُبَّمَا تَبَدَّلَ الْبَدَنُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ إِلَى أَجْزَائِهِ آخَرَ تَتَرَكَّبُ بَدَنًا آخَرَ فَلَوْ كَانَ زَيْدٌ هُوَ الْبَدَنُ الَّذِي وَلَدَتْهُ أُمُّهُ يَوْمَ وَلَدَتْهُ وَ الْاسْمُ لَهُ لَكَانَ غَيْرَهُ وَ هُوَ ذُو سَبْعِينَ وَ ثَمَانِينَ قِطْعًا وَ الْاسْمُ لَغَيْرِهِ حَتْمًا، وَ لَمْ يَثْبُتْ وَ لَمْ يَعْاقِبِ الْإِنْسَانَ وَ هُوَ شَائِبٌ عَلَى مَا عَمَلَهُ وَ هُوَ شَابٌ لِأَنَّ الطَّاعَةَ وَ الْمَعْصِيَةَ لَغَيْرِهِ.

فَهَذِهِ وَ أَمْثَالُها شَوَاهِدٌ قَطْعِيَّةٌ عَلَى أَنَّ إِنْسَانِيَّةَ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ دُونَ بَدَنِهِ، وَ الْأَسْمَاءُ لِلنَّفُوسِ لَا لِلْأَبْدَانِ يَدْرِكُها الْإِنْسَانُ وَ يَعْرِفُها إِجْمَالًا وَ إِنْ كَانَ رُبَّمَا أَنْكَرُها

و بالجمله فالآیه: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ» كالصریح أو هو صریح فى أن النفوس وراء الأبدان، و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما یطلق على الأبدان بعنايه الاتحاد.

فمعنى «نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ» نخرج بدنك من أليم و ننجیه، و هو نوع من تنجیتك -لما بین النفس و البدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا بنحو على الآخر- لتكون لمن خلفك آیه، و هذا بوجه نظیر قوله تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ» طه: ٥٥ فإن الذى یعاد إلى الأرض هو جسد الإنسان دون الإنسان التام فلیست نسبه الإعاده إلى الإنسان إلا لما بین نفسه و بدنه من الاتحاد.

و قد ذكر المفسرون أن الإنجاء و التنجیه لما كان دالا بلفظه على سلامه الذى أنجى إنجاء كان مفاد قوله: «نُنَجِّيكَ» أن يكون فرعون خارجا من أليم حیا و قد أخرجه الله میتا فالمتعین أخذ قوله: «نُنَجِّيكَ» من النجوه و هى الأرض المرتفعه التى لا یعلوها السیل، و المعنى اليوم نخرج بدنك إلى نجوه من الأرض.

و ربما قال بعضهم إن المراد بالبدن الدرع، و قد كان لفرعون درع من ذهب یعرف به فأخرجه الله فوق الماء بدرعه لیكون لمن خلفه آیه و عبره، و ربما قال بعضهم إن التعبير بالتنجیه تهكم به.

و الحق أن هذا كله تكلف لا حاجه إليه، و لم یقل: «نُنَجِّيكَ» و إنما قیل «نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ» و معناه ننجى بدنك، و الباء للآیه أو السببیه، و العنايه هى الاتحاد الذى بین النفس و البدن.

على أن جعل نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ «بمعنى نجعلك على نجوه من الأرض لا یفى بدفع الإشكال من أصله فإن الذى جعل على نجوه هو بدن فرعون على قولهم، و هو غیر فرعون قطعاً و إلا كان حیا سالماً، و لا مناص إلا أن یقال: إن ذلك بعنايه الاتحاد الذى بین الإنسان و بدنه، و لو صححت هذه العنايه إطلاق اسم الإنسان على بدنه من غیر نفس لكان لها أن تصحح نسبه التنجیه إلى الإنسان من جهة وقوع

التنجيه ببدنه، و خاصه مع وجود القرينه الداله على أن المراد بالتنجيه هي التي للبدن دون التي للإنسان المستتبع لحفظ حياته و سلامته نفسا و بدنا، و القرينه هي قوله: «بِدَنِكَ».

قوله تعالى: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» أي أسكناهم مسكن صدق، و إنما يضاف الشيء إلى الصدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فيه صدقا من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعدها بلسان دلالتها الالتزاميه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذي سيفى به واعده، و يسر بالوفاء به موعوده، و يحق أن يطمع فيه و يرجى وقوعه. فإن لم يكن كذلك فليس بوعده صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه و لوازم معناه.

و على هذا فقوله: «مُبُوءًا صِدْقٍ» يدل على أن الله سبحانه بوأهم مبعوءا يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء و الهواء و بركات الأرض و وفور نعمها و الاستقرار فيها و غير ذلك، و هذه هي نواحي بيت المقدس و الشام التي أسكن الله بنى إسرائيل فيها و سماها الأرض المقدسه المباركه و قد قص القرآن دخولهم فيها.

و أما قول بعضهم: إن المراد بهذا المبعوء مصر دخلها بنو إسرائيل و اتخذوا بيوتا فأمر لم يذكره القرآن. على أنهم لو فرض دخولهم فيها ثانيا لم يستقروا فيها استقرارا مستمرا، و تسميه ما هذا شأنه مبعوءا صدق مما لا يساعد عليه معنى اللفظ.

و الآيه أعنى قوله: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ -إلى قوله- مِنَ الطَّيِّبَاتِ» مسوقه سوق الشكوى و العتبي، و يشهد به تذييلها بقوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ»، و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بَيَان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخذ النتيجة من القصه.

و المعنى: أنا أتممنا على بنى إسرائيل النعمه و بوأناهم مبعوءا صدق و رزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مده طويله كانوا فيها فى إساره القبط فوحدنا

شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرقوا الكلمه و اختلفوا فى الحق، و لم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣]

اشاره

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسِئَلِ الَّذِينَ يُقْرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوَمِّنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

تتضمن الآيات الاستشهاد على حقيقه ما أنزله الله فى السوره من المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و ما قصه من قصص الأنبياء و أممهم -و منهم نوح و موسى و من بينهما من الأنبياء(ع) و أممهم -إجمالاً بما قرأه أهل الكتب السماويه فيها قبل نزول القرآن على النبى ص.

ثم تذكر ما هو كالفذلكه و المعنى المحصل من البيانات السابقه و هو أن الناس لن يملكوا من أنفسهم أن يؤمنوا بالله و آياته إلا بإذن الله، و إنما يأذن الله فى إيمان من لم يطبع على قلبه و لم يجعل الرجس عليه و إلا فمن حقت عليه كلمه الله لن يؤمن بالله و آياته حتى يرى العذاب.

فالسنة الجاربه أن الناس منذ خلقوا و اختلفوا بين مكذب بآيات الله و مصدق لها، و قد جرت سنة الله على أن يقضى فيهم بالحق بعد مجيء رسلهم إليهم فينجى الرسل و المؤمنين بهم، و يأخذ غيرهم بالهلاك.

قوله تعالى: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» إلى آخر الآيه الشك الريب، و المراد بقوله: «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و السنه الإلهيه فى القضاء على الأمم مما تقدم فى السوره، و قوله: «يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» «يَقْرَأُونَ» فعل مضارع استعمل فى الاستمرار و «مِنْ قَبْلِكَ» حال من الكتاب عامله متعلقه المقدر، و التقدير منزلاً من قبلك. كل ذلك على ما يعطيه السياق.

و المعنى «فَإِنْ كُنْتَ» أيها النبى «فِي شَكٍّ» و ريب «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» من المعارف الراجعه إلى المبدإ و المعاد و ما قصصنا عليك إجمالاً من قصص الأنبياء الحاكيه لسنة الله الجاربه فى خلقه من الدعوه أولاً ثم القضاء بالحق «فَسئَلُ» أهل الكتاب «الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يَقْرَأُونَ» جنس «الْكِتَابِ» منزلاً - من السماء «مِنْ قَبْلِكَ» «أقسم» لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ «المترددین».

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى ص و لا تحقق شك منه فإن

هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بينه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الذى أخبر به المخبر مما تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فإن فرض من المخاطب أو السامع شك فى واحده منها كان له أن يأخذ بالأخرى.

و هذه طريقه شائعه فى عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم إليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحججه على أمر من الأمور ثم يقول:فإن شككت فى ذلك أو سلمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجه أخرى على ذلك و هى أن كذا كذا و ذلك كناية عن أن الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضروبه على ما لا يحتاج إلى أزيد من واحد منها لكن الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيثول معنى الكلام إلى أن هذه معارف بينها الله لك بحجج تضطر العقول إلى قبولها و قصص تحكى سنه الله فى خلقه و الآثار تدل عليها،بينها فى كتاب لا- ريب فيه،فعلى ما بينه حجه و هناك حجه أخرى و هى أن أهل الكتب السماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ و معاد، و هناك دين إلهى بعث به رسله يدعون إليه،و لم يدعوا أمه من الأمم إلا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذب فأنزل الله آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه،و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى ص و بعض ما يختص به الإسلام من المعارف و ما غيره فى الكتب من الجزئيات،و من لطيف الإشاره أن الله سبحانه لم يذكر فى القصص المذكوره فى هذه السوره قصه هود و صالح لعدم تعرض التوراه الموجوده عندهم لقصتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها و ليس إلا لمكان أن يستشهد فى هذه الآيه بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآيه فى إلقاء الحججه على النبى ص وزانها قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ:» الشعراء:-
١٩٧ فى إلقاء الحججه إلى الناس.

على أن السوره من أوائل السور النازله بمكّه،و لم تشتد الخصومه يومئذ بين

المسلمين و أهل الكتاب و خاصة اليهود اشتدادها بالمدينه، و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذى ركبوه بعد هجره النبي ص، و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذى قالوا: ﴿م﴾ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرًا مِنْ شَيْءٍ: «الأنعام: -٩١.

فهذا ما يعطيه سياق الآيه من المعنى، و أظنك إن أمعنت فى تدبر الآيه و سائر الآيات التى تناسبها مما يخاطب النبي ص بحقيه ما نزل إليه من ربه، و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله، و ما يصف النبي ص أنه على بصيره من أمره، و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى، و أغناك عن التمحلات التى ارتكبوها فى تفسير الآيه بما لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نهى عن الارتياب و الامتراء أولاً ثم ترقى إلى النهى عن التكذيب بآيات الله و هو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآيه لا تكون آيه إلا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبيناً إلا على العناد و اللجاج.

و قوله: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ تفرغ على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقيقه. و المعنى: و لا تكن من الخاسرين، و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه أو ذهاب جميعه، و هو الإيمان بالله و آياته الذى هو رأس مال الإنسان فى سعادته حياته فى الدنيا و الآخرة على ما يستفاد من الآيه التالىه حيث يعلل خسرانهم بأنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الخ، تعليل للنهى السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن أصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال: لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعاده هو الإيمان فوضع قوله «الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» موضع «المكذبين» للأدله على سبب الحكم و أن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمه الله سبحانه تحقق عليهم فالأمر على كل حال إلى الله سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التى حقت على المكذبين بآيات الله هى قوله يوم شرع الشريعه

العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا -X إلى قوله X- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» البقره:- ٣٩.

و هذا هو الذى يريده بقوله فى مقام بيان سبب خسران المكذبين: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ «و هم المكذبون حقت عليهم كلمه العذاب فهم» لا يُؤْمِنُونَ» و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته فى الدنيا و الآخره، و إذ حق عليهم أنهم لا- يؤمنون فلا- سبيل لهم إلى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه «حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

و قد كرر الله سبحانه فى كلامه هذا القول و استتباعه للخسران و عدم الإيمان كقوله: «لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» يس:- ٧، و قوله: «لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ» يس:- ٧٠ أى بتكذيبهم بالآيات المستتبع لعدم إيمانهم فخسرانهم، و قوله: «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» حم السجده:- ٢٥ إلى غير ذلك.

و قد ظهر من الآيات أولا أن العناد مع الحق و التكذيب بآيات الله يحق كلمه العذاب الخالد على الإنسان.

و ثانيا: أن رأس مال سعادته الحياه للإنسان هو الإيمان.

و ثالثا: أن كل إنسان فهو مؤمن لا محاله إما إيمانا اختياريا مقبولا يسوقه إلى سعادته الحياه الدنيا و الآخره، و إما إيمانا اضطراريا غير مقبول حيشما يرى العذاب الأليم.

قوله تعالى: «فَلَوْ لَا كَانَتْ قُوَّةُ أَمْنٍ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنَسُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ» إلخ، ظاهر السياق أن لو لا للتخصيص، و أن المراد بقوله: «إِيمَانُهَا» الإيماني الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده: «فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا» و لوقوع التخصيص على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفي فاستقام الاستثناء الذى فى قوله: «إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنَسُ».

و المعنى: هلا كانت قريه- من هذه القرى التى جاءتهم رسلنا فكذبوهم-

آمنت قبل نزول العذاب إيمانا اختياريا فنفعها إيمانها. لا و لم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه إلى حين آجالهم العاديه الطبيعیه. و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

و ذكر بعضهم أن المعنى لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قريه بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلا كانت القرى كلها هكذا.

و فيه أنه في نفسه معنى لا بأس فيه إلا أن الآيه بلفظها لا تنطبق عليه بما فيه من الخصوصيات و هو ظاهر.

و ذكر بعض آخر: أن المعنى لم يكن معهودا من حال قريه من القرى أن يكفر ثم يؤمن فينفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم العذاب و متعناهم.

و الإشكال عليه كالإشكال على سابقه.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا» أي لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه في ذلك إلى الله سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان، و الإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك في صوره الاستفهام الإنكاري: «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» أي بعد ما بينا أن أمر المشيه إلى الله و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة لم يبق لك إلا أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان، و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذي هذا نعتة.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» لما ذكر في الآيه السابقه أن الأمر إلى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعا لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآيه في بيان ذلك ما محصله أن الملك-بالكسر-الله فله أصاله التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات.

و الإيمان بالله عن اختيار و الاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج في تحقيقه إلى سبب يخصه، و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكن الله سبحانه يجعل الرجس و الضلال على أهل العناد و الجحود لم يأذن في إيمانهم، و لا رجاء في سعادتهم.

و لو أنه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أولئك المكذبين فقوله:

« وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » حكم عام حقيقى ينيط تملك النفوس للإيمان إلى إذن الله، و قوله: « وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ إِخًا، يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

و قد أريد في الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك و الريب بمعنى أنه هو المصدق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان، و قد عرف في قوله تعالى :

« وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ: « الأنعام: - ١٢٥.

و قد أريد أيضا بقوله: « الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقت عليه كلمه العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: « وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ: « التوبه: - ٩٣.

قوله تعالى: « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ » أى من المخلوقات المختلفه المتشتمه التى كل واحد منها آيه من آيات الله تعالى تدعو إلى الإيمان، و قوله:

« وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » ظاهره أن « مَا » استفهاميه و الجملة مسوقه بداعى الإنكار و إظهار الأسف كقول الطبيب: بما ذا أعالج الموت؟ أى أنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا: « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ » إله، لكن أى تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم و هم لا يؤمنون أى عازمون مجتمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذى على قلوبهم و ربما قيل: إن ما نافية.

قوله تعالى: « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا - مَثَلِ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ » تفریع على ما فى الآيه السابقه من قوله: « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم تغن الآيات و النذر عنهم شيئا و هم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلا مثل أيام

الذين خلوا من قبلهم، وإنما يحبسون نفوسهم لآيه العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضى عليهم لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

ولذا أمر النبي ص أن يبلغهم ذلك بقوله: «قُلْ فَأَنْتَظِرُوا» أى مثل أيام الذين خلوا من قبلكم يعنى يوم العذاب الذى يفصل بينى وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ».

وقد تبين بما مر أن الاستفهام فى الآيه إنكارى.

قوله تعالى: «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا» الجملة تنمى صدر الآيه السابقه و قوله: «قُلْ فَأَنْتَظِرُوا» إلخ، جملة معترضه و النظم الأصلى بحسب المعنى «فَهَوْلُ يَنْتَظِرُونَ» أى قومك هؤلاء «إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم الذين كانت تحق عليهم كلمة العذاب فرسل إليهم آيه العذاب «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا».

و إنما اعترض بقوله: «قُلْ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذى يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، و هو يتضمن انتظار النبى ص للقضاء بينه وبينهم، و أما تنجيته و تنجيته المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبى ص و المؤمنون لا- هو وحده و لا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العذاب و هو مع ذلك لا يتعلق به غرض فى المقام الذى سيق فيه الكلام لإندار المشركين لا لتبشير النبى ص و المؤمنين فافهم ذلك.

و أما قوله: «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» فمعناه كما كنا ننجى الرسل و الذين آمنوا فى الأمم السابقه عند نزول العذاب كذلك ننجى المؤمنين بك من هذه الأمة حق علينا ذلك حقا، فقوله: «حَقًّا عَلَيْنَا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف، و اللام فى «الْمُؤْمِنِينَ» للعهد و المراد به مؤمنوا هذه الأمة، و هذا هو الوعد الجميل للنبى ص و المؤمنين من هذه الأمة بالإنجاء.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» أن فيه تلويحاً إلى أن النبى ص لا- يدرك هذا القضاء، و إنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر

معهم النبي ص مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى في كلامه: «فَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» أو ما فى معناه.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى، عن محمد بن سعيد الأسدى أن موسى بن محمد بن الرضا أخبره أن يحيى بن أكرم كتب إليه يسأله عن مسائل: "أخبرنى عن قول الله تبارك و تعالى:

«فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» من المخاطب بالآيه؟ فإن كان المخاطب فيها النبي - فقد شك فيما أنزل الله، وإن كان المخاطب بها غيره فعلى غيره إذا نزل الكتاب -.

قال موسى: فسألت أخى عن ذلك. قال: فأما قوله: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» فإن المخاطب بذلك رسول الله ص - ولم يكن فى شك مما أنزل الله، ولكن قالت الجهله: كيف لم يبعث إلينا نبيا من الملائكة؟ أنه لم يفرق بينه وبين غيره فى الاستغناء - فى المأكل والمشرب والمشى فى الأسواق - فأوحى الله إلى نبيه ص: فاسأل الذين يقرءون الكتاب - من قبلك بمحضر الجهله هل بعث الله رسولا من قبلك - إلا وهو يأكل الطعام ويشرب ويمشى فى الأسواق؟ وللك بهم أسوه.

و إنما قال: فإن كنت فى شك، ولم يكن و لكن ليتبعهم - كما قال له: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ - ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»، و لو قال: تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله عليكم - لم يكونوا يجيئون للمباهله، و قد عرف أن نبيه مؤد عنه رسالته - و ما هو من الكاذبين، كذلك عرف النبي ص - أنه صادق فيما يقول - و لكن أحب أن ينصف من نفسه:

أقول: و رواه الصدوق فى المعانى، بإسناده عن موسى بن محمد بن على

، و هو

ص: ١٢٩

يرجع إلى ما قدمناه، وقد ورد في بعض الروايات أن الآيه نزلت ليله المعراج فأمره الله أن يسأل أرواح الأنبياء عن ذلك، وهم الذين أرادهم بقوله: «الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» وروى الوجه أيضا عن الزهري لكن في انطباقه على لفظ الآيه خفاء.

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن قتاده في الآيه قال " ذكر لنا أن رسول الله ص قال: لا أشك و لا أسأل.

و في تفسير العياشي، عن معمر قال: قال أبو الحسن الرضا(ع): إن يونس أمره الله بما أمره فأعلم قومه - فأظلمهم العذاب ففرقوا بينهم و بين أولادهم - و بين البهائم و أولادها ثم عجوا إلى الله و ضجوا - فكف الله العذاب عنهم. الحديث.

أقول: و سيأتي إن شاء الله قصه يونس و قومه في ذيل بعض الآيات المتعرضه لتفصيل قصته(ع).

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و اللالكائي في السنه عن علي بن أبي طالب قال: إن الحذر لا يرد القدر، و إن الدعاء يرد القدر، و ذلك في كتاب الله:

«إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا - كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ» الآيه:.

أقول: و روى ما في معناه عن ابن النجار عن عائشه عن النبي ص .

و في الكافي، و البصائر، مسندا عن أبي بصير عن أبي عبد الله(ع) قال:

الرجس هو الشك و لا نشك في ديننا أبدا.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٩]

إشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

الآيات، ختام السوره تفرغ المحصل من بياناتها فتشير إجمالاً إلى التوحيد و المعاد و النبوه، و تأمر باتباع القرآن و الصبر فى انتظار حكم الله بينه و بين أمته.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي» إلخ، قد تقدم غير مره أن الدين هو السنه المعمول بها فى الحياه لنيل سعادتها و فيه معنى الطاعه كما فى قوله تعالى: «وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ» النساء: -١٤٦ و ربما استعمل بمعنى الجزاء.

و قوله: «إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي» أى فى طريقتي التى أسلكها و أثبت عليها و شك الإنسان فى دين غيره و طريقته المعموله له إنما يكون فى ثباته عليه هل يستقر عليه و يستقيم؟ و قد كان المشركون يطمعون فى دينه (ص) و ربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته إلى التوحيد و رفض الشرك بالآلهه.

فالمعنى: إن كنتم تشكون فيما أدين به و أدعو إليه هل أستقيم عليه؟ أو شككتم فى دينى ما هو؟ و لم تحصلوا الأصل الذى يبتنى عليه فإنى أصرح لكم القول فيه

و أبينه لكم و هو أنى لا أعبد آلهمكم و أعبد الله وحده.

و قد أخذ فى قوله: «و لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» له تعالى وصف توفيههم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمتهم الحاجة إليه فى دفع الضرر و جلب النفع، و التوفى أمر لا يشكون أنه سيصيبهم و أنه الله وحده فمساس الحاجة إلى الأمن من ضرره يوجب عباده الله سبحانه.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون فى الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات.

السابقة وعدتهم العذاب وعدا قطعيا، و وفاه المشركين ميعاد عذابهم، و يؤيد ذلك اتباع قوله: «و لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» بقوله: «أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذى ذكره الله فى الآيتين السابقتين على هذه الآيه: «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» - إلى قوله نُجِ الْمُؤْمِنِينَ .»

و المعنى: فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلهمكم و لكن أعبد الله الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عباده الآلهه.

قوله تعالى: «وَأَنْ أَمِّمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» عطف على موضع قوله:

«وَأَمَرْتُ أَنْ» إلخ، فإنه فى معنى و كن من المؤمنين، و قد مر الكلام فى معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير مره.

قوله تعالى: «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ» نهى بعد نهى عن الشرك، و بيان أن الشرك يدخل الإنسان فى زمره الظالمين فيحق عليه ما أوعد الله به الظالمين فى كلامه.

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء: «مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ» و حين ذكر العبادة: «الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فإن العبادة بالطبع يعطى للمعبود شعورا و عقلا- فناسب أن يعبر عنه بنحو «الَّذِينَ» المستعمل فى ذوى العلم و العقل، و الدعاء و إن كان كذلك لمساوقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضر، و ربما توهم أن ذوى العلم و العقل يصح أن تنفع و تضر، عبر بلفظه «مَا» ليلوح إلى أنها جماد لا يتخيل فى حقهم إرادته نفع أو ضرر.

و فى التعبير نفسه أعنى قوله: «مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» إعطاء الحجه على النهى عن الدعاء.

قوله تعالى: «إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» إلخ، الجملة حالیه و هى تتمه البيان فى الآيه السابقه، و المعنى: و لا تدع من دون الله ما لا- نفع لك عنده و لا ضرر، و الحال أن ما مسك الله به من ضر لا يكشفه غيره و ما أراذك به من خير لا يردده غيره فهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عبادہ بمشيئته و إرادته، و هو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عبادہ و يرحمهم، و اتصافه بهذه الصفات الكريمة و كون غيره صفر الكف منها يقتضى تخصيص العبادہ و الدعوه به.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ» و هو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوه الحقه، و قوله: «فَمَنْ اهْتَدَى» إلى آخر الآيه، إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيره بيان حقيقه هى أن الحق -و قد جاءهم- من حكمه أن من اهتدى إليه فإنما يهتدى و نفعه عائد إليه، و من ضل عنه فإنما يضل و ضرره على نفسه فلهم أن يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع أو ضرر، و ليس هو (ص) و كيلا- لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآيه كناية عن وجوب اهتدائهم إلى الحق لأن فيه نفعهم.

قوله تعالى: «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» أمر باتباع ما يوحى إليه و الصبر على ما يصيبه فى جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن، و وعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه و بين القوم، و لا يحكم إلا بما فيه قره عينه فالآيه تشتمل على أمره بالاستقامه فى الدعوه و تسليته فيما يصيبه، و وعده بأن العاقبه الحسنی له.

و قد اختتمت الآيه بحكمه تعالى، و هو الذى عليه يعتمد معظم آيات السوره فى بيانها. و الله أعلم.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَ أَنْ إِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

(بيان)

السوره كما يظهر من مفتحتها و مختتمها و السياق الذى يجرى عليه آياتها تبين غرض الآيات القرآنيه على كثرتها و تشتتها، و تصف المحصل من مقاصدها على اختلافها و الملخص من مضامينها.

فتذكر أنها على احتوائها معارف الدين المختلفه من أصول المعارف الإلهيه و الأخلاق الكريمه الإنسانيه، و الأحكام الشرعيه الراجعه إلى كليات العبادات و المعاملات و السياسات و الولايات ثم وصف عامه الخليقه كالعرش و الكرسي و اللوح و القلم و السماء و الأرض و الملائكه و الجن و الشياطين و النبات و الحيوان و الإنسان، و وصف بدء الخليقه و ما ستعود إليه من الفناء و الرجوع إلى الله سبحانه.

و هو يوم البعث بما يتقدمه من عالم القبر و هو البرزخ ثم القيام لرب العالمين و الحشر و الجمع و السؤال و الحساب و الوزن و شهاده الأَشهاد ثم فصل القضاء ثم الجنة أو النار بما فيهما من الدرجات و الدرجات.

ثم وصف الرابطه التي بين خلقه الإنسان و بين عمله و ما بين عمله، و ما يستتبعه من سعادته أو شقاوته و نعمه أو نقمه و درجه أو دركه، و ما يتعلق بذلك من الوعد و الوعيد و الإنذار و التبشير بالموعظه و المجادله الحسنه و الحكمة.

فالآيات القرآنيه على احتوائها تفاصيل هذه المعارف الإلهيه و الحقائق الحقه تعتمد على حقيقه واحده هي الأصل و تلك فروعه، و هي الأساس الذي بنى عليه بنیان الدين و هو توحيدته تعالى توحيد الإسلام بأن يعتقد أنه تعالى هو رب كل شيء لا رب غيره و يسلم له من كل وجهه فيوفى له حق ربوبيته، و لا يخشع في قلب و لا يخضع في عمل إلا له جل أمره.

و هذا أصل يرجع إليه على إجماله جميع تفاصيل المعاني القرآنيه من معارفها و شرائعها بالتحليل، و هو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب.

فالسوره تبين ذلك بنحو الإجمال في هذه الآيات الأربع التي افتتحت بها ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمه الإنذار و التبشير بذكر ما لله من السنه الجاربه في عبادته، و إيراد أخبار الأمم الماضيه، و قصص أقوام نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و موسى (ع)، و ما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابته الدعوه الإلهيه و الإفساد في الأرض و الإسراف في الأمر، و وصف ما وعد الله به الذين آمنوا و عملوا الصالحات و ما أوعده الله به الذين كفروا و كذبوا بالآيات، و تبين في خلال ذلك أموراً من المعارف الإلهيه الراجعه إلى التوحيد و النبوه و المعاد.

و مما تقدم يظهر ما في قول بعضهم عند ما ذكر غرض هذه السوره: أنها في معنى سوره يونس و موضوعها، و هو أصول عقائد الإسلام في الإلهيات و النبوات و البعث و الجزاء و عمل الصالحات و قد فصل فيها ما أجمل في سوره يونس من قصص الرسل (ع). انتهى.

و قد عرفت أن السورتين مسوقتان لغرضين مختلفين لا يرجع أحدهما إلى الآخر

البتة فسوره يونس تبين أن السنه الإلهيه جاريه على القضاء بين الرسل و بين أممهم المكذبين لهم، ثم توعد هذه الأمه بما جرى مثله على الذين من قبلهم، و سوره هود تبين أن المعارف القرآنيه ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أن التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية و الفرعية.

و السوره-على ما تشهد به آياتها بمضامينها و الاتصال الظاهر بينها-مكيه نازله دفعه واحده، و قد روى عن بعضهم استثناء قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ»: الآية-١٢ فذكر أنها مدنيه.

و استثنى بعضهم قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ»: الآية-١٧، و بعضهم قوله تعالى: «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ»: الآية-١١٤، و لا دليل على شيء من ذلك من طريق اللفظ، و ظاهر اتصالها أنها جميعا مكيه.

قوله تعالى: «الرِّكَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» المقابله بين الإحكام و التفصيل الذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض، و التفرقه بين الأمور المندمجه كل منها في آخر تدل على أن المراد بالإحكام ربط بعض الشيء ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه إلى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئا واحدا بسيطا غير ذي أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الكتاب إذا اتصف بالإحكام و التفصيل بهذا المعنى الذي مر فإنما يتصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى و المضمون لا- من جهة ألفاظه أو غير ذلك، و أن حال المعاني في الإحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الأعيان فالمعاني المتكثره إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع و هو بعينه على إجماله هذه التفاصيل، و هي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه.

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمه أولا ثم مفصله ثانيا معناه أن الآيات الكريمة القرآنيه على اختلاف مضامينها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط، و غرض فارد أصلي لا- تكثر فيه و لا تشتت بحيث لا تروم آيه من الآيات الكريمة مقصدا من المقاصد و لا ترمى إلى هدف إلا و الغرض الأصلي هو الروح

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرق أبعاضه إلا غرض واحد متوحد إذا فصل كان فى مورد أصلا دينيا و فى آخر أمرا خلقيا و فى ثالث حكما شرعيا و هكذا كلما تنزل من الأصول إلى فروعها و من الفروع إلى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، و لا يخطى غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال، و هى بتحليلها و إرجاعها إلى الروح السارى فيها الحاكم على أجسادها تعود إلى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحه عزه و كبريائه مثلا فى مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى و صفاته العليا، و فى مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا و التسليم و الشجاعه و العفه و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيله، و فى مقام الأعمال و الأفعال الإتيان بالأعمال الصالحه و الورع عن محارم الله.

و إن شئت فقل: إن التوحيد الخالص يوجب فى كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما بينه الكتاب الإلهى من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاءها لا تتم من دون توحيد خالص.

فقد تبين أن الآيه فى مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنيه إلى أصل واحد هو بحيث إذا ركب فى كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصيه ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنيه، و بذلك يظهر:

أولاً: أن قوله: «كِتَابٌ» خبر لمبتدأ محذوف و التقدير: هذا كتاب، و المراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسم إلى السور و الآيات، و لا ينافى ذلك ما ربما يذكر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن بما هو فى اللوح فإن هذا الكتاب المقرو متحد مع ما فى اللوح اتحاد التنزيل مع التأويل.

و ثانياً: أن لفظه «تَمَّ» فى قوله: «تَمَّ فَصَّلْتُ» إلخ، لإفاده التراخى بحسب ترتيب الكلام دون التراخى الزمانى إذ لا معنى للتقدم و التأخر الزمانى بين المعانى المختلفه بحسب الأصلية و الفرعية أو بالإجمال و التفصيل.

و يظهر أيضا ما فى بعض ما ذكره أرباب التفاسير فى معنى الآيه كقول بعضهم:

إن معناها أحكمت آياته فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب و الشرائع ثم فصلت بيان الحلال و الحرام و سائر الأحكام.

و فيه: أن الواجب على هذا المعنى أن يقيد عدم النسخ بعدم النسخ بكتاب غير القرآن ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنيه نفسها مما لا ينبغى الارتياح فيه. و التقييد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآيه.

و كقول بعضهم: إن المراد أحكمت آياته بالأمر و النهى ثم فصلت بالوعد و الوعيد و الثواب و العقاب. و فيه أنه تحكم لا دليل عليه أصلا.

و كقول بعضهم: إن المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتى صار معجزا، و تفصيلها بالشرح و البيان. و الكلام فى هذا الوجه كسابقه.

و كقول بعضهم: المراد بإحكام آياته جعلها محكمه متقنه لا- خلل فيها و لا باطل، و المراد بتفصيلها جعلها متتابعه بعضها إثر بعض. و فيه: أن التفصيل بهذا المعنى غير معهود لغه إلا أن يفسر بمعنى التفرقه و التكتير و يرجع حينئذ إلى ما قدمناه من المعنى.

و كقول بعضهم: إن المراد أحكمت آياته جملة ثم فرقت فى الإنزال آيه بعد آيه ليكون المكلف أمكن من النظر و التأمل.

و فيه: أن الأخرى بهذا الوجه أن يذكر فى مثل قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ» الدخان: -٣، و قوله: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا» إسرءاء: -١٠٦ و ما فى هذا المعنى من الآيات مما يدل على أن للقرآن مرتبه عند الله هى أعلى من سطح الأفهام ثم نزل إلى مرتبه تقبل التفهم و التفقه رعايه لحال الأفهام العاديه كما يشير إليه أيضا قوله: «وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ» الزخرف: -٤.

و أما آيتنا التى نحن فيها كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ «إلخ، فقد علق

فيها الإحكام و التفصيل معا على الآيات، و ليس ذلك إلا من جهة معانيها فتفيد أن الإحكام و التفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثرة فلها جهة وحده و بساطه و جهة كثره و تركب، و ينطبق على ما قدمناه من المعنى لا على ما ذكره الراجع إلى مسأله التأويل و التنزيل فافهم ذلك.

و كقول بعضهم: إن المراد بالإحكام و التفصيل إجمال بعض الآيات و تبين البعض الآخر، و قد مثل لذلك بقوله تعالى في هذه السوره: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْمَأْعَمِيِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» الآية:- ٢٤، فإنه مجمل محكم يتبين بما ورد فيها من قصه نوح و هود و صالح. و هكذا.

و فيه: أن ظاهر الآيه أن الإحكام و التفصيل متحدان من حيث المورد بمعنى أن الآيات التي ورد عليها الإحكام بعينها هي التي ورد عليها التفصيل لا أن الإحكام وصف لبعض آياته و التفصيل وصف لبعضها الآخر كما هو لازم ما ذكره.

و قوله تعالى: «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» الحكيم من أسمائه الحسنی الفعلية يدل على إتقان الصنع، و كذا الخبير من أسمائه الحسنی يدل على علمه بجزئيات أحوال الأمور الكائنه و مصالحها، و إسناد إحكام الآيات و تفصيلها إلى كونه تعالى حكيما خيرا لما بينهما من النسبه.

قوله تعالى: «الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّدِيرٍ وَبَشِيرٍ وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» الآية، و ما بعدها تفسير لمضمون الآيه الأولى: «كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» و إذ كانت الآيه تتضمن أنه كتاب من الله إلى... له آيات محكمه ثم مفصله كانت العناية في تفسيرها متوجه إلى إيضاح هذه الجهات.

و من المعلوم أن هذا الكتاب الذي أنزله الله تعالى من عنده إلى رسوله ليتلوه على الناس و يبلغهم له وجه خطاب إلى الرسول ص و وجه خطاب إلى الناس بوساطته أما وجه خطابه إلى الرسول ص و هو الذي يتلقاه الرسول من وحى الله فهو أن أنذر و بشر و ادع الناس إلى كذا و كذا، و هذا الوجه هو الذي عنى به في أول سوره يونس حيث قال تعالى: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ:» يونس:-٢.

و أما وجه خطابه إلى الناس و هو الذى يتلقاه الناس من الرسول ص فهو ما يلقيه إلى الناس من المعنى فى ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أنى أدعوكم إلى الله دعوه نذير و بشير، و هذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله:

« أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » إلخ.

فالآيه من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول إياهم بتلاوه كتاب الله عليهم، و ليس كلاما للرسول بطريق الحكايه و لا بتقدير القول و لا من الالتفات فى شىء، و لا أن التقدير: أمركم بأن لا تعبدوا أو: فصلت آياته لأن لا تعبدوا إلا الله» بأن يكون قوله:

« أَلَّا تَعْبُدُوا » نفيا لا نهيا فإن قوله بعد: « وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » معطوف على قوله: « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ »، و هو يشهد بأن « أَلَّا تَعْبُدُوا » نهى لا نفى.

على أن التقدير لا يصار إليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقوله: « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » دعوه إلى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير الله من الآلهه المتخذة شركاء لله، و قصر العباده فيه تعالى، و قوله:

« وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أمر بطلب المغفره من الله و قد اتخذوه ربا لهم برفض عباده غيره ثم أمر بالتوبه و الرجوع إليه بالأعمال الصالحه و يتحصل من الجميع سلوك الطريق الطبيعى الموصل إلى القرب و الزلفى منه تعالى، و هو رفض الآلهه دون الله ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع إليه تعالى بالأعمال الصالحه.

و قد جىء بأن التفسيريه ثانيا فى قوله: « وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا » إلخ، لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير إليهما قوله: « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا، و قوله: « وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الأولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا

عليه أورد النذر و البشاره بعد ذكر التوحيد، و الوعد الجميل الذى يتضمنه قوله:

«يُمَتِّعُكُمْ» إلخ، بعد ذكر الاستغفار و التوبه فقال: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ» فبين به أن النذر و البشرى كائنين ما كانا يرجعان إلى التوحيد و يتعلقان به ثم قال: «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا» إلخ فإن الآثار القيمه و النتائج الحسنه المطلوبه إنما تترتب على الشىء بعد ما تم فى نفسه و كمل بصفاته و فروعها و نتائجها، و التوحيد و إن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها و يتفرع عليها فروعها و أغصانها، «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فى الآيه الإيمان كما فى قوله تعالى: «فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»: المؤمن:- ٧- فيستقيم الجمع بين الاستغفار و التوبه مع عطف التوبه عليه بـثم، و المعنى اتركوا عباده الأصنام بعد هذا و اطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصيه ثم آمنوا بربكم.

و قيل: إن المعنى اطلبوا المغفره و اجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليه بالتوبه و هو غير جيد و من التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى: استغفروا من ذنوبكم الماضيه ثم توبوا إليه كلما أذنبتم فى المستقبل و كذا قول آخر: إن «ثُمَّ» فى الآيه بمعنى الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» الأجل المسمى هو الوقت الذى ينتهى إليه الحياه لا تتخطاه البتة، فالمراد هو التمتع فى الحياه الدنيا بل بالحياه الدنيا لأن الله سبحانه سماها فى مواضع من كلامه متاعاً، فالمتاع الحسن إلى أجل مسمى ليس إلا الحياه الدنيا الحسنه.

فيقول معنى قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا» على تقدير كون «مَتَاعًا» مفعولاً- مطلقاً إلى نحو من قولنا: يمتعكم تمتيعاً حسناً بالحياه الحسنه الدنيويه «و متاع الحياه إنما يكون حسناً إذا ساق الإنسان إلى سعادته الممكنه له، و هداه إلى أمانى الإنسانيه من التمتع بنعم الدنيا فى سعه و أمن و رفاهيه و عزه و شرافه فهذه الحياه الحسنه تقابل

المعيشه الضنك التي يشير إليها في قوله: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» طه:- ١٢٤.

و لا حسن لمتاع الحياه الدنيا و لا سعه في المعيشه لمن أعرض عن ذكر الله و لم يؤمن بربه فإن البعض من الناس و إن أمكن أن يؤتى سعه من المال و علوا في الأرض ثم يحسب أن لا-أمنه من أمانى الإنسانيه إلا و قد أوتيتها لكنه في غفله عن ابتهاج من تحقق بحقيقه الإيمان بالله و دخل في ولايه الله فآتاه الله الحياه الطيبه الإنسانيه، و آمنه من ذله الحياه الحيوانيه التي لا حكومه فيها إلا للحرص و الشره و الافتراس و التكلب و الجهاله، فالنفس الحره الإنسانيه تدم من الحياه ما يستأثره النفوس الرذيله الخسيسه و إن استتبع الذله و المسكنه و كل شناعه.

فالحياه الحسنه لمجتمع صالح حر أن يشتركوا في التمتع من مزايا النعم الأرضيه التي خلقها الله لهم اشتراكا عن تراحم بينهم و تعاون و تعاضد من غير تعد و تراحم بحيث يطلب كل خير نفسه و نفعها في خير مجتمعه و نفعه من غير أن يعبد نفسه و يستعبد الآخرين.

و بالجمله التمتع بالحياه الحسنه إلى أجل مسمى هو تمتع الفرد بالحياه على ما تستحسنه الفطره الإنسانيه و هو الاعتدال في التمتع الماديه في ضوء العلم النافع و العمل الصالح هذا إذا نسب إلى الفرد، و أما إذا نسب إلى المجتمع فهو الانتفاع العام من نعم الحياه الأرضيه الطيبه بتخصيص ما يناله الأفراد بكدهم و سعيهم بالمجتمع الملتئم الأجزاء من غير تضاد بين أبعاضه أو تناقض.

و قوله: «و يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» الفضل هو الزيادة و إذ نسب الفضل في قوله: «كُلُّ ذِي فَضْلٍ» إلى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينه على كون الضمير في «فَضْلَهُ» راجعا إلى ذى الفضل دون اسم الجلاله كما احتمله بعضهم و الفضل و الزيادة من المعانى النسبيه التي إنما تتحقق بقياس شىء إلى شىء و إضافته إليه.

فالمعنى: و يعطى كل من زاد على غيره بشىء من صفاته و أعماله و ما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر و خصوصه موهبه السعاده تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه أو يغصب فضله أو يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينيه و إن كانت مدنيه

راقبه فلم تزل البشرية منذ سكنت الأرض وكونت أنواع المجتمعات الهمجية أو الراقية أو ما هي أرقى تنقسم إلى طائفتين مستعليه مستكبره قاهره، و مستذله مستعبده مقهوره، و ليس يعدل هذا الإفراط و التفريط و لا يسوى هذا الاختلاف إلا دين التوحيد.

فدين التوحيد هو السنه الوحيده التى تقصر المولويه و السياهه فى الله سبحانه و تسوى بين القوى و الضعيف و المتقدم و المتأخر و الكبير و الصغير و الأبيض و الأسود و الرجل و المرأه و تنادى بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾: الحجرات: -١٣، و قوله: ﴿أَنْتَىٰ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: آل عمران: -١٩٥.

ثم إن وقوع قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الحاكى عن الاعتناء بفضل كل ذى فضل بعد قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الدال على تمتيع الجميع مشعر:

أولاً: بأن المراد بالجملة الأولى المتاع العام المشترك بين أفراد المجتمع و بعبارة أخرى حياه المجتمع العامه الحسنه، و بالجملة الثانيه المزايا التى يؤتاها بعض الأفراد قبال ما يختصون به من الفضل.

و ثانياً: أن الجملة الأولى تشير إلى التمتع بمتاع الحياه الدنيا و الثانيه إلى إيتاء ثواب الآخره قبال الأعمال الصالحه القائمه بالفرد أو إيتاء كل ذى فضل فضله فى الدنيا و الآخره معا بتخصيص كل من جاء بزياده فى جهه دنيويه بما تقتضيه زيادته من المزيه فى جهات الحياه بإقامه كل ذى فضيله فى صفه أو عمل مقامه الذى تقتضيه صفته أو عمله و وضعه موضعه من غير أن يسوى بين الفاضل و المفضول فى دينهما أو تراح الخصوصيات و تبطل الدرجات و المنازل بين الأعمال و المساعى الاجتماعيه فلا يتفاوت حال الناشط فى عمله و الكسلان، و لا- يختلف أمر المجتهد فى العمل الدقيق المهم فى بابه و اللاعب بالعمل الحقيق الهين و هكذا.

و قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أى فإن تتولوا

إلخ بالخطاب، والدليل عليه قوله: «عَلَيْكُمْ» و ما تقدم فى الآيتين من الخطابات المتعدده فلا يصغى إلى قول من يأخذ قوله: «تَوَلَّوْا» جمعا مذكرا غائبا من الفعل الماضى فإنه ظاهر الفساد.

وقد أغرب بعض المفسرين حيث قال فى قوله تعالى: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَبًا نَأَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» و الآيه تتضمن نجاه هذه الأمه المحمديه من عذاب الاستئصال كما بيناه فى تفسير سوره يونس أيضا انتهى، و لست أدرى كيف استفاد من الآيه ما ذكره و لعله بنى ذلك على أن الآيه اشترطت للأمه الحياه الحسنه من غير استئصال إن آمنوا بالله و آياته ثم إنهم آمنوا و انتشر الإسلام فى الدنيا، لكن من المعلوم أن الرسول ص مرسل إلى أهل الدنيا عامه و لم يؤمن به عامتهم، و لا- أن المؤمنين به أخلصوا جميعا إيمانهم من النفاق و سرى الإيمان من ظاهرهم إلى باطنهم و من لسانهم إلى جنانهم.

و لو كان مجرد إيمان بعض الأمه مع كفر الآخرين كافيا فى تحقق الشرط و ارتفاع عذاب الاستئصال لكفى فى أمه نوح و هود(ع) و غيرهما و قد دعوا أممهم إلى ما دعا إليه محمد ص، و اشترطوا لهم مثل ما اشترط لأمه ثم عمهم الله بعذاب الاستئصال و كان حقا عليه نصر المؤمنين.

وقد حكى الله سبحانه عن نوح قوله لقومه فى ضمن دعوته: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ يُجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَ يُجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا» نوح:- ١٢ و حكى عن هود قوله: «وَ إِذِ الْقَوْمِ اسْتَعْجَفُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» هود:- ٥٢، و حكى جملة عن نوح و هود و صالح و الذين من بعدهم قولهم: «أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» إبراهيم:- ١٠.

و أما قوله: «وقد بيناه فى سوره يونس أيضا» فلم يأت هناك إلا بدعوى خاليه و قد قدمنا هناك أن آيات سوره يونس صريحه فى أن الله سيقضى بين هذه الأمه بين نبيها(ص) فيعذبهم و ينجى المؤمنين سنه الله التى قد خلت فى عباده

و لن تجد لسنه الله تبديلا.

قوله تعالى: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في مقام التعليل لما يفيدُه قوله: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» من المعاد، و ذيل الآيه، مسوق لإزاحه ما يمكن أن يختلج في صدورهم من استبعاد البعث بعد عروض الموت، و المعنى و إن تتولوا عن إخلاص العباده له و رفض الشركاء فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير سيستقبلكم فتواجهونه و هو يوم البعث بعد الموت لأن مرجعكم إلى الله و الله على كل شىء قدير فلا يعجز عن إحيائكم بعد الإماتة فإياكم أن تستبعدوا ذلك.

فآليه قرينه على أن المراد باليوم الكبير يوم القيامة،

و روى القمى فى تفسيره، مضمرا: " أن المراد بعذاب يوم كبير الدخان و الصيحه.

[سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦]

اشاره

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَ يَتَخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ لِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

جمل و فصول من أعمال المشركين و أقوالهم فى الرد على نبوه النبى ص و ما نزل عليه من الكتاب تذكرها الآيات و تجيب عنها بإلقاء الحجج كاستخفائهم من الله،

ص: ١٤٤

و قولهم: ما يحبس العذاب عنا، و قولهم: لو لا- أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، و قولهم: إنه افترى القرآن. و فيها بعض معارف آخر.

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» إلى آخر الآيه، ثنى الشيء يشناه ثنيا كفتح يفتح فتحا أى عطفه و طواه و رد بعضه على بعض قال فى المجمع: أصل الثنى العطف تقول: ثنيتك عن كذا أى عطفته، و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى، و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح، و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى. و قال أيضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى و تخفى بمعنى، و كذلك استغشى و تغشى، انتهى.

فالمراد بقوله: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» أنهم يميلون بصدورهم إلى خلف و يطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب أى من استماعه حين تلاوته و هو كناية عن استخفائهم من النبى ص و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

و قوله: «أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ» إلخ، كأنهم كانوا يسترون رءوسهم أيضا بثيابهم عند استخفائهم بثنى الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفى عن استماع القرآن و الله يعلم سرهم و علانيتهم.

و قيل: إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء فى بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم، و هو أخفى ما يكون فيه الإنسان و أخلى أحواله، و المعنى: أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، و الله يعلم سرهم و علانيتهم فى أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم، و لا يخلو الوجه من ظهور.

هذا ما يفيد السياق فى معنى الآيه، و ربما ذكر لها معان أخر بعيدة من السياق منها قولهم: إن الضمير فى لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ «راجع إليه تعالى أو إلى النبى ص و منها قول بعضهم: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» أى يطوونها على الكفر، و قول آخرين:

أى يطوونها على عداوة النبى ص إلى غير ذلك من المعانى المذكوره و هى جميعا معان بعيدة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ إلى آخر الآيه، الدابه على ما فى كتب اللغه كل ما يدب و يتحرك، و يكشر استعماله فى النوع الخاص منه، و قرينه المقام تقتضى كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعه علمه تعالى، و لذلك عقب به قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ لِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

و هذا المعنى أعنى كون ذكر وجوب رزق كل دابه على الله لبيان سعه علمه لكل دابه فى جميع أحوالها يستوجب أن يكون قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا﴾ بمنزله عطف التفسير لقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فيعود المعنى إلى أن كل دابه من دواب الأرض على الله أن يرزقها- و لن تبقى بغير رزق- فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت فى مستقر لا تخرج منه كالحوث فى الماء و كالصدف فيما وقعت و استقرت فيه من الأرض رزقها هناك و إن كانت خارجه من مستقرها و هى فى مستودع ستركه إلى مستقرها كالطير فى الهواء أو كالمسافر الغارب عن وطنه أو كالجنين فى الرحم رزقها هناك و بالجمله هو تعالى عالم بحال كل دابه فى الأرض و كيف لا و عليه تعالى رزقها و لا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حل فيه من محل دائم أو معجل و مستقر أو مستودع.

و من هنا يظهر أن المراد بالمستقر و المستودع المحل الذى تستقر فيه الدابه ما دامت دابه تدب فى الأرض و تعيش عيشه دنيويه و المحل الذى تحل فيه ثم تودعه و تفارقه، و أما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالمستقر و المستودع أماكنها فى الحياه و بعد الممات أو أن المراد بهما الأصلاب و الأرحام أو أن المراد بهما مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل و مودعها من المواد و المقار حين كانت بعد بالقوه فمعان بعيدة عن سياق الآيه اللهم إلا أن يجعل قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا﴾ كلاما مستأنفا بحياله غير مفسر لما قبله.

و قد تقدم فى قوله تعالى: ﴿وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ﴾ الأنعام- ٩٨ ما يناسب هذا المقام فليراجع إليه من شاء.

و أما قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى و قد

تكرر في القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصه به و أنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: «أَمَّنْ لِلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ:» الملك:- ٢١، وقال تعالى :

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ:» الذاريات:- ٥٨ وقال تعالى: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ:» الذاريات:- ٢٣.

ولا- ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره إذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره، و لذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال :

«كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ:» الأنعام:- ١٢، وقال: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ:» الروم:- ٤٧ إلى غير ذلك من الآيات.

و الاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده و إذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله، و إذ لا شريك له تعالى في إيجاده لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق.

و قد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آيه: ٥٩ و في سورة يونس آيه: ٦١ فليراجع.

قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات و الأرض على ما يظهر من كلامه تعالى و يفسره ما ورد في ذلك عن أهل العصمه (ع) موكول إلى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجده إن شاء الله تعالى.

و إجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: «سِتَّةِ أَيَّامٍ» و قوله: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات-بلفظ الجمع- و يقارنها بالأرض و يصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا فكل ما علاك و أظلك فهو سماء على ما قيل و العلو و السفلى من المعاني الإضافية.

فهى طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا و تحيط بها فإن الأرض

كرويه الشكل على ما يفيدته قوله تعالى: «يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا» الأعراف-٥٤.

و السماء الأولى هي التي تزينه مصابيح النجوم و الكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها أو هي فوقها و تترين بها كالسقف يتزين بالقناديل و المشاكي و أما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طِبَاقًا: «الملك: -٣، و قوله: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طِبَاقًا وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا:» نوح: -١٦ حيث يدل على مطابقه بعضها بعضا.

و قد ذكر الله سبحانه في صفه خلقها أنها كانت رتقاء ففتقها و متفرقه متلاشيه فجمعها و ركمها و أنها كانت دخانا فصيرها سماوات، قال تعالى: «أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ:» الأنبياء: -٣٠: «و قال ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انبِئَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا:» حم السجده-١٢ فأفاد أن خلق السماوات إنما تم في يومين، و اليوم مقدار معتد به من الزمان و ليس من الواجب أن يطابق اليوم في كل ظرف و وعاء يوم أرضنا الحاصل من دوره واحده من حركتها الوضعيه كما أن اليوم الواحد في القمر الذي لهذه الأرض يعدل تسعه و عشرين يوما و نصفا تقريبا من أيام الأرض و استعمال اليوم في البرهه من الزمان شائع في الكلام.

فقد خلق الله سبحانه السماوات السبع في برهتين من الزمان كما قال في الأرض :

«خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ -X إلى أن قال X- وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ:» حم السجده: -١٠ فأنبأ عن خلقها في يومين و هما عهدان و طوران و جعل الأقوات في أربعة أيام و هي الفصول الأربعة.

فالمتحصل من الآيات أولا: أن خلق السماوات و الأرض على ما هي عليه اليوم من الصفه و الشكل لم يكن عن عدم بحث بل هي مسبوقه الوجود بماده متشابهه

مر كومه مجتمعه ففصل بعض أجزائها عن بعض فجعلت أرضا فى برهتين من الزمان و قد كانت السماء دخانا ففصلت و قضيت سبع سماوات فى برهتين من الزمان.

و ثانيا: أن ما نراه من الأشياء الحيه إنما جعلت من الماء فماده الماء هى ماده الحياه.

و بما قدمنا يظهر معنى الآيه التى نحن فيها فقولها: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» المراد بخلقها جمع أجزائها و فصلها و فتقها من سائر ما يختلط بها من الماده المتشابهه المر كومه، و قد تم أصل الخلق و الرق فى السماوات فى يومين و فى الأرض أيضا فى يومين و يبقى من الستة الأيام يومان لغير ذلك.

و أما قوله: «وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» فهو حال و المعنى و كان عرشه يوم خلقهن على الماء و كون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقرا يومئذ على هذا الماء الذى هو ماده الحياه فعرش الملك مظهر ملكه، و استقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما أن استواءه على العرش احتواءه على الملك و أخذه فى تدبيره.

و قول بعضهم: إن المراد بالعرش البناء أخذنا من قوله تعالى: «مِمَّا يَعْرِشُونَ»: النحل: -٦٨ أى يبنون كلام بعيد عن الفهم.

قوله تعالى: «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» اللام للغايه و البلاء الامتحان و الاختبار، و قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» بيان للاختبار و الامتحان فى صورته الاستفهام و المراد أنه تعالى خلق السماوات و الأرض على ما خلق لغايه امتحانكم و تمييز المحسنين منكم من المسيئين.

و من المعلوم أن البلاء و الامتحان أمر مقصود لغيره و هو تمييز الجيد من الردى و الحسن من السيئ، و كذلك الحسنه و السيئه إنما يراد تمييزهما لأجل ما يترتب عليهما من الجزاء، و كذلك الجزاء إنما يراد لأجل ما فيه من إنجاز الوعد الحق و لذلك نجده تعالى يذكر كل واحد من هذه الأمور المترتبة غايه للخلقه فقال فى كون الابتلاء غايه للخلقه: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوكُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»: الكهف: -٧، و قال فى معنى التمييز و التمحيص: «لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ»: الأنفال: -٣٧،

وقال فى خصوص الجزاء: «وَ خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ»: الجاثية:- ٢٢
وقال فى كون الإعادة لإنجاز الوعد: «كَمَا يَدَّ اَنَا اَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عِدًّا عَلَيْنَا اِنَّآ كُنَّا فَاعِلِينَ»: الأنبياء:- ١٠٤ إلى غير ذلك من الآيات، وقال فى كون العباده غرضاً فى خلق الثقلين: «وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْاِنْسَ اِلَّا لِيُعْبُدُوْنَ»: الذاريات:- ٥٦.

و عد العمل الصالح أو الإنسان المحسن غايه للخلقه لا ينافى اشتمال الخلقه على غايات أخرى بعد ما كان الإنسان أحد تلك الغايات حقيقه لأين الوحده و الاتصال الحاكم على العالم يصحح كون كل واحد من أنواع الموجودات غايه للخلقه بما أنه محصول الارتباط و نتيجة الازدواج العام بين أجزائه فمن الجائز أن يخاطب كل نوع من أنواع الخليقه أنه المطلوب المقصود من خلق السماوات و الأرض بما أنها تؤدى إليه.

على أن الإنسان أكمل و أتقن المخلوقات الجسمانيه من السماوات و الأرض و ما فيهما صنعا و لئن نمت فى جانب العلم و العمل نماء حسنا كان أفضل ذاتا مما سواه و أرفع مقاما و أعلى درجه من غيره و إن كان بعض الخليقه كالسمااء أشد منه خلقا كما ذكره الله تعالى و من المعلوم أن كمال الصنع هو المقصود منه إذا اشتمل على ناقص و لذا كنا نعد مراحل وجود الإنسان المختلفه من المنويه و الجنينيه و الطفولييه و غيرها مقدمه لوجود الإنسان السوى الكامل و هكذا.

و بهذا البيان يظهر أن أفضل أفراد الإنسان- إن كان فيهم من هو أفضل مطلقا- غايه لخلق السماوات و الأرض، و لفظ الآيه أيضا لا يخلو عن إشاره أو دلالة على ذلك فإن قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» يفيد أن القصد إلى تمييز من هو أحسن عملا من غيره سواء كان ذلك الغير محسنا أو مسيئا فمن كان عمله أحسن من سائر الأفراد سواء كانوا محسنين و أعمالهم دون عمله أو مسيئين كان تمييزه منهم هو الغرض المقصود من الخلقه، و بذلك يستصح

ما ورد فى الحديث القدسى من خطابه تعالى لنبيه(ص):

«لولاك لما خلقت الأفلاك» فإنه(ص) أفضل الخلق.

و فى المجمع، قال الجبائى: و فى الآيه دلالة على أنه كان قبل خلق السماوات

و الأرض و الملائكة لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد حينئذ من حى مكلف، و قال على بن عيسى:

لا- يمتنع أن يكون فى الإخبار بذلك مصلحة للمكلفين فلا- يجب ما قاله الجبائى و هو الذى اختاره المرتضى قدس الله روحه. انتهى.

أقول: و ما ذكره مبنى على ما ذهب إليه المعتزلة: أن أفعال الله سبحانه معللة بالأغراض و تابعه للمصالح و جهات الحسن و لو كان ذلك بأن يخلق خلقا ليخبر بذلك المكلفين فيعتبروا به و يؤمنوا له فيتم بذلك مصلحة من مصالحهم، و قد تقدم فى أبحاثنا السابقة أن الله سبحانه لا- يحكم عليه و لا يؤثر فيه غيره سواء كان ذلك الغير مصلحة أو أى شىء آخر مفروض و أن غيره أى شىء فرض مخلوق له مدبر بأمره إن كان أمرا ذا واقعيه و وجود إن الحكم إلا الله و الله خالق كل شىء.

فجهات الحسن و المصلحة و هى التى تحكم علينا و تبعثنا نحو أفعالنا أمور خارجه عن أفعالنا مؤثره فىنا من جهة كوننا فاعلين نروم بها إلى سعادته الحياه، و أما هو سبحانه فإنه أجل من ذلك. و ذلك أن جهات الحسن و المصلحة هذه إنما هى قوانين عامه مأخوذه من نظام الكون و الروابط الدائره بين أجزاء الخلقه، و من الضرورى أن الكون و ما فيه من النظام الجارى فعله سبحانه، و من الممتنع جدا أن يتقدم المفهوم المنتزع على ما انتزع منه من الفعل ثم يتخطاه و لا يقنع حتى يتقدم على فاعله الموجد له.

و أما ما فى الآيه من تعليل خلق السماوات و الأرض بقوله: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الكثيره فى القرآن فإنما هو و أمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبه و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» الم السجده: ٧-، فهو سبحانه هو الخير لا شرفيه و هو الحسن لا قبح عنده و ما كان كذلك لم يصدر عنه شر و لا قبيح البتة.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى أو الذى أمر به و إن استقبحه العقل، و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه أو الذى نهى عنه

و إن استحسنة العقل و استصوبه فإن ذلك يباه أمثال قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»: الأعراف: -٢٨.

قوله تعالى: « وَ لئن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » لما كان قوله: « لَيَبْلُوكُمْ » إلخ، يشير إلى المعاد أشار إلى ما كان يواجه به الكفار ذكره (ص) للمعاد برمييه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحه و بلاغه النظم سحرا، كذلك كانوا يسمون ما يخبر به القرآن أو النبي ص من حقائق المعارف التي لا- يصدقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحرا، و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب الله و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر إلى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق المزوم و إرادته اللازم لكن لا- يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد: «قُلْ مَنْ يَبْدِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا- يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ»: المؤمنون: -٨٩.

قوله تعالى: « وَ لئن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّهُ مَعِدُودَهُ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ » إلى آخر الآيه. اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله: « لَيَقُولُنَّ » باللام و النون و المعنى: و أقسم لئن أخرجنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين: ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحل بنا.

و فى هذا إشاره أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ص ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و إن الله أخر ذلك تأخيرا رحمة لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم: « مَا يَحْبِسُهُ » و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ » إلخ.

و بهذا يتأيد أن السوره-سوره هود-نزلت بعد سوره يونس لمكان قوله تعالى فيها: « وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » إلى آخر الآيات.

و قوله: «إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ» الأمه الحين و الوقت كما فى قوله تعالى: «وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ:» يوسف:- ٤٥ أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالأمه الجماعه فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً و يمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم قال: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» المائده:- ٥٤، و قال :

«وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ -X إلى أن قال X- يَعْْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا:» النور:- ٥٥، و هذا وجه لا بأس به.

و قيل: إن المراد بالأمه الجماعه و هم قوم يأتى الله بهم بعد هؤلاء فيصرون على الكفر فيعذبهم بعذاب الاستئصال كما فعل بقوم نوح، أو هم قوم يأتون بعد هؤلاء فيصرون على معصيه الله فتقوم عليهم القيامة.

و الوجهان سخيضان لبنائهما على كون المعذبين غير هؤلاء المستهزئين من الكفار و ظاهر قوله تعالى: «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ» إلخ، إن المعذبين هم المستهزئون بقولهم: «مَا يَحْبِسُهُ».

و قوله: «أَلَا- يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» بمنزله الجواب عن قولهم: «مَا يَحْبِسُهُ» الواقع موقع الاستهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب، و محصله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسسه سبب فإننا كافرون غير عادلين عن الكفر و لا- تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

و بما تقدم يظهر أن هذا العذاب الذى يهددون به عذاب دنيوى سيحقيق بهم و ينزل عليهم دون عذاب الآخرة، و على هذا فهذه الآيه و التى قبلها يذكر كل منهما شيئا من ما تهوس به الكفار بجهالتهم فالآيه السابقه تذكر أنهم إذا ذكر لهم البعث و أنذروا بعذاب يوم القيامة قالوا: إن هذا إلا سحر مبين، و هذه الآيه تذكر أن الله إذا أخرج عنهم العذاب إلى أمه و أخبروا بذلك قالوا مستهزئين: ما يحبسهم.

قوله تعالى: « وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكُفُورٌ » قال فى المجمع: الذوق تناول الشئ بالفم لإدراك الطعم، و سمي الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل: أحلام نوم أو كظل زائل و النزاع قلع الشئ عن مكانه، و اليؤس فعول من يئس -صيعه مبالغه- و اليأس القطع بأن الشئ المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء. انتهى.

و قد وضعت الرحمه فى الآيه مكان النعمه للإشعار بأن النعم التى يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمه و هى رفع حاجه الإنسان فيما يحتاج إليه من غير استحقاق و إيجاب و المعنى: أنا إن آتينا الإنسان شيئا من النعم التى يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها و اشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها إليه ثانيا ممكنا و كفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمه من حقه الثابت علينا و يرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه و الكفران، و قد أخذ فى الآيه لفظ الإنسان -و هو لفظ دال على نوعه- للدلاله على أن الذى يذكر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالى: « وَ لَئِنْ أَذَقْنَا نَعْمَاءَ بَعِيدٍ ضَرَاءَ مَسْتَهْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ » قال فى المجمع: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه و الضراء مضره يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عيناء مع ما فيهما من المبالغه، و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما يلتذ به و ضده الغم -إلى أن قال:- و الفخور الذى يكثر فخره و هو التناول بتعديد المناقب و هى

صفه ذم إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه. انتهى.

و المراد بالسيئات بقريته المقام المصائب و البلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه، و المعنى: و لئن أصبناه بالنعمة بعد الضراء ليقولن ذهب الشدائد عني، و هو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانيا.

و قوله: «إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ» بمنزله التعليل لقوله: «ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي» فإنه يفرح و لا- يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء، و لو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقاءه و لا اعتماد على دوامه، و أن الأمر ليس إليه بل إلى غيره و من الجائز أن يعود إليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحا بذلك فإنه لا فرح في أمر مستعار غير ذي قرار.

و إنه ليفخر بما أوتى من النعماء على غيره، و لا- فخر إلا- بكرامه أو منقبه يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمرا بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه و ينزعه منه و يعيد إليه ما ذهب عنه من السيئات و لذلك يفخر و يكثر من الفخر.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ» ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشدة و البلاء من اليأس و الكفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر، و مغزى الكلام أنه مخلوق كلي البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضر، و يذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عوده و أنها كانت من عند الله سبحانه، و له تعالى أن يعيدها إليه إن شاء حتى يصبر على بلائه و يتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله، و إن عادت إليه نعمه بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح و فخر و لم ير لله تعالى صنعا في ذلك حتى يشكره عليها و يكف عن الفرح و عن التناول على غيره بالفخر.

استثنى سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ» و ذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند

الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس و الكفر،و يعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه فى ما يرضيه و يريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بامحاء آثار ذلك الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر كبير.

و فى الآيه دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة و أجرا كبيرا،والمغفرة لا تنال المشركين،قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ النساء:-١١٦.

و قد ورد الوعد بعين ما ذكر فى هذه الآيه أعنى المغفرة و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فاطر:-٧، و قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الملك:-١٢.

و اتصال الآيات الثلاث بما قبلها ظاهر فإن الكلام كان فى الآيات السابقة مسوقا فى كفر الكافرين و رميهم الوعد بالبعث بالسحر و مقابلتهم الإيعاد بنزول العذاب بالاستهزاء،فذكر سبحانه أنهم على حالهم الطبعى لا يرون لما عندهم من نعمه الله زوالا بنزول العذاب و لا لما بهم من رث الحال تبديلا إلى العيش الهنيء و المتاع الحسن الذى وعدهم الله به فى صدر السوره.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ إلى آخر الآيه،لما كانت رساله النبى ص بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البيّنات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لإنسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع،و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الإنسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع إلى ما يستبعده الطبع.

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هذا المقام و كان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى ص إليهم من الحق الصريح و ما أنزل إليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات و الحجج مما لا ينبغى أن يذعن به لبعده طبعاً بين تعالى لذلك وجهها بعد وجه على سبيل الترجى فقال: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ» إلخ، «أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءٌ» إلخ.

فكأنه قيل: من المستبعد أن تهديهم إلى الحق الواضح و يسمعون منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك و غير داعيهم إليه و لذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله و لذلك لم يؤمنوا به. فإن كنت تركت بعض الوحي خوفاً من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلا ما شاء الله، و أن يقولوا افتراء فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات «إلخ».

و مما تقدم يظهر أن إيراد الكلام مورد الترجى و الاحتمال لرعايه ما يقتضيه المقام من طبع الاستبعاد فالمقام مقام الاستبعاد و مقتضاه ذكر كل سبب محتمل التأثير فى الحادثه المستبعده، اعتبر ذلك فى ملك ينتهى إليه تمرد بعض ضعفاء رعيته فيبعث بعض عماله إلى دعوتهم إلى السمع و الطاعه و يكتب فى ذلك كتاباً يأمره أن يقرأ عليهم و يلومهم على تمردهم و استكبارهم على ما بهم من الضعف و الذله و لمولاهم من القوه و السطوه و العزه ثم يبلغ الملك أنهم ردوا على رسوله ما بلغهم من قبله، و يكتب إليه كتاباً ثانياً يأمره بقراءته عليهم و إذا فيه: لعلك لم تقرأ كتابى عليهم مخافه أن يقترحوا عليك بما لا تقدر عليه أو أنهم زعموا أن الكتاب ليس من قبلى و إنما افتريته على افتراء فإن كان الأول فإنك رسول ليس عليك إلا البلاغ و إن كان الثانى فإن الكتاب بخطى كتبه بيدي و ختمت عليه بخاتمى و لا يقدر أحد غيرى أن يقلدنى فى ذلك.

و التأمل فى هذا المثال يعطى أن المقام فيما يتضمنه الكتاب الثانى من الخطاب مقام الاستبعاد و أن القصد من ذكر الاحتمالين ترك الإبلاغ و زعم الافتراء ليس هو تويخ الرسول جداً أو احتمال زعمهم الكذب و الفرية جداً، و إنما ذكر الوجهان

لداعى أن يكونا كالمقدمه لذكر ما يزول به الشبهتان و هو أن الرسول ليس له من الأمر شىء حتى يقترح، عليه بما يقترح و أن الكتاب للملك ليس فيه ريب و لا شك.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ» إلخ، ليس يفيد الترجى الجدى و لا مسوقا لتوبيخ النبى ص و لا مرادا به تسليته و تطيب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن و الأسى بكفرهم و جحودهم لما أتى به من الحق الصريح بل الكلام مسوق ليتوصل به إلى ذكر قوله: «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

فما ذكره بعض المفسرين أن الكلام مسرود لنهاى النبى ص عن الحزن و ضيق الصدر بما كانوا يواجهونه به من الكفر و الجحود، و النهى نهى تسليه و تطيب للنفس نظير ما فى قوله: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»: النحل: - ١٢٧، و قوله: «لَعَلَّكَ بِأَخْبَعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ»: الشعراء: - ٤ كلام ليس فى محله.

و يظهر أيضا أن قوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» إلخ، و قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» إلخ، كشقى التريد و يتصلان معا بما قبلهما من وجه واحد كما ذكرناه.

و قوله: «تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ» إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة متضمنه لتبليغ الوحى فى الجملة أى لعلك تركت بعض ما أوحينا إليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبهوك بما جبهوك به من الرد و الجحود، و ذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضا و شطر منه يقرب شطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتمله على الدعاوى، و آيات الثواب و العقاب تقرب الحق من القبول بالتطميع و التخويف، و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تلين القلوب.

و قوله: «وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا» إلخ، قال فى المجمع، ضائق و ضيق بمعنى واحد إلا- أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين: أحدهما: أنه عارض و الآخر أنه أشكل بقوله تارك انتهى.

و الظاهر أن ضمير « به » راجع إلى قوله: « بَعْضَ مَا يُوحَىٰ » و إن ذكر بعضهم أن الضمير راجع إلى قولهم: « لَوْلَا - أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ » إلخ، أو إلى اقتراحهم و هذا أوفق بكون قوله « أَنْ يَقُولُوا » إلخ، بدلا من الضمير في « به » و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: « تَارِكٌ » و التقدير: لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا: لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله: « إِنََّّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » جواب عن اقتراحهم بقولهم: لَوْلَا - أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، و قد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيء الملك و زيد في بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة و أن يكون له جنه يأكل منها و أن ينزل من السماء كتابا يقرءونه. و قد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلا - الرسالة فليس بيده و هو بشر رسول أن يجيبهم إلى ما اقترحوه به عليه إلا - أن يشاء الله في ذلك شيئا و يأذن في إتيان آيه كما قال: « وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ: » المؤمن: - ٧٨.

ثم عقب قوله: « إِنََّّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » بقوله: « وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي ص بالمعجزات و محصله: أن النبي ص بشر مثلهم و لم يؤمر إلا - بالإنذار و هو الرسالة بإعلام الخطر، و القيام بالأمر كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو إلى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي ص فيما ليس إليه.

و ذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شيء فيما يجرى عليه من النظام فما من شيء إلا و هو تعالى المبدأ في أمره و شأنه و المنتهى سواء الأمور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم إليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم إليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء و وكيل.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بمعونه من قوله: «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي ص أمرا ليس إليه و إنما هو إلى الله تعالى.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ» قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ «أَمْ» متصله لكون قوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» إلخ، في معنى الاستفهام، و التقدير: أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفا من اقتراحهم المعجزه أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامى ثم لا يؤمنوا به و قيل: إن أم مقطعه و المعنى: بل يقولون افتراه.

و قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» فى الكلام تحد ظاهر و الضمير راجع إلى القرآن أو إلى السوره بما أنها قرآن و الفاء فى «فَأْتُوا» تفيد تفریع الأمر على قوله: «افْتَرَاهُ» و فى الكلام حذف و إيصال رعايه للإيجاز، و التقدير: قل لهم:

إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندى و كان من الجائر أن يأتى بمثله غيرى فإن كنتم صادقين فى دعواكم و مجدين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا فى ذلك بدعوه كل من تستطيعون من دون الله من أو ثانكم الذين تزعمون أنهم آلهه تتسرعون إليهم فى الحاجات و غيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الأسباب و الوسائل و لا يبقى أحد ممن يطمع فى تأثير إعانتة و يرجى نفعه فى ذلك فلو كان من عندى لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله.

و قد بان بهذا البيان أن التحدى بالقرآن فى الآيه الكريمة ليس من حيث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء فى ذلك آلهتهم و غير آلهتهم و فيهم من لا يعرف الكلام العربى أو جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدى عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقيه و الحجج و البراهين الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الكريمة و الشرائع الإلهيه و الأخبار الغيبيه و الفصاحه و البلاغه نظير ما فى قوله تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»

إسراء: ٨٨، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الأول من الكتاب.

وبذلك يظهر فساد ما قيل إن جهه إعجاز القرآن إنما هي البلاغه و الفصاحه في هذا النظم المخصوص لأنه لو كان جهه الإعجاز غير ذلك لما قنع في المعارضه بالافتراء و الاختلاق لأن البلاغه ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز و أدناها و أوسطها ممكن فالتحدى في الآيه إنما وقع في الطبقة العليا منها، و لو كان وجه الإعجاز الصرفة لكان الركيك من الكلام أبلغ في باب الإعجاز.

و المثل المذكور في الآيه لا يجوز أن يكون المراد به مثله في الجنس لأن مثله في الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدى، و إنما يرجع في ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب في تحدى بعضهم بعضا كما اشتهر من مناقضات امرئ القيس و علقمه و عمر بن كلثوم و الحارث بن حلزه و جرير و الفرزدق و غيرهم. انتهى.

فإن فيه أولا: أن لو كانت جهه الإعجاز في القرآن هي بلاغته فحسب و هي أمر لا يعرفه غير العرب لم يكن لتشريك غيرهم في التحدى معنى، و لم يرجع قوله:

« وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » على ما فيه من العموم و كذا قوله: « لئن اجتمعتِ الأمانسُ و الجنُّ » الآية إلى معنى محصل و لكان من الواجب أن يقال: لئن اجتمعت العرب » و ادعوا من استطعتم من آلهتكم و من أهل لغتكم.

و ثانيا: أنه لو كانت جهه الإعجاز هي البلاغه فقط لم يصح الاحتجاج بمثل قوله: « وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا: » النساء: ٨٢، الظاهر في نفي مطلق الاختلاف فإن أكثر الاختلافات و هي التي يرجع إلى المعاني لا تضر بلاغه اللفظ.

و ثالثا: أنه تعالى يتحدى بمثل قوله: « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ: » الطور: ٣٤، و بقوله في سورة يونس: « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ: » آيه ٣٨، و قد استفدنا فيما تقدم أن سورة يونس قبل سورة هود في ترتيب النزول

و يؤيده الأثر، ثم بقوله في هذه السورة: «فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» و لو كان جهه الإعجاز هى البلاغه خاصه لكانت هذه التحديات خارجه عن النظم الطبيعى إذ لا- يصح أن يكلف البلغاء من العرب المنكرين لكون القرآن من عند الله يأتیان مثل سوره منه ثم بعده يأتیان عشر سور مفتريات بل مقتضى الطبع أن يتحدى بتكليفهم يأتیان مثل القرآن أجمع فإن عجزوا فيأتیان عشر سور مثله مفتريات فإن عجزوا فيأتیان سوره مثله.

و قد ذكر بعضهم فى التفصلى عن هذا الإشكال أن الترتيب بين السور و نزول بعضها قبل بعض لا يستلزم الترتيب بين آيات السور فكم من آيه مكيه موضوعه فى سوره مدنيه و بالعكس فمن الجائز حينئذ أن تكون آيات التحدى بتمام القرآن نازله قبل غيرها مطلقا ثم تكون آيه التحدى بعشر سور مفتريات نازله بعدها، و آيه التحدى بسوره واحده نازله بعد الجميع.

و فيه: أنه إنما ينفع لو صح نزول الآيات على ما صوره و إلا- فالإشكال على حاله و الحق أن القرآن معجز فى جميع صفاته المختصه به من بلاغه و فصاحه و ما فيه من المعارف الحقيقيه و الأخلاق الكريمه و الشرائع الإلهيه و القصص و العبر و الإخبار بالمغيبات و ما له من السلطان على القلوب و الجمال الحاكم فى النفوس.

و أما الوجه فى التحدى بعشر سور مع ما فى سوره يونس من التحدى بواحد فقد قال فى المجمع: فإن قيل: لم ذكر التحدى مره بعشر سور و مره بسوره و مره بحديث مثله؟ فالجواب: أن التحدى إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدى مره بالأقل و مره بالأكثر. انتهى.

أقول: و هو يصلح وجها لأصل التحدى بالواحد و الكثير و أما التحدى بالعشر بعد الواحد و لا سيما على ما يراه من كون إعجازه بالبلاغه فحسب فلا.

و ذكر بعضهم فى توجيه ذلك أن القرآن الكريم معجز فى جميع ما يتضمنه من المعارف و الأخلاق و الأحكام و القصص و غيرها و ينعت به من الفصاحه و البلاغه

و انتفاء الاختلاف، و إنما يظهر صحه المعارضه و الإتيان بالمثل عند إتيان عده من السور يظهر به ارتفاع الاختلاف و خاصه من بين القصص المودعه فيها مع سائر الجهات كالفصاحه و البلاغه و المعارف و غيرها.

و إنما يتم ذلك بإتيان أمثال السور الطويله التى تشتمل على جميع الشئون المذكوره و تتضمن المعرفه و القصة و الحجه و غير ذلك كسورتى الأعراف و الأنعام.

و التى نزلت من السور الطويله القرآنيه مما يشتمل على جميع الفنون المذكوره قبل سورة هود على ما ورد فى الروايه هى سورة الأعراف و سورة يونس و سورة مريم و سورة طه و سورة الشعراء و سورة النمل و سورة القصص و سورة القمر و سورة ص فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود، و هذا الوجه هو فى التحدى بأمرهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، انتهى بتلخيص منا و قد أظن فى كلامه.

أقول: فيه أولاً: أن لا- تعويل على الأثر الذى عول عليه فى ترتيب نزول السور فإنما هو من الآحاد التى لا تخلو عن ضعف و لا ينبغى بناء البحث التفسيرى على أمثالها.

و ثانياً: أن ظاهر قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» أن رميهم النبى ص بالافتراء على الله سبحانه قول تقولوه بالنسبه إلى جميع السور القرآنيه طويلتها و قصيرتها من غير أن يخصصوا به سورة دون سورة فمن الواجب أن يجابوا بما يحسم ماده الشبهه بالنسبه إلى كل سورة قرآنيه، و التحدى بما يفى بذلك، و عجزهم عن إتيان عشر سور مفتريات طويله تجمع الفنون القرآنيه لا- يثبت به كون الجميع حتى السور القصار كسورتى الكوثر و العصر من عند الله اللهم إلا ببيان آخر يضم إليه و اللفظ خال من ذلك.

و ثالثاً: أن قوله: «بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ» إن كان ما فيه من الضمير راجعاً إلى القرآن كما هو ظاهر كلام هذا القائل أفاد التحدى بإتيان عشر سور مفتريات مثله مطلقاً سواء فى ذلك الطوال و القصار فتخصيص التحدى بعشر سور طويله جامعه

تقييد للفظ الآيه من غير مقيد و هو تحكم و أشد منه تحكما القول بأن المراد بالمثل مثل السور العشر التي عدها.

و إن كان الضمير راجعا إلى سوره هود كان مستبشعا من القول و كيف يستقيم أن يقال لمن يقول: إن سوره الكوثر و المعوذتين من الافتراء على الله: أنت بعشر سور مفتریات مثل سوره هود و يقتصر على ذلك؟ اللهم إلا أن يهذروا بأن سوره هود وحدها من الافتراء على الله تعالى فيتحدى عندئذ بأن يأتوا بمثلهما، و لم نسمع أحدا منهم تفوه بذلك.

و يمكن أن يقال في وجه الاختلاف الذي يلوح من آيات التحدى كقوله :

«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» يونس:- ٣٨ الظاهر في التحدى بسوره واحده و قوله: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» الظاهر في التحدى بعدد خاص فوق الواحد و قوله: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» الطور:- ٣٤ الظاهر في التحدى بحديث يماثل القرآن و إن كان دون السوره أن كل واحده من الآيات تؤم غرضا خاصا في التحدى.

بيان ذلك: أن جهات القرآن و شئونه التي تتقوم به حقيقته و هو كتاب إلهى مضافا إلى ما في لفظه من الفصاحه و في نظمه من البلاغه إنما ترجع إلى معانيه و مقاصده لست أعنى من المعنى ما يقصده علماء البلاغه في قولهم: إن البلاغه من صفات المعنى و الألفاظ مطروحه في الطريق يعنون به المفاهيم من جهة ترتبها الطبعى في الذهن فإن الذى يعنون به من المعنى موجود في الكذب الصريح من الكلام و فى الهزل و فى الفحش و الهجو و الفريه إذا جرت على أسلوب البلاغه و توجد فى الكلام الموروث من البلغاء نظما و نثرا شىء كثير من هذه الأمور.

بل المراد من معنى القرآن و مقصده ما يصفه تعالى بأنه كتاب حكيم، و نور مبين، و قرآن عظيم، و فرقان، و هاد يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم، و قول فصل و ليس بالهزل، و كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و ذكر و أنه يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و أنه شفاء و رحمه للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خسارا، و أنه تبيان لكل شىء و لا يمسه إلا المطهرون.

فمن البين أن هذه كلها صفات لمعنى القرآن. وليست صفات لما يقصده علماء البلاغه بالمعنى البليغ الذى ربما يشتمل عليه الباطل من الكلام الذى يسميه القرآن الكريم لغوا من القول و إثما و ينهى الإنسان عن تعاطيه و التفوه به و إن كان بليغا بل المعنى المتصف بهذه الصفات هو شىء من المقاصد الإلهيه التى تجرى على الحق الذى لا يخالطه باطل، و تقع فى صراط الهدايه، و يكون الكلام المشتمل على معنى هذا نعته و غرض هذا شأنه هو الذى تتعلق العناية الإلهيه بتنزيله و جعله رحمه للمؤمنين و ذكرا للعالمين.

و هذا هو الذى يصح أن يتحدى به بمثل قوله: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» فإننا لا نسمى الكلام حديثا إلا إذا اشتمل على غرض هام يتحدث به فينقل من ضمير إلى ضمير، و كذا قوله: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» فإن الله لا يسمى جماعه من آيات كتابه و إن كانت ذات عدد سورة إلا إذا اشتملت على غرض إلهى تتميز بها من غيرها.

و لو لا ذلك لم يتم التحدى بالآيات القرآنيه و كان للخصم أن يختار من مفردات الآيات عددا ذا كثره كقوله تعالى: «وَ الضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَالْعَصِيرِ ﴿٢﴾ وَالطُّورِ ﴿٣﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٤﴾ مُدِّهَا مَتَانٍ ﴿٥﴾ أَلْحِقْهُ ﴿٦﴾ مَا أَلْحَقَهُ ﴿٧﴾ مَا أَذْرَاكَ ﴿٨﴾ مَا أَلْحَقَهُ ﴿٩﴾ الرَّحْمَنُ ﴿١٠﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿١١﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿١٢﴾ وَ حَسَفَ الْقَمَرُ ﴿١٣﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿١٤﴾ سَيَدْعُ الرَّبَّائِيَةَ ﴿١٥﴾ إلى غير ذلك من مفردات الآيات ثم يقابل كلا منها بما يناظرها من الكلام العربى من غير أن يضمن ارتباط بعضها ببعض و اشتمالها على غرض يجمعها و يخرجها فى صورته الوحده.

فالذى كلف به الخصم فى هذه التحديات هو أن يأتى بكلام يماثل القرآن مضافا إلى بلاغه لفظه فى بيان بعض المقاصد الإلهيه المشتمله على أغراض منعوته بالنعوت التى ذكرها الله سبحانه.

و الكلام الإلهى مع ما تحدى به فى آيات التحدى يختلف بحسب ما يظهر من خاصته فمجموع القرآن الكريم يختص بأنه كتاب فيه ما يحتاج إليه نوع الإنسان إلى يوم القيامة من معارف أصلية و أخلاق كريمه و أحكام فرعيه، و السوره من القرآن تختص ببيان جامع لغرض من الأغراض الإلهيه المتعلقة بالهدى و دين الحق على بلاغتها

الخارقه و هذه خاصه غير الخاصه التي يختص بها مجموع القرآن الكريم، و العده من السور كالعشر و العشرين منها تختص بخاصه أخرى و هي بيان فنون من المقاصد و الأغراض و التنوع فيها فإنها أبعد من احتمال الاتفاق فإن الخصم إذا عجز عن الإتيان بسوره واحده كان من الممكن أن يختلج في باله أن عجزه عن الإتيان بها إنما يدل على عجز الناس عن الإتيان بمثلها لا على كونها نازله من عند الله موحاه بعلمه فمن الجائز أن يكون كسائر الصفات و الأعمال الإنسانيه التي من الممكن في كل منها أن يتفرد به فرد من بين أفراد النوع اتفاقا لتصادق أسباب موجبه لذلك كفرد من الإنسان موصوف بأنه أطول الأفراد أو أكبرهم جثه أو أشجعهم أو أسخاهم أو أجبنهم أو أبخلهم.

و هذا الاحتمال و إن كان مدفوعا عن السوره الواحده من القرآن أيضا التي يقصدها الخصم بالمعارضه فإنها كلام بليغ مشتمل على معان حقه ذات صفات كريمه خاليه عن ماده الكذب، و ما هذا شأنه لا يقع عن مجرد الاتفاق و الصدفة من غير أن يكون مقصودا في نفسه ذا غرض يتعلق به الإراده.

إلا أنه أعنى ما مر من احتمال الاتفاق و الصدفة عن السور المتعدده أبعد لأن إتيان السوره بعد السوره و بيان الغرض بعد الغرض و الكشف عن خبيء بعد خبيء لا يدع مجالاً لاحتمال الاتفاق و الصدفة و هو ظاهر.

إذا تبين ما ذكرناه ظهر أن من الجائز أن يكون التحدى بمثل قوله: «قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» إسرائ: ٨٨ و اردا مورد التحدى بجميع القرآن لما جمع فيه من الأغراض الإلهيه و يختص بأنه جامع لعامه ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامه، و قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» لما فيها من الخاصه الظاهره و هي أن فيها بيان غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهي بيانا فضلا من غير هزل، و قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ» تحديا بعشر من السور القرآنيه لما في ذلك من التفنن في البيان و التنوع في الأغراض من جهه الكثره، و العشره من ألفاظ الكثره كالمائه و الألف

قال تعالى: «يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ:» البقره: ٩٦.

فالمراد بعشر سور-و الله أعلم-السور الكثيره الحائزه لبعض مراتب الكثيره المعروفه بين الناس فكأنه قيل:فأتوا بعده من سورها و لتكن عشا ليظهر به أن تنوع الأغراض القرآنيه فى بيانه المعجز ليس إلا من قبل الله.

و أما قوله: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ» فكأنه تحد بما يعم التحديات الثلاثه السابقه فإن الحديث يعم السوره و العشر سور و القرآن كله فهو تحد بمطلق الخاصه القرآنيه و هو ظاهر.

بقى هنا أمران أحدهما أنه:لم يقع فى شىء من آيات التحدى المذكوره توصيف ما يأتى به الخصم بالافتراء إلا فى هذه الآيه إذ قيل فيها: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» بخلاف قوله: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» فلم يقل فيه:«فأتوا بسوره مثله مفتراه» و كذا فى سائر آيات التحدى.

و لعل الوجه فى ذلك أن نوع العنايه فى الآيه المبحوث عنها غير نوع العنايه فى سائر آيات التحدى فإن العنايه فى سائر الآيات متعلقه بأنهم لا يقدررون على الإتيان بمثل القرآن أو بمثل السوره لما أنه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلق بها قدره الإنسان و لا يظهر عليها غيره تعالى و قد أطلق القول فيها إطلاقاً.

و أما هذه الآيه فلما عقبته بقوله: «فَالَّذِينَ لَا يَرْجُوا أَيَّامَ لِقَائِهِمْ فَاغْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ» دل ذلك على أن التحدى فيها إنما هو بكون القرآن متضمناً لما يختص علمه بالله تعالى و لا سبيل لغيره إليه،و هذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته فكأنه قيل:إن هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراء فإنه متضمن لأمر من العلم الإلهى الذى لا سبيل لغيره تعالى إليه،و إن ارتبتم فى ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدعون أنها افتراء، و استعينوا بمن استطعتم من دون الله فإن لم تقدرورا عليه فاعلموا أنه من العلم المخصوص به تعالى.فافهم ذلك.

و ثانيهما:معنى التحدى بالمثل حيث قيل: «بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ» بِحَدِيثٍ

مِثْلِهِ «بِسُورَةِ مِثْلِهِ» «بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ» و الوجه الظاهر فيه أن الكلام لما كان آيه معجزه فلو أتى إنسان بما يماثله لكفى في إبطال كونه آيه معجزه و لم يحتج إلى الإتيان بما يترجح عليه في صفاته و يفضل عليه في خواصه.

و ربما يورد عليه أن عدم قدره غيره (ص) على ذلك لا يدل على كونه معجزه غير مستنده إليه لأن صفات الكمال التي توجد في النوع الإنساني كالبلاغه و الكتابه و الشجاعه و السخاء و غيرها لها مراتب متفاوتة مختلفه يفضل بعضها على بعض، و إذا كان كذلك كان من المراتب ما هو فوق الجميع و هو غايه ما يمكن أن ترتقى إليه النفس الإنسانيه البته.

فكل صفة من صفات الكمال يوجد بين الأفراد الموصوفين بها من هو حامل للدرجة العليا و الغايه القصوى منها بحيث لا يعدله غيره و لا- يعارضه أحد ممن سواه فبالضرورة بين أفراد الإنسان عامه من هو أبلغهم أو أكتبهم أو أشجعهم أو أسخاهم كما أن بينهم من هو أطولهم قامه و أكبرهم جثه، و لم لا- يجوز أن يكون النبي ص أفصح الناس جميعا و أبلغهم و القرآن من كلامه الذي لا يسع لأحد أن يعارضه فيه لوقوفه موقفا ليس لغيره فيه موضع قدم فلا؟ يكون عندئذ عجز غيره عن الإتيان دليلا على كونه كلاما إلهيا غير بشرى لجواز كونه كلاما بشريا مختصا به (ص) مضمونا عن غيره. هذا.

و يدفعه أن الصفات الإنسانيه التي يقع فيها التفاضل و إن كانت على ما ذكر لكنها أياما كانت فهي مما تسمح بها الطبيعه الإنسانيه بما أودع الله فيها من الاستعداد من غير أن تنشأ عن اتفاق و من غير سبب يمكن الفرد الموصوف من الاتصاف بها.

و إذا كان كذلك و فرض فرد من الإنسان اختص بصفه فاضله لا يعدله غيره و لا يفوقه سواه كان لغيره أن يسلك ما مهده من السبيل و يتعود بالتمرن و التدريب و الارتياض بما يأتيه من الأعمال التي تصدر عما عنده من صفه الكمال فيأتي بما يماثل بعض ما يختص به من الكمال و يقلده في نبذه من أعماله و إن لم يقدر على أن يزاحمه في الجميع و يماثله في الكل، و يبقى للفرد النابغ المذكور مقام الأصاله و السبقه و التقدم

فى ذلك فالحاتم مثلا و إن كان هو المتفرد غير المعارض فى سخائه و جوده من غير أن يسع غيره أن يتقدم عليه و يسبقه لكن من الممكن أن يرتاض مرتاض فى سبيله فيتمرن و يتدرب فيه فىأتى بشىء من نوع سخائه و جوده و إن لم يقدر على مزاحمته فى الجميع و فى أصل مقامه، و الكمالات الإنسانية التى هى منابع للأعمال سبيلها جميعا هذا السبيل، و يتمكن الإنسان بالتمرن و التدرب على سلوك سبيل السابقين المبدعين فيها و الإتيان بشىء من أعمالهم و إن لم يسع مزاحمتهم فى أصل موقفهم.

فلو كان القرآن من كلام النبى ص على فرض أنه أبلغ إنسان و أفصحه كان من الجائز أن يهتم غيره فيتمرن على سلوك ما أبدعه فى كلامه من النظم البديع فيقدر على تقليده فى شىء من الكلام و إتيان شىء من القول بسوره مثله و إن لم يقدر على تقليد القرآن كله و الإتيان بجميعه.

و لم يقل فيما تحدى به: فليأتوا بحديث أبلغ منه أو أحسن أو بسوره هى أبلغ أو أحسن حتى يقال: إن القرآن أبلغ كلام بشرى أو أحسنه ليس هناك ما هو أبلغ أو أحسن منه حتى يأتى به آت فلا يدل عدم قدره على الإتيان بذلك على كونه كلاما لغير البشر، بل إنما قال: «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ» «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ» و هكذا و فى وسع البشر الإتيان بمثل كلام غيره من البشر و إن فرض كون ذلك الغير ذا موقف من الكلام لا يعارضه غيره على ما بيناه فالشبهه مندفعه بقوله تعالى «مِثْلِهِ».

قوله تعالى: «فَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَهُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُ لِيُبْدُوا آلَاءِ اللَّهِ بَلْ يَدْعُونَ بِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَن غَيْرِ حَقِّهِ كِبَاسًا وَكَذِبًا وَكِبْرًا»

و الظاهر من السياق أن الخطاب فى الآيه للمشركين، و أنه من تمام كلام النبى ص الذى أمر بقوله تعالى: «قُلْ» إن يلقىهم إليهم، و على هذا فضمير الجمع فى قوله: «فَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَهُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُ لِيُبْدُوا آلَاءِ اللَّهِ بَلْ يَدْعُونَ بِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَن غَيْرِ حَقِّهِ كِبَاسًا وَكَذِبًا وَكِبْرًا» راجع إلى الآلهه و كل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: «وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

و المعنى: فإن لم يستجب لكم معاصر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من

آلهتكم و من بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام و علماء أهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماويه و أخبار الأنبياء و الأمم و الكهنه المستمدين من إلقاء شياطين الجن، و جهابذه العلم و الفهم من سائر الناس المتعمقين فى المعارف الإنسانيه بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله و لم يخلق عن علمى أنا و لا- غيرى ممن تزعمون أنه يعلمنى و يملئ على، و اعلموا أيضا أن ما أدعوكم إليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه إليه فهل أنتم أيها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره؟.

فقوله تعالى: «فَالَيْمَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ» فى معنى قولنا: فإن لم تقدرُوا على المعارضه بعد الاستعانه و الاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله، و ذلك أن الأسباب التى توجب قدرتهم على المعارضه هى ما عندهم من قدره البيان و قريحه البلاغه و هم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله و كذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد، و لهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم، و أيضا ما عند غير آلهتهم من المدد، و إذا لم يستجيبهم الذين يدعونهم فى معارضه القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبه لقدرتهم و ارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضه القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدره فى الكلام كناية.

و قوله: «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به و هو الغيب الذى لا سبيل لغيره تعالى إليه إلا بإذنه كما قال تعالى :

«لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» النساء:- ١٦٦، و قال: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» يوسف:- ١٠٢، و قال: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ» الجن:- ٢٧، و قال: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» الواقعة:- ٨٠.

فالمعنى: فإن لم تقدرُوا على معارضته بأى سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبى و أنه من أنباء الغيب الذى يختص به تعالى فهو الذى أنزله على و كلمنى به و أراد تفهيمى و تفهيمكم بما فيه من المعارف الحقه و ذخائر الهدايه.

و ذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أنزل على علم من الله بنزوله و شهاده منه له، و ذكر آخرون أن المراد أنه إنما أنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضه أو بعلم من الله بنظمه و ترتيبه و لا يعلم غيره ذلك و هذه معان واهيه بعيده عن الفهم.

و الجملة أعنى قوله: «[□]أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ[□]» إحدى التيجتين المأخوذتين من عدم استجابته شركائهم لهم. و النتيجة الأخرى قوله: «[□]وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[□]» و لزوم هذه النتيجة من وجهين: أحدهما: أنهم إذا دعوا آلهم لما بهم من الأمور فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بالله فليس الإله إلا من يجيب المضطر إذا دعاه و خاصه إذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذى أتى به النبى ص كان يقطع دابرهم و يميت ذكراهم و يصرف الناس عن التوجه إليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم إذا دعواهم لمعارضه كتاب هذا شأنه كان ذلك من أوضح الدليل على نفى ألوهيتهم.

و ثانيهما: أنه إذا صح أن القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، و مما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه.

و قوله: «[□]فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[□]» أى لما علمتم و اتضح لكم من جهه عدم استجابته شركائكم من دون الله و عجزكم عن المعارضه فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه و كون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه؟ و هو أمر بالإسلام فى صورته الاستفهام هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية.

و قيل: إن الخطاب فى قوله: «[□]فَمَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ[□]» الخ، للنبى ص خوطب بلفظ الجمع تعظيما له و تفخيما لشأنه و ضمير الجمع الغائب راجع إلى المشركين أى فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبى إليه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم الله و أن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثرة يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و أما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافا إلى أن استناد الوحي الإلهي و التكليم الرباني إليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي ص دلالاته على كونه كلاما من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابته المشركين إلى معارضة القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الإنسان و الجن و الملك و أى هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده إلى متكلمه إلى دليل خارجي من حسن أو عقل، و قد تقدمت إشاره إلى ذلك في قصه زكريا من سورة آل عمران، و سيجيء البحث المستوفي عن ذلك فيما يناسبه من المورد إن شاء الله تعالى.

على أن خطاب النبي ص بمثل قوله: «وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» و قوله:

«فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» لا يخلو عن بشاعه. على أن نفس الاستدلال أيضا غير تام كما سنبين.

و قيل: إن الخطاب في الآيه للنبي ص و المؤمنين جميعا أو للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه (ص) في الدعوه الدينيه و التحدى بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم و المعنى: فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله و أن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله؟.

و لما تظن بعضهم أن لا معنى لدعوه المؤمنين و هم مؤمنون بالله و وحده و بكتابه إلى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله و بأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله و ازدادوا به إيمانا و يقينا و أنه لا إله إلا هو و لا يستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم و الإخلاص فيه؟.

و فيه أنه تقييد للآيه من غير مقيد و الحجه غير تامه و ذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا عليها بدعوه آلهتهم و سائر من يطمعون فيه من الجن و الإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر و تمت بذلك الحجه عليهم، و أما عدم استجابته للكفار للمعارضه فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتروا بما أمروا به بقوله:

«فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق و إنما كان قولهم:

«إِفْتِرَاهُ» قولاً- ناشئاً عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به أو شك فيه، أو لأنهم كانوا آيسين من استجابته شركائهم للدعوه على المعارضه، أو لأنهم كانوا هازلين فى قولهم ذلك يهذرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابته المشركين للنبي ص أو للمؤمنين أو لهم جميعا لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلا من عند الله إلا إذا كان عدم الاستجابته المذكوره بعد تحقق دعوتهم شركاءهم إلى المعارضه و عدم استجابتهم لهم، و لم يتحقق من المشركين دعوه على هذه الصفه، و مجرد عدم استجابته المشركين أنفسهم لا- ينفع شيئا، و لا- يبقى إلا- أن يقال: إن معنى الآية: فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم و لم يستجب المشركون لكم أيها النبي و معاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله إلخ، و هذا هو الذى أوأنا إليه آنفا أنه تقييد للآيه من غير مقيد.

على أن فيه أمرا للمؤمنين أن يهتدوا فى إيمانهم و يقينهم بأمر فرضى غير واقع و كلامه تعالى يجعل عن ذلك، و لو أريدت الدلاله على أنهم غير قادرين على ذلك و إن دعوا شركاءهم إلى المعارضه كان من حق الكلام أن يقال: فإن لم يستجيبوا لكم و لن يستجيبوا فاعلموا إلخ، كما قيل كذلك فى نظيره قال تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا الذَّارِئَاتِى وَ قُودْهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ:» البقره: -٢٤.

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» التوفيه إيصال الحق إلى صاحبه و إعطاؤه له بكماله، و البخس نقص الأجر.

و فى الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم و لا يسلمون له إيثارا للحياه الدنيا و نسيانا للآخره، و بيان لشيء من سنه الأسباب القاضيه عليهم باليأس من نعيم الحياه الآخره.

و ذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغايه التى أرادها به و عمله

لأجلها، فإن كانت غايه دنيويه تصلح شئون الحياه الدنيا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل- إن أعانته سائر الأسباب العامله- إلى ما يرجوه بالعمل و أما الغايات الأخرويه فلا خير عنها لأنها لم تقصد حتى تقع، و مجرد صلاحيه العمل لأن يقع في طريق الآخره و ينفع في الفوز بنعيمها كالب و الإحسان و حسن الخلق لا يوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله و دار ثوابه.

و لذلك عقبه بقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فأخبر أنهم إذا وردوا الحياه الآخره وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياه كما تأكل النار الحطب و تبير و تهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود، و تحبط جميع ما صنعوا فيها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا، و لذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أى الهلاك فقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا» إبراهيم:- ٢٩، و بذلك يظهر أن كلاً- من قوله: «وَ حَبِطَ مَا صَبَّحُوا فِيهَا» و قوله: «وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يفسر قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» نوعاً ما من التفسير.

و بما تقدم يظهر أولاً: أن المراد من توفيه أعمالهم إليهم توفيه نتائجها و إيصال الآثار التى لها بحسب نظام الأسباب و المسببات لا ما يقصده الفاعل بفعله و يرجوه بمسعاها فإن الذى يناله الفاعل فى هذه النشأه بفعله هو نتيجة الفعل التى يعينها سائر الأسباب العامله عليها لا ما يؤمه الفاعل كيفما كان فما كل ما يتمنى المرء يدركه.

و قد عبر تعالى عن هذه الحقيقه فى موضع آخر بقوله: «وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»: الشورى:- ٢٠، فقال تعالى: «نُؤْتِيهِ مِنْهَا» و لم يقل: نُؤْتِيهِ إِيَّاهَا، و قال فى موضع آخر: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا»: إسرائ:- ١٨ فذكر ما يريده الإنسان من الدنيا و يناله منها و زاد بياناً أنه ليس كل من يريد أمراً يناله و لا كل ما يراد ينال بل الأمر إلى الله سبحانه يعطى ما يشاء و يمنع ما يشاء و يقدم من يريد و يؤخر من يريد على ما تجرى عليه سنه الأسباب.

و ثانيا: أن الآيتين أعنى قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ» إلى آخر الآيتين تبيين حقيقه من الحقائق الإلهيه.

(بحث روائى)

فى الكافى، فى قوله تعالى: «أَلَا - إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» الآية: بإسناده عن ابن محبوب عن جميل بن صالح عن سدير عن أبى جعفر (ع) قال: أخبرنى جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا - إذا مروا برسول الله ص حول البيت - طأطأ أحدهم رأسه و ظهره هكذا - و غطى رأسه بثوب لا يراه رسول الله ص - فأنزل الله: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ» الآية.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى رزين قال: " كان أحدهم يحنى ظهره و يستغشى بثوبه.

و فى المجمع، روى عن على بن الحسين و أبى جعفر و جعفر بن محمد (ع):

يثنونى على يفعوعل.

و فى تفسير العياشى، عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبى جعفر (ع) قال:

أتى رسول الله ص رجل من أهل البادية فقال: يا رسول الله إن لى بنين و بنات و إخوه و أخوات - و بنى بنين و بنى بنات و بنى إخوه و بنى أخوات - و المعيشه علينا خفيفه - فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا -.

قال: و بكى فرق له المسلمون - فقال رسول الله ص: «مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ - إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا - كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» من كفل بهذه الأفواه - المضمونه على الله رزقها صب الله عليه الرزق صبا - كالماء المنهمر إن قليل فقليل - و إن كثير فكثيرا. قال: ثم دعا رسول الله ص و أمن له المسلمون -.

قال: قال أبو جعفر (ع): فحدثنى من رأى الرجل فى زمن عمر - فسأله عن

حاله فقال: من أحسن من خوله حلالا و أكثرهم مالا.

و فى الدر المنثور، أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبى ص قال: إذا كان أجل أحدكم بأرض أتاحت له إليها حاجه- حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض- فتقول الأرض يوم القيامة: هذا ما استودعتنى.

أقول: و الروايه غير ظاهره فى تفسير الآيه.

و فى الكافى، بإسناده عن أبى حمزه الثمالى عن أبى جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص فى حجه الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث فى روعى- أنه لا- تموت نفس حتى تستكمل رزقها- فاتقوا الله و أجملوا فى الطلب، و لا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق- أن تطلبوه بشىء من معصيه الله- فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالا- و لم يقسمها حراما فمن اتقى الله و صبر أتاه رزقه من حله، و من هتك حجاب ستر الله عز و جل- و أخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال- و حوسب عليه.

أقول: الروايه من المشهورات رواها العامه و الخاصه بطرق كثيره.

و فى تفسير العياشى، عن أبى الهذيل عن أبى عبد الله (ع) قال: إن الله قسم الأرزاق بين عباده- و أفضل فضلا كبيرا لم يقسمه بين أحد قال الله: «و سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ»:

أقول: و الروايه مرويه عن النبى ص

، و قد تقدمت بعض ما فى هذا المعنى من الأخبار فى ذيل قوله تعالى: «و تَزُوقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» سورة آل عمران آيه- ٢٧، و قوله تعالى: «و سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ» سورة النساء: آيه- ٣٢.

و فى الكافى، عن أبى عبد الله (ع) قال: كان أمير المؤمنين (ع) كثيرا ما يقول: اعلموا علما يقينا أن الله جل و عز لم يجعل للعبد- و إن اشتد جهده، و عظمت حيلته و كثرت مكائده- أن يسبق ما سقى له فى الذكر الحكيم. أيها الناس إنه لن يزداد امرؤ نقيرا بحذقه، و لن ينقص امرؤ نقيرا لحمقه- فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحه فى منفعتة- و العالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلا فى مضرتة، و رب

منعم عليه مستدرج بالإحسان إليه-و رب مغرور في الناس مصنوع له-.

فاتق الله أيها الساعي عن سعيك، وقصر من عجلتك، وانتبه من سنه غفلتك-و تفكر فيما جاء عن الله عز و جل على لسان نبيه ص. الحديث.

و في الكافي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد الله بن الحجاج عن أبي عبد الله (ع) قال: إن محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أظن أن علي بن الحسين يدع خلقا- أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي- فأردت أن أعظه فوعظني- فقال له أصحابه:

بأى شيء وعظك؟ فقال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعه حاره- فلقيني أبو جعفر محمد بن علي و كان رجلا بادنا ثقيلًا- و هو متكئ على غلامين أسودين أو موليين- فقلت في نفسي: سبحان الله- شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعه علي مثل هذه الحاله- في طلب الدنيا أما إنى لأعظنه-.

فدنوت منه و سلمت عليه فرد علي بنهر و هو ينصب عرقا- فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعه- علي هذه الحاله في طلب الدنيا- أ رأيت لو جاء أجلك و أنت علي هذه الحاله؟ فقال: لو جاءني الموت و أنا علي هذه الحاله- جاءني و أنا في طاعه من طاعه الله عز و جل- أكف بها نفسي و عيالي عنك و عن الناس، و إنما كنت أخاف أن جاءني الموت- و أنا علي معصيه من معاصي الله. فقلت: صدقت يرحمك الله- أردت أن أعظك فوعظتني.

و فيه، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله في بعض طرق المدينة- في يوم صائف شديد الحر- فقلت: جعلت فداك حالك عند الله عز و جل- و قرابتك من رسول الله ص- و أنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم؟ فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق- لأستغني به عن مثلك.

أقول: و لا منافاه بين القضاء بالرزق و بين الأمر بطلبه. و هو ظاهر.

و في الدر المنثور، أخرج الطيالسي و أحمد و الترمذي و حسنه و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ في العظمه و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا- قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عمام ما تحته هواء و ما فوقه هواء، و خلق عرشه على الماء.

أقول: العماء الغيم الذى يمنع نفوذ البصر فيه، و«ما» فى قوله: «ما تحته هواء و ما فوقه هواء» موصوله و المراد بالهواء هو الخالى من كل شىء كما فى قوله تعالى:

« وَ أَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ » أو أنها نافية و المراد بالهواء معناه المعروف، و المراد به أنه كان عماء لا- يحيط به الهواء على خلاف سائر العماءات.

و الروايه من أخبار التجسم و لذا وجه بأن قوله: فى عماء إلخ كناية عن غيب الذات الذى تكل عنه الأبصار و تتحير فيه الألباب.

و فيه، أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و أبو الشيخ فى العظمه و ابن مردويه و البيهقى فى الأسماء و الصفات عن عمران بن حصين قال: قال أهل اليمن:

يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر- كيف كان؟ قال: كان الله قبل كل شىء، و كان عرشه على الماء، و كتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شىء، و خلق السماوات و الأرض. فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا بن الحصين- فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب- فوالله لو ددت أنى تركتها.

أقول: و روى عده من رجال الحديث هذه الروايه عن بريده: و قال بريده فى آخرها: «ثم أتانى آت فقال: هذه ناقتك قد ذهبت- فخرجت و السراب ينقطع دونها- فلو ددت أنى كنت تركتها» و هذا مما يوهن الحديثين.

و فيه، فى قوله تعالى: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»: أخرج داود بن المحبر فى كتاب العقل و ابن جرير و ابن أبى حاتم و الحاكم فى التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا- رسول الله ص هذه الآية: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال: ليبلوكم أيكم أحسن عقلا. ثم قال: و أحسنكم عقلا أورعكم عن محارم الله- و أعلمكم (1) بطاعه الله.

و فى الكافى، مسندا عن سفيان بن عيينه عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز و جل: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» قال: قال: ليس يعنى أكثركم عملا- و لكن أصوبكم عملا، و إنما الإصابه خشيه الله و النيه الصادقه.

ص: ١٨٠

١- (١) أعلمكم ظ.

ثم قال: الإبقاء على العمل - حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص:

الذى لا تريد أن يحمدك عليه أحد - إلا الله عز وجل و النيه أفضل من العمل - ألا إن النيه هي العمل - ثم تلا قوله عز وجل: «قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ» يعني على نيته.

أقول: قوله ألا إن النيه هي العمل يعني ليس للعمل أثر إلا لما معه من النيه.

و في تفسير النعماني، بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي عبد الله (ع):

في قوله: «لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ» قال: العذاب خروج القائم (ع) - و الأمة المعدودة أهل بدر و أصحابه:

أقول: و روى هذا المعنى الكليني في الكافي، و القمي و العياشي في تفسيريهما عن علي و الباقر و الصادق (ع).

و في المجمع، قيل: إن الأمة المعدودة هم أصحاب المهدي - ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا كعده أهل بدر - يجتمعون في ساعه واحده كما يجتمع قزح الخريف - قال: و هو المروى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع).

و في تفسير القمي، في قوله: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» قال: "قال:

صبروا في الشده و عملوا الصالحات في الرخاء.

و في الدر المنثور، في قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» أخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ص: إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقه يعبدون الله خالصا، و فرقه يعبدون الله رياء، و فرقه يعبدون الله يصيبون به دنيا - فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزتي و جلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت - و لا ترجع إليه انطلقوا به إلى النار، و يقول للذى يعبد الله رياء: بعزتي و جلالى ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء فيقول: إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها - لا يصعد إلى منها شيء و لا ينفعك اليوم - انطلقوا به إلى النار.

و يقول للذى كان يعبد الله خالصا: بعزتي و جلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول:

بعزتك و جلالك لأنك أعلم به منى - كنت أعبدك لوجهك و لدارك - قال: صدق عبدى

[سورة هود (١١): الآيات ١٧ الى ٢٤]

اشاره

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةٌ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
فَالذَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَزْمَ لَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ لَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

ظاهر الآيات أنها واقعه موقع التطيب لنفس النبي ص و تقويه إيمانه بكتاب الله و تأكيد ما عنده من البصيره فى أمره فالكلام جار على ما كان عليه من خطابه (ص) فقد كان وجه الكلام إليه حتى انتهى إلى ما اتهموه به من الافتراء على الله سبحانه فأمره أن يتحدى عليهم بإتيان عشر سور مثله مفتريات ثم أمره أن يطيب نفسا و يثبت على ما عنده من العلم بأنه منزل من عند الله فإنما هو على الحق و ليس بمفتر فلا يستوحش من إعراض الأكثرين و لا يرتاب.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً» الجملة تفریع على ما مضى من الكلام الذى هو فى محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا- من عند الله سبحانه، و«فَمَيْنَ» مبتدأ خبره محذوف و التقدير: كغيره، أو ما يؤدى معناه، و الدليل عليه قوله تلو: «أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

و الاستفهام إنكارى و المعنى: ليس من كان كذا و كذا كغيره ممن ليس كذلك و أنت على هذه الصفات فلا تك فى مريه من القرآن.

و قوله: «عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ» البينه صفة مشبهه معناها الظاهره الواضحه غير أن الأمور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ينضم إليها و يتعلق بها كالنور الذى هو بين ظاهر و يظهر به غيره، و لذلك كثر استعمال البينه فيما يتبين به غيره كالحجه و الآيه، و يقال للشاهد على دعوى المدعى بينه.

و قد سمي الله تعالى الحجه بينه كما فى قوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنِهِ:» الأنفال: -٤٢ و سمي آيته بينه كما فى قوله: «قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ:» الأعراف: -٧٣ و سمي البصيره الخاصه الإلهيه التى أوتيتها الأنبياء بينه كما فى قوله حكاية عن نوح (ع): «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ:» هود: -٢٨ أو مطلق البصيره الإلهيه كما هو ظاهر قوله تعالى :

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيَّنَّ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» سورة محمد: ١٤ وقد قال تعالى في معناه: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» الأنعام: ١٢٢.

و الظاهر أن المراد بالبينه في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقرينه قوله بعد:

«أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي ص فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله: «فَلَا تُكُفُّ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ».

فالمراد بها البصيره الإلهيه التي أوتيتها النبي(ع) لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا أن يتفرع عليه قوله: «فَلَا تُكُفُّ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ» وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بينه من الله من جهة كونه آيه منه تعالى كما في قوله :

«قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ» الأنعام: ٥٧ فإن المقام غير المقام.

و بما مر يظهر أن قول من يقول: إن المراد بمن كان إلخ، النبي خاصة إرادته استعماله ليس في محله و إنما هو مراد بحسب انطباق المورد. و كذا قول من قال:

إن المراد به المؤمنون من أصحاب النبي ص فلا دليل على التخصيص.

و يظهر أيضا فساد القول بأن المراد بالبينه هو القرآن، و كذا القول بأنها حجه العقل و أضيفت إلى الرب تعالى لأنه ينصب الأدله العقلية و النقلية. و وجه فساده أنه لا دليل على التخصيص و لا تقاس البينه القائم للنبي(ع) من ناحيته تعالى بالتعريف الإلهي القائم لنا من ناحيه العقول.

و قوله تعالى: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» المراد بالشهادة تأديه الشهاده التي تفيد صحه الأمر المشهود له دون تحملها فإن المقام مقام تثبيت حقيه القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض ما أيقن بحقيه القرآن و كان على بصيره إلهيه من أمره فآمن به عن بصيرته و شهد بأنه حق منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهادته الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر و تفرد فيه ربما أوحشه التفرد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به أما إذا قال به غيره من الناس و أيد نظره في ذلك زالت

عنه الوحشه و قوى قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى فى قوله :

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ:» الأحقاف: ١٠.

و على هذا فقوله: «يَتْلُوهُ» من التلو لا- من التلاوه، و الضمير فيه راجع إلى «فَمَنْ» أو إلى «بَيْنَهُ» باعتبار أنه نور أو دليل، و مآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينه يلى بينته كما يلى نفسه و الضمير فى قوله: «مِنْهُ» راجع إلى «فَمَنْ» دون قوله: «رَبِّهِ» و عدم رجوعه إلى البينه ظاهر و محصل المعنى:

من كان على بصيره إلهيه من أمر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحه أمره و استقامته.

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد فى روايات الفريقين أن المراد بالشاهد على (ع) إن أريد به أنه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الإراده الاستعماليه.

و للقوم فى معنى الجملة أقوال شتى فقيل: إن «يتلو» من التلاوه كما قيل:

إنه من التلو، و قيل: إن الضمير فى «يَتْلُوهُ» راجع إلى «بَيْنَهُ» كما قيل: إنه راجع إلى «فَمَنْ».

و قيل: المراد بالشاهد القرآن: و قيل: جبرائيل يتلو القرآن على النبى ص و لعله مأخوذ من قوله تعالى: «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ:» النساء: ١٦٦، و قيل: الشاهد ملك يسد النبى ص و يحفظه القرآن، و لعله لنوع من الاستناد إلى الآيه المذكوره.

و قيل: الشاهد هو النبى ص و قد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا:» الأحزاب: ٤٥، و قيل: شاهد منه لسانه أى يتلو القرآن بلسانه.

و قيل: الشاهد على بن أبى طالب (ع)، و قد وردت به عدّه روايات من طرق الشيعة و أهل السنه.

و التأمل فى سياق الآيه و ظاهر جملها يكفى مثونه إبطال هذه الوجوه غير ما قدمناه من معنى الآيه فلا نطيل الكلام بالبحث عنها و المناقشه فيها.

وقوله تعالى: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً» الضمير راجع إلى الموصول أو إلى البيه على حد ما ذكرناه في ضمير «يَتْلُوهُ» والعمله حال بعد حال أى أفمن كان على بصيره إلهيه ينكشف له بها أن القرآن حق منزل من عند الله والحال أن معه شاهداً منه يشهد بذلك عن بصيره والحال أن هذا الذى هو على بيته سبقه كتاب موسى إماماً ورحمه أو قبل بيته التى منها القرآن أو هى القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهاديه إلى الحق كتاب موسى إماماً فليس هو أو ما عنده من البيه بدع من الأمر غير مسبوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوک من قبل يهدى إليه كتاب موسى.

و من هنا يظهر وجه توصيف كتاب موسى و هو التوراه بالإمام و الرحمه فإنه مشتمل على معارف حقه و شريعته إلهيه يؤتم به فى ذلك و يتنعم بنعمته، وقد ذكره الله بهذا الوصف فى موضع آخر من كلامه فقال: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ -X إلى أن قال X- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُفُّوا قَدِيمٌ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ:» الأحقاف:- ١٢.

و الآيات- كما ترى- أقرب الآيات مضمونها من الآيه المبحوث عنها تذكر أولاً: أن القرآن بينه إلهيه أو أمر قامت عليه بينه إلهيه ثم تذكر شهادته الشاهد من بنى إسرائيل عليه و تأيده بها ثم تذكر أنه مسبوق فيما يتضمنه من المعارف و الشرائع بكتاب موسى الذى كان إماماً و رحمه يأتى به الناس و يهتدون، و طريقاً مسلوکاً مجرباً، و القرآن كتاب مثله مصدق له منزل من عند الله لإنذار الظالمين و تبشير المحسنين.

و من هنا يظهر أيضاً: أن قوله: «إِمَامًا وَ رَحْمَةً» حال من كتاب موسى لا من قوله: «شَاهِدٌ مِنْهُ» على ما ذكره بعضهم.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالذَّارُ مَوْعِدُهُ» المشار إليهم بقوله: «أُولَئِكَ» بناء على ما تقدم من معنى صدر الآيه هم الذين كانوا

على بينه من ربهم المدلول عليهم بقوله: «أَفَمَنْ كَفَرَ» إلخ، و أما إرجاع الإشاره إلى المؤمنين لدلاله السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

و كذا الضمير فى قوله: «رَبِّهِ» راجع إلى القرآن من جهه أنه بينه منه تعالى أو أمر قامت عليه البينه، و أما إرجاعه إلى النبى ص فلا يلائم ما قررناه من معنى الآيه فإن فى صدر الآيه بيان حال النبى ص بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ» كأنه قيل: إنك على بينه كذا و معك شاهد و قبلك كتاب موسى، و من كان على هذه الصفه يؤمن بما أوتى من كتاب الله، و لا يصح أن يقال: و من كان على هذه الصفه يؤمن بك، و الكلام فى الضمير فى «وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ» كالكلام فى ضمير «يُؤْمِنُونَ بِهِ».

و أمر الآيه فيما يحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرهما عجيب فضرب بعضها فى بعض يرقى إلى ألوف من المحتملات بعضها صحيح و بعضها خلافه.

قوله تعالى: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» المرية كجلسه النوع من الشك، و الجملة تفریع على صدر الآيه، و المعنى أن من كان على بينه من ربه فى أمر و قد شهد عليه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من أمر الله و لا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده، و أنت كذلك فإنك على بينه من ربك و يتلوک شاهد و من قبلك كتاب موسى إماما و رحمه و إذا كان كذلك فلا تك فى مريه من أمر ما أنزل إليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

و قوله: «إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» تعليل للنهى و قد أكد بان و لام الجنس للدلاله على توافر الأسباب النافيه للمريه و هى قيام البينه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» إلى آخر الآيه، من الممكن أن يكون ذیلا للسياق السابق من حيث كان تطيبا لنفس النبى ص فيقول المعنى إلى أنك إذ كنت على بينه من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفتريا على الله

الكذب لأن المفترى على الله كذبا من أظلم الظالمين، ولهم من وبال كذبهم كذا و كذا.

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه أو نسبه شيء إليه بغير الحق أو بغير علم، و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم، و يعظم الظلم بعظم متعلقه حتى إذا انتهى إلى ساحه العظمه و الكبرياء كان من أعظم الظلم.

و الكلام واقع موقع قلب المدعوى عليهم إذ كانوا يقولون للنبي ص: إنه افترى على الله كذبا بنسبه القرآن إليه فقلب القول عليهم أنهم هم الذين افتروا على الله كذبا إذا أثبتوا له شركاء بغير علم و هو الله لا إله إلا هو، و إذ صدوا عن سبيل الله و معناه نفى كونه سبيلا لله و هو افتراء، و إذ طلبوا سبيلا أخرى فاستنوا بها في حياتهم و كان ذلك تغييرا لسبيل الله التي تهدي إليها الفطره و النبوه، و إذ كفروا بالآخره فنفوها و ذلك إثبات مبدإ من غير معاد و نسبه اللغو و فعل الباطل إليه تعالى و هو افتراء عليه.

و بالجملة انتحالهم بغير دين الله و نحلته، و أخذهم بالعقائد الباطله في المبدإ و المعاد و استنابهم بغير سنه الله في حياتهم الدنيويه الاجتماعيه- و الذى من الله إنما هو الحق و لا- سنه عند الله إلا دين الحق- افتراء على الله، و سيشهد عليهم الأشهاد بذلك يوم يعرضون على ربهم.

و قوله تعالى: «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» العرض إظهار الشيء ليرى و يوقف عليه، و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربهم يوم القيامة بظهور آياته و وضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سمى بوجه آخر بروزا منهم لله فقال: «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ» المؤمن: -١٦، و قال: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» إبراهيم: -٤٨ فقال: «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ» أى يأتى بهم الملائكه الموكلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

و قوله: «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيَّ رَبِّهِمْ» الأشهاد جمع شهيد كأشرف جمع شريف و قيل: جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، و يؤيد الأول قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ» النساء: -٤١ و قوله: «وَجَاءَتْ

كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: ق-٢١.

وقول الأَشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله أى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادته الأَشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلا الحق ولا مناص فيه عن الاعتراف والقبول كما قال تعالى: «لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا»: النبأ: ٣٨ وقال تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا»: آل عمران: ٣٠.

قوله تعالى: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» إلخ، تتمه قول الأَشهاد، والدليل عليه قوله تعالى: «فَأَذَنُ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ»: الأعراف: ٤٥.

وهذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تثبت منهم للبعد واللعن على الظالمين وتسجيل للعذاب، وليس اللعن والرحمة يوم القيامة كاللعن والرحمة فى الدنيا كما فى قوله تعالى: «أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ»: البقره: ١٥٩ وذلك أن الدنيا دار عمل ويوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنه أو رحمه هو إيصال ما ادخر لهم إليهم فلعن اللاعن أحدا يوم القيامة طرده من رحمه الله الخاصه بالمؤمنين وتسجيل عذاب البعد عليه.

ثم فسر سبحانه الظالمين بقوله حكاية عنهم: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» فهم الذين لا يدعون بيوم الحساب حتى يعملوا له وإنما يعملون للدنيا ويسلكون من طريق الحياه ما يتمتعون به للدنيا الماديه فحسب، وهو السنه الاجتماعيه غير المعنيه بما يريد الله من عبادته من دين الحق ومله الفطره فهؤلاء سواء اعتقدوا بصانع وعملوا بسننه محرفه منحرفه عن دين الفطره وهو الإسلام أم لم يعتقدوا به ممن يقول: إن هى إلا- حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ظالمون مفترون على الله الكذب، وقد تقدم بعض الكلام المتعلق بهذه المعانى فى سورة الأعراف آيه ٤٤-٤٥.

وقد بان مما تقدم من البحث فى الآيتين أولا: أن الدين فى عرف القرآن هو

و ثانيا: أن السنن الاجتماعيه إما دين حق فطرى و هو الإسلام أو دين محرف عن الدين الحق و سبيل الله عوجا.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» إلى آخر الآيه. الإشاره إلى المفترين على الله الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على أن المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض أنهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه فى حياتهم الأرضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على الله الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا- لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره الله سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته، و لا لأنهم خرجوا من ولايه الله فدخلوا فى ولايه غيره و هم الذين اتخذوهم أولياء من أصنامهم و كذا سائر الأسباب التى ركنوا إليها، و ذلك قوله: «وَمَا كَانُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

و بالجملة لا قدرتهم غلبت قدره الله سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم أولياء لأنفسهم أولياء لهم بالحقيقه يدبرون أمرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل الله سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و أعمالهم بما يجرمهم إلى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»؛ الصف:- ٥، و قال: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ»؛ البقره:- ٢٦.

و قوله: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه أو لأنهم عصوا الله بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»؛ النحل:- ٢٥ و قال: «وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ»؛ يس:- ١٢.

و قوله: «مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» فى مقام التعليل و لذا جىء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادته

الله و لا لأن لهم أولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعو ما يأتيهم من الإنذار و التبشير من ناحيته أو يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فى قوله :

«لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» الأعراف:- ١٧٩، و فى قوله: «وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» الأنعام:- ١١٠، و قوله: «حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً» البقرة:- ٧، و آيات أخرى كثيرة تدل على أنه تعالى سلبهم عقولهم و أعينهم و آذانهم غير أنه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم :

«وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ» الملك:- ١١، و اعترافهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع أن ذلك مستند إلى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على أنهم أنفسهم توسلوا إلى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: «وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» البقرة:- ٢٦ و غيره.

و ذكروا فى معنى قوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» وجوها أخرى:

منها: أن قوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» فى محل نصب بنزع الخافض و هو متعلق بقوله: يُضَاعَفُ «إِلْح»، و الأصل: بما كانوا يستطيعون السمع و بما كانوا يبصرون، و المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون و بما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون.

و منها: أنه عنى بقوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» نفى السمع و البصر عن آلهتهم و أوثانهم، و تقدير الكلام أولئك الكفار و آلهتهم لم يكونوا معجزين فى الأرض، و قال مخبرا عن الآلهة: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ».

و منها: أن لفظه ما فى «مَا كَانُوا» ليست للنفى بل تجرى مجرى قولهم:

لأواصلنك ما لاح نجم، و المعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء.

و منها: أن نفى السمع و البصر بمعنى نفى الفائدة فإنهم لاستثقالهم استماع آيات الله و النظر فيها و كراهيتهم لذلك أجروا مجرى من لا يستطيع السمع و لا يبصر

و أعدل الوجوه آخرها و هي جميعا سخيفه ظاهره السخافه و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: «[□]أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ [□]مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقه-و ذلك بتملكك من الله تعالى-إلا نفسه و إذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيعتها بالكفر و المعصيه فقد خسر في هذه المعامله التي أقدم عليها نفسه فخسران النفس كنايه عن الهلاك، و أما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا و افتراء ليس له وجود في الخارج من أوهامهم و مزاعمهم التي زينتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيويه و بانطواء بساط الحياه الدنيا يزول و ينمحي تلك الأوهام و يضل ما لاح و استقر فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون أن الله هو الحق المبين، و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى: «[□]لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الآخَسِرُونَ» عن الفراء: أن «لا جرم» في الأصل بمعنى لا بد و لا محاله ثم كثرت فحوت إلى معنى القسم و صارت بمعنى «حقا» و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا. انتهى، و قد ذكروا أن «جرم» بفتحين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظه «لا محاله» و تفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع أن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في «لا محاله» فمعنى الآيه على هذا: حقا إنهم في الآخره هم الأخسرون.

و وجه كونهم في الآخره هم الأخسرين أن فرض أنهم أخسر بالنسبه إلى غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخره كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا و يسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد، قال تعالى: «[□]الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ:» الأنعام:- ١٢. و قال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم و أبصارهم و قلوبهم: «[□]وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ:» يس:- ١٠. و قال أيضا في سبب عدم إمكان إيمانهم:

«[□]أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ:»
الجاثيه:- ٢٣.

و إن فرض أنهم أخسر بالنسبه إلى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم و صدهم عن سبيل الله حرموا سعادته الحياه التى يمهدها لهم الدين الحق فخسروا فى الدنيا كما خسروا فى الآخرة لكنهم فى الآخرة أخسر لكونها دائمه مخلده و أما الدنيا فليست إلا قليلا، قال تعالى: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ: الأحقاف:- ٣٥.

على أن الأعمال تشتد و تتضاعف فى الآخرة بنتائجها كما قال تعالى: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا:» إسرائ:- ٧٢، و أحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآيه حصر الأخرين فيهم دون إثبات أخسريتهم فى الآخرة قبال الدنيا.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَحَبُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» إلى آخر الآيه، قال الراغب فى المفردات: الخبت المظمن من الأرض و أحببت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات فى استعمال اللين و التواضع قال الله تعالى: وَ أَحَبُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، و قال: وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ أى المتواضعين نحو لا يستكبرون عن عبادته، و قوله: فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أى تلين و تخشع. انتهى.

فالمراد بإخباتهم إلى الله اطمئنانهم إليه بحيث لا يترزل ما فى قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون و لا يرتابون كالأرض المطمئنه التى تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل إن الأصل، أحبوا لربهم فإن ما فى معنى الاطمئنان يتعدى يالى دون اللام.

و تقييده تعالى الإيمان و العمل الصالح بالإخبات إليه يدل على أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنين و هم المطمئنون منهم إلى الله ممن هم على بصيره من ربهم، و هو الذى أشرنا إليه فى صدر الآيات عند قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ» إلخ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس و هم أهل البصيره الإلهيه و من عميت عين بصيرته.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن هذه الآيات السبع يعنى

قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ -إلى قوله- أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» بيان لحال الفريقين و هم الذين يكفرون بالقرآن و الذين يؤمنون به.

قوله تعالى: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» المثل هو الوصف، و غلب في المثل السائر و هو بيان معنى من المعانى الخفيه على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه و يتلقاه فهمه لينتقل به إلى المعنى المعقول المقصود بيانه، و المراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقه، و الباقي واضح.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن أحمد بن عمر الخلال قال: سألت أبا الحسن (ع) عن قول الله عز و جل: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» فقال: أمير المؤمنين (ع) هو الشاهد من رسول الله ص -و رسول الله على بينه من ربه.

و فى أمالى الشيخ، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين عن الحسن (ع): فى خطبه طويله خطبها بمحضر معاويه -منها- فأدت الأمور و أفضت الدهور -إلى أن بعث الله محمدا ص للنبوّه و اختاره للرساله، و أنزل عليه كتابه ثم أمره بالدعاء إلى الله عز و جل -فكان أبى أول من استجاب لله عز و جل و لرسله- و أول من آمن و صدق الله و رسوله، و قد قال الله عز و جل فى كتابه المنزل على نبيه المرسل: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» فرسول الله ص الذى على بينه من ربه، و أبى الذى يتلوه و هو شاهد منه. الخطبه.

أقول: و كلامه (ع) أحسن شاهد على ما قدمناه فى معنى الآية أن إرادته (ع) بالشاهد من باب الانطباق.

و فى بصائر الدرجات، بإسناده عن الأصمغ بن نباته قال: قال أمير المؤمنين (ع): لو كسرت لى الوساده فقعدت عليها -لقضيت بين أهل التوراه بتوراتهم و أهل

الإنجيل بإنجيلهم-و أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء يصعد إلى الله يزهر،و الله ما نزلت آيه في كتاب الله في ليل أو نهار-إلا و قد علمت فيمن أنزلت،و لا أحد ممن مر على رأسه المواسي-إلا و قد أنزلت آيه فيه من كتاب الله-تسوقه إلى الجنة أو النار-.

فقام إليه رجل فقال:يا أمير المؤمنين-ما الآية التي نزلت فيك؟قال:أ ما سمعت الله يقول:« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ-وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ »فرسول الله ص على بينه من ربه-و أنا الشاهد له و منه:

أقول:و روى هذا المعنى المفيد في الأمالي،مسندا و في كشف الغمه،مرسلا عن عباد بن عبد الله الأسدي عنه(ع)،و العياشي في تفسيره مرسلا عن جابر عن عبد الله بن يحيى عنه(ع)و كذا ابن شهر آشوب عن الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عنه(ع)و كذا عن الأصبغ و عن زين العابدين و الباقر و الصادق(ع) عنه(ع) .

و في الدر المنثور،أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في المعرفه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفه من القرآن-فقال له رجل:ما نزل فيك؟قال:أ ما تقرأ سورة هود« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ »رسول الله ص على بينه من ربه،و أنا شاهد منه:

أقول:و في تفسير البرهان،عن تفسير الثعلبي بإسناده عن الشعبي يرفعه إلى علي(ع)مثله و فيه عن ابن المغازلي يرفعه إلى عباد بن عبد الله عن علي(ع)مثله.

و كذا عن كنوز الرموز للرسعني مثله .

و فيه،أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي رضي الله عنه قال:قال رسول الله ص: « أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ »أنا» وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ قال:علي:

أقول:و في تفسير البرهان،عن ابن المغازلي في تفسير الآية عن النبي ص مثله .

و في تفسير البرهان،عن ابن المغازلي بإسناده عن علي بن حابس قال:" دخلت أنا و أبو مریم علی عبد الله بن عطاء-قال أبو مریم:حدث علينا الحديث الذي حدثتني به عن أبي جعفر-قال:كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر علينا ابن عبد الله بن سلام-

قلت: جعلت فداك هذا ابن الذي عنده علم الكتاب، قال: لا و لكنه صاحبكم علي بن أبي طالب- الذي نزلت فيه آيات من كتاب الله تعالى: « مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » « أَمْ مَنْ كَانَ عَلِيًّا بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ - وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ - وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا » .

و فيه، عن ابن شهر آشوب عن الحافظ أبي نعيم بثلاثة طرق عن ابن عباس قال: قال سمعت عليا يقول: قول الله تعالى: « أَمْ مَنْ كَانَ عَلِيًّا بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ - وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » رسول الله ص علي بينه - و أنا الشاهد.

و فيه، أيضا عن موفق بن أحمد قال: " قوله تعالى: « أَمْ مَنْ كَانَ عَلِيًّا بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ - وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » قال ابن عباس: هو علي - يشهد للنبي ص و هو منه.

أقول:

و رواه عن الثعلبي في تفسيره يرفعه إلى ابن عباس: " « أَمْ مَنْ كَانَ عَلِيًّا بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » علي خاصة.

أقول: قال صاحب المنار، في تفسير الآية عند ذكر معاني الشاهد: و منها:

أنه علي رضي الله عنه ترويه الشيعة و يفسرونه بالإمامه، و روى: أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره و فسره بأنه لسانه (ص)، و قابلهم خصومهم بمثلها فقالوا:

أنه أبو بكر، و هما من التفسير بالهوى. انتهى أما قوله: «إن الشيعة ترويه» فقد عرفت أن رواته من أهل السنه أكثر من الشيعة، و أما قوله: «إنه مثل تفسيره بأبي بكر من التفسير بالهوى» فيكفيك في ذلك ما تقدم في معنى الآية فراجع.

و في الكافي، بإسناده عن زيد الشحام عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له:

إن عندنا رجلا يقال له: كليب - فلا يجيء عنكم شيء إلا قال: أنا أسلم فسميانه كليب تسليم - قال: فترحم عليه ثم قال: أتدرون ما التسليم؟ فسكتنا فقال: هو و الله الإخبات - قول الله عز و جل: « الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ - وَ أَحْبَبُوا إِلَيَّ رَبَّهُمْ »: أقول: و روى مثله العياشي في تفسيره و الكشي و كذا صاحب البصائر عن أبي أسامة زيد الشحام عنه (ع).

ص: ١٩٦

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (۲۵) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (۲۶) فَقَالَ الْمَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِنَا بِالرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ
 نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (۲۷) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيتْ عَلَيْكُمْ أَنْ نُنزِلُكُمْ هَاهُنَا
 كَارِهُونَ (۲۸) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ
 قَوْمًا تَجْهَلُونَ (۲۹) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
 وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱)
 فَأَلْوَا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قَالَ إِنَّمَأْيَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ
 بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ
 يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵)

شروع فى قصص الأنبياء(ع)وقد بدأ بنوح وعقبه بجماعه ممن بعده كهود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب و موسى(ع).وقد قسم قصه نوح إلى فصول أولها احتجاجه(ع)على قومه فى التوحيد فهو(ع)أول الأنبياء الناهضين للتوحيد على الوثنيه على ما ذكره الله تعالى فى كتابه،و أكثر ما قص من احتجاجه (ع)مع قومه من المجادله بالتى هى أحسن و بعضه من الموعظه و قليل منه من الحكمة و هو الذى يناسب تفكر البشر الأولى و الإنسان القديم الساذج و خاصه تفكرهم الاجتماعى الذى لا ظهور فيه إلا للمركوم من أفكار الأفراد المتوسطين فى الفهم.

قوله تعالى: « وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » القراءه المعروفه « إِنِّي » بكسر الهمزه على تقدير القول و قرئ أنى بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدير بأنى لكم نذير مبين، و الجملة أعنى قوله: « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » على أى حال بيان إجمالى لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به إليهم إنذار مبين فهو نذير مبين.

فكما أنه لو قال: ما سألقيه إليكم من القول إنذار مبين كان بيانا لجميع ما أرسل به إليهم بأوجز كلمه كذا قوله: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه بيان سمه نفسه و هى أنه رسول من الله إليهم لينذرهم بعذاب الله، و ليس له من الأمر شىء أزيد من أنه واسطه يحمل الرساله.

قوله تعالى: « أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ». بيان ثان لما أرسل به أو بيان لقوله: « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » و مآل الوجهين واحد، و أن

على أى حال مفسره،و المعنى أن محصل رسالته النهى عن عباده غير الله تعالى من طريق الإنذار و التخويف.

و ذكر بعض المفسرين أن الجملة أعنى قوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا» إلخ، بدل من قوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» أو مفعول لقوله مبين. و لعل السياق يؤيد ما قدمناه.

و الظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة أو الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم: «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْزَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» الآية، فإنه ظاهر فى عذاب الاستئصال.

فهو(ع) كان يدعوهم إلى رفض عباده الأوثان و يخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم أى مؤلم و نسبه الإيلام إلى اليوم دون العذاب فى قوله:

«عَذَابٌ يَوْمٍ أَلِيمٍ» من قبيل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم يندفع ما ربما قيل: إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه فى خوفه(ع) من تعذيبهم المقطوع؟ و الخوف إنما يستقيم فى محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجملة كان(ع) يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، و إنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح(ع) بأن الله سبحانه هو الذى خلقهم و دبر شئون حياتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه(ع) فى سورة نوح. و إذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه و ليعبدوه وحده.

و هذه الحجج فى الحقيقة حجة برهانية مبنيه على اليقين لكنهم إنما كانوا يتلقونها حجة جدليه مبنيه على الظن لأنهم لسداجه أفهامهم كانوا يتوقعون سخط الرب و عذابه على المخالفه لأنهم يرونه وليا لأمرهم مصلحا لشأنهم فيقيسون أمره بأمر الأولياء من

الإنسان الحاكمين فى من دونهم من أفراد المجتمع الذين يجب الخضوع لمقامهم و التسليم لإرادتهم و لو استكبر عن الخضوع لهم و التسليم لإرادتهم من دونهم سخطوا عليهم و عاقبهم بما أجمعوا و تمردوا.

و على هذا القياس يجب إرضاء الرب أو الأرباب الذين يرجع إليهم أمر الكون و ولايه النظام الجارى فيه فيجب إرضاءه و إخماد نار غضبه بالخضوع له و التقرب إليه بتقديم القرابين و التضحية و سائر أنحاء العباده فهكذا كانوا يعتقدون و هو مبنى على الظن.

لكن مسأله نزول العذاب على الاستنكاف عن عباده الله تعالى و الاستكبار عن التسليم و الخضوع لساحه الربوبيه مسأله حقيقه يقينيه فإن من النواميس الكليه الجاربه فى الكون لزوم خضوع الضعيف للقوى و المتأثر المقهور للمؤثر القاهر فما قولك فى الله الواحد القهار الذى إليه مصير الأمور.

و قد أبدع الله سبحانه أجزاء الكون و ربط بعضها ببعض ثم أجرى الحوادث على نظام الأسباب و على ذلك يجرى كل شىء فى نظام وجوده فلو انحرف عما يخطه له سائر الأسباب من الخط أدى ذلك إلى اختلال نظامها و كان ذلك منازعه منه لها و عند ذلك ينتهض سائر الأسباب الكونيه من أجزاء الوجود لتعديل أمره و إرجاعه إلى خط يلائمها تدفع بذلك الشر عن نفسها فإن استقام هذا الجزء المنحرف عن خطه المخطوط له فهو و إلا حطمتها حاطمات الأسباب و نازلات النوائب و البلايا، و هذا أيضا من النواميس الكليه.

و الإنسان الذى هو أحد أجزاء الكون له فى حياته خط خطه له الصنع و الإيجاد فإن سلكه هداه إلى سعاده و وافق بذلك سائر أجزاء الكون و فتحت له أبواب السماء ببركاتها و سمحت له الأرض بكنوز خيراتها، و هذا هو الإسلام الذى هو الدين عند الله تعالى المدعو إليه بدعوه نوح و من بعده من الأنبياء و الرسل (ع).

و إن تخطاه و انحرف عنه فقد نازع أسباب الكون و أجزاء الوجود فى نظامها الجارى و زاحمها فى شئون حياتها فليتوقع مر البلاء و لينتظر العذاب و العناء فإن استقام فى أمره و خضع لإرادة الله سبحانه و هى ما تحطمه من الأسباب العامه فمن

المرجو أن تتجدد له النعمة بعد النقمه و إلا- فهو الهلاك و الفناء و إن الله لغنى عن العالمين، و قد تقدم هذا البحث فى بعض أجزاء الكتاب السابقه.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ إلى آخر الآيه، الفاء فى صدر الآيه لتفريع جوابهم عن قول نوح(ع)، و فيه إشاره إلى أنهم بادروه بالرد و الإنكار من دون أن يفكروا فى أنفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم.

و المجيئون هم الملاء- من قومه و الأشراف و الكبراء الذين كفروا به و لم يتعرضوا فى جوابهم لما ألقى إليهم من حجه التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفى رسالته و الاستكبار عن طاعته فإن قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إلى آخر الآيتين، كان مشتملا على دعوى الرساله و ملوحا إلى وجوب الاتباع و قد صرح به فيما حكى عنه فى موضع آخر، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا نوح: -٣.

و محصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو فى الحقيقه حجتان منظومتان على طريق الإضراب و الترقى و لذلك أخر قولهم: ﴿بَلْ نُنظِّنُكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

و الحججه الأولى التى مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينه بطرق ثلاث هى قوله: ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ إلخ، و قوله: ﴿وَ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أول جوابهم عما يدعيه نوح(ع) من الرساله، و قد تمسكوا فيه بالمماثله كما هو دأب سائر الأمم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى فى كتابه و تقريره: أنك مثلنا فى البشريه و لو كنت رسولا إلينا من عند الله لم تكن كذلك و لا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا، و إذ كنت بشرا مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك.

﴿وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا﴾ إلخ.

و الحججه بجميع أجزائها مبنيه على إنكار ما وراء الحس كما سنيين و لذلك كرروا فيه قولهم: ما نراك و نرى.

فقوله: ﴿مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أول جوابهم عما يدعيه نوح(ع) من الرساله، و قد تمسكوا فيه بالمماثله كما هو دأب سائر الأمم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى فى كتابه و تقريره: أنك مثلنا فى البشريه و لو كنت رسولا إلينا من عند الله لم تكن كذلك و لا نشاهد منك إلا أنك بشر مثلنا، و إذ كنت بشرا مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك.

ففى الكلام تكذيب لرسالته (ع) بأنه ليس إلا بشرا مثلهم ثم استنتاج من ذلك أنه لا دليل على لزوم اتباعه، والدليل على ما ذكرنا قول نوح (ع) فيما سيحكيه الله تعالى من كلامه: «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» إلخ.

وقد اشتبه الأمر على بعض المفسرين فقرر قولهم: «مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» بأنهم ساووه بأنفسهم فى الزنه الاجتماعيه واستتجوا منها أنه لا وجه لاتباعهم له، قال فى تفسير الآيه: أجابوه بأربع حجج داحضه. إحداها: أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم فى الجملة، وهذا يدل على أنه (ع) كان من طبقتهم أو ما يقرب منها فى بيته و فى شخصه و هكذا كان كل رسول من وسط قومه، و وجه الجواب أن المساواه تنافى دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر بجعل أحدهما تابعا طائعا و الآخر متبوعا مطاعا لأنه ترجيح بغير مرجح. انتهى.

ولو كان المعنى ما ذكره لكان من حق الكلام أن يقال: أنت مثلنا أو نراك مثلنا دون أن يقال: ما نراك إلا بشرا مثلنا فيذكر أنه بشر ولا حاجة إلى الإشارة إلى بشريته، و لكان معنى الكلام عائدا إلى المراد من قولهم بعد: و ما نرى لكم علينا من فضل، و كان فضلا من الكلام.

و من العجب استفادته من الكلام مساواته (ع) لهم فى البيت و الشخصيه ثم قوله: «و هكذا كان كل رسول من وسط قومه» و فى الرسل مثل إبراهيم و سليمان و أيوب (ع).

و قوله: «و مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ» قال فى المفردات: الرذل - بفتح الراء - و الرذال - بكسرها - المرغوب عنه لرداءته قال تعالى: «و مِنْكُمْ مَنْ يُرِدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ» و قال: «إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ» و قال: «قَالُوا أَوْ تَوْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ» جمع الأردل.

و قال فى المجمع: الرذل الخسيس الحقير من كل شىء و الجمع أَرْدَلٌ ثم يجمع على أَرَادِلٍ كقولك: كلب و أكلب و أكالب، و يجوز أن يكون جمع الأردل فيكون مثل أكابر جمع أكبر.

و قال: و الرأى الرؤيه من قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» أى رؤيه العين

و الرأى أيضا ما يراه الإنسان فى الأمر و جمعه آراء.انتهى.

و قال فى المفردات، و قوله: «بَادَى الرَّأْيِ» أى ما يبدأ من الرأى و هو الرأى الفطير، و قرئ: بادی بغير همزه أى الذى يظهر من الرأى و لم يترو فيه.انتهى.

و قوله: «بَادَى الرَّأْيِ» يحتمل أن يكون قيذا لقوله: «هُمُ أَرَادُوا أَنْ يَرَوْا» أى كونهم أراذل و سفله فىنا معلوم فى ظاهر الرأى و النظر أو فى أول نظره.

و يحتمل كونه قيذا لقوله: «اتَّبَعَكَ أى اتبعوك فى ظاهر الرأى أو فى أوله من غير تعمق و تفكر و لو تفكروا قليلا و قلبوا أمرك ظهرا لبطن ما اتبعوك، و هذا الاحتمال لا يستغنى عن تكرار الفعل ثانيا و التقدير: اتبعوك بادی الأمر و إلا اختل المعنى لو لم يتكرر و قيل: ما نراك اتبعك فى بادی الرأى إلا الذين هم أراذلنا.

و بالجمله معنى الآيه: أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناك ساويناهم و دخلنا فى زميرتهم و هذا ينافى شرافتنا و يحط قدرنا فى المجتمع، و فى الكلام إيماء إلى بطلان رسالته (ع) بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو كان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولوا القوه و الطول فلو استنكفوا عنه أو اتبعه الأخساء و الضعفاء كالعبيد و المساكين و الفقراء ممن لا حظ له من مال أو جاه و لا مكانه له عند العامه فلا خير فيه.

و قوله: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوى يختصون بالتنعم به أو شىء من الأمور الغيبيه كعلم الغيب أو التأيد بقوه ملكوتيه و ذلك لكون النكره-فضل-واقعه فى سياق النفى فتفيد العموم.

و قد أشركوا أتباع نوح (ع) و المؤمنين به منهم فى دعوته إذ قالوا: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا» و لم يقولوا: «و لا نرى لك» لأنهم كانوا يحثونهم و يرغبونهم فى اتباع ما اتبعوه من الطريقه.

و المعنى أن دعوتكم إيانا-و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياه الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوه-إنما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شىء من الفضل تفضلون به علينا من زينه الحياه الدنيا أو علم من الغيب أو قوه من الملكوت حتى يوجب

ذلك خضوعاً منا لكم ولا نرى شيئاً من ذلك عندكم فأى موجب يوجب علينا اتباعكم؟.

وإنما عممنا الفضل في كلامه للفضل من حيث الجهات المادية وغيره كعلم الغيب والقوه الملكوتيه خلافاً لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادى كالمال والكثرة وغيرهما، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكره فى سياق النفى.

مضافاً إلى أن ما يحاذى قولهم هذا من جواب نوح(ع) يدل على ذلك وهو قوله: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» إلخ على ما سيأتى.

وقوله تعالى: «بَلْ نُنَظُّكُمْ كَازِبِينَ» إضراب فى الاحتجاج كما تقدمت الإشارة إليه فمحصله أنا لا نرى معكم أمراً يوجب اتباعنا لكم بل هناك أمر يوجب عدم الاتباع وهو أنا نظنكم كاذبين.

ومعناه على ما يعطيه السياق—والله أعلم—أنه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحه دعوتكم وأنكم تلحون علينا بالسمع والطاعة وأنتم صفر الأيدى من مزايا الحياه من مال وجاه وهذه الحال تستدعى الظن بأنكم كاذبون فى دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من أمانى الحياه بهذه الوسيله وبالجملة هذه أماره توجب عاده الظن بأنها أكذوبه يتوسل بها إلى اقتناء الأموال والقبض على ثروه الناس والاستعلاء عليهم بالحكم والرئاسه، وهذا كما حكى الله سبحانه عنهم فى مثل القصة إذ قال: «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ:» المؤمنون: - ٢٤. وبهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم، وأن المراد بالكذب الكذب المخبرى دون الخبرى.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» إلى آخر الآيه بيان لما أجاب به نوح(ع) عن حجتهم إلى تمام أربع آيات، والتعميه الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أخفيت عليكم من ناحيه جهلكم و كراحتكم للحق. و قرئ عميت بالتخفيف و البناء للفاعل أى خفيت عليكم تلك الرحمه.

لما كانت حجتهم مبنيه على الحس و نفى ما وراءه و قد استنتجوا منها أولاً

عدم الدليل على وجوب طاعته واتباعه ثم أضربوا عنه بالترقى إلى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم أجابهم(ع) بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته و ما يتبعه، و نفى ما حاولوا إثباته باتهامه و اتهام أتباعه بالكذب غير أنه استعطفهم بخطاب يا قوم-بالإضافة إلى ضمير التكلم-مره بعد مره ليجلبهم إليه فيقع نصحه موقع القبول منهم.

و قد أبدع الآيات الكريمة فى تقرير حجته(ع) فى جوابهم فقطعت حجتهم فصلا فصلا و أجابت عن كل فصل بوجهيه أعنى من جهه إنتاجه أن لا دليل على اتباعه(ع) و أن الدليل على خلافه و ذلك قوله: «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ» إلخ، و قوله: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» إلخ، و قوله: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» إلخ، ثم أخذت من كل حجه سابقه شيئا يجرى مجرى التلخيص فإضافته إلى الحججه اللاحقه بادئه به فامتزجت الحججه بالحجه على ما لكل منها من الاستقلال و التمام.

فتمت الحجج ثلاثا كل واحده منها مبدوءه بالخطاب و هى قوله: «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ» إلخ، و قوله: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» إلخ، و قوله:

«وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ» إلخ، فتدبر فيها.

فقوله: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» جواب عن قولهم:

«مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» يريدون به أنه ليس معه إلا البشره التى يماثلهم فيها و يماثلونه فبأى شىء يدعى وجوب اتباعهم له؟ بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرساله أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفى رسالته و سندهم فى ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرساله و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فى دعوى الرساله و هو الآيه المعجزه الداله على صدق الرسول فى دعوى الرساله فإن الرساله نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاربه لا طريق إلى العلم بتحقيقه إلا بوقوع أمر غيبى آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فى دعواه الرساله، و لذلك أشار(ع) بقوله: «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ»

«إلى أن معه بينه من الله و آيه معجزه تدل على صدقه في دعواه.

و من هنا يظهر أن المراد بالبينه الآيه المعجزه التي تدل على ثبوت الرساله لأن ذلك هو الذى يعطيه السياق فلا يعبا بما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالبينه فى الآيه العلم الضرورى الذى يعلم به النبى أنه نبى و ذلك لكونه معنى أجنبيا عن السياق.

و قوله: «وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ» الظاهر أنه (ع) يشير به إلى ما آتاه الله تعالى من الكتاب و العلم، و قد تكرر فى القرآن الكريم تسميه الكتاب و كذا تسميه العلم بالله و آياته رحمه قال تعالى: «وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً:» هود:- ١٧، و قال: «وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً:» النحل:- ٨٩، و قال: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا:» الكهف:- ٦٥، و قال: «رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً:» آل عمران:- ٨.

و أما قوله: «فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ» فالظاهر أن ضميره راجع إلى الرحمه، و المراد أن ما عندى من العلم و المعرفه أخفاها عليكم جهلكم و كراحتكم للحق بعد ما ذكرتكم به و بثنته فيكم.

و قوله: «أَنْزَلْنَاهُمْ هَاهُنَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» الإلزام جعل الشىء مع الشىء بحيث لا يفارقه و لا ينفك منه، و المراد بإلزامهم الرحمه و هم لها كارهون إجبارهم على الإيمان بالله و آياته و التلبس بما يستدعيه المعارف الإلهيه من النور و البصيره.

و معنى الآيه-و الله أعلم-أخبرونى إن كانت عندى آيه معجزه تصدق رسالتى مع كونى بشرا مثلكم و كانت عندى ما تحتاج إليه الرساله من كتاب و علم يهديكم الحق لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم و استكباركم أ يجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها؟ أى عندى جميع ما يحتاج إليه رسول من الله فى رسالته و قد أوقفتم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغيانا و استكبارا و ليس على أن أجبركم عليها، إذ لا إجبار فى دين الله سبحانه.

ففى الكلام تعريض لهم أنه قد تمت عليهم الحجه و بانت لهم الحقيقه فلم يؤمنوا

لكنهم مع ذلك يريدون أمرا يؤمنون لأجله و ليس إلا- الإجبار و الإلزام على كراهيه، فهم فى قولهم: لا نراك إلا بشرا مثلنا، لا يريدون إلا الإجبار، و لا إجبار فى دين الله.

و الآيه، من جمله الآيات النافية للإكراه فى الدين تدل على أن ذلك من الأحكام الدينيه المشرعه فى أقدم الشرائع و هى شريعته نوح(ع) و هو باق على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ.

و قد ظهر مما تقدم أن الآيه، أعنى قوله: «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ» إلخ، جواب عن قولهم: «مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» و يظهر بذلك فساد قول بعضهم:

إنه جواب عن قولهم: «بَلْ نُنظِّكُم كَاذِبِينَ» و قول آخرين: إنه جواب عن قولهم:

«مَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَابِ الرَّأْيِ» و قول طائفه أخرى أنه جواب عن قولهم: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» و لا نطيل الكلام بالتعرض لتوضيحها و ردها.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب و لازمه أن تكون دعوته طريقا إلى جلب أموالهم و أخذ ما فى أيديهم طمعا فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئا من أموالهم لم يكن لهم أن يتهموه بذلك.

قوله تعالى: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» جواب عن قولهم: «وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَابِ الرَّأْيِ» و قد بدل لفظه الأراذل- و هى لفظه إرزاء و تحقير- من قوله: الذين آمنوا تعظيما لأمر إيمانهم و إشاره إلى ارتباطهم بربهم.

نفى فى جوابه أن يكون يطردهم و علل ذلك بقوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» إيذانا بأن لهم يوما يرجعون فيه إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير أو شر فحاسبهم على ربهم و ليس لغيره من الأمر شيء، فليس على نوح(ع) أن يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء و المساكين و الضعفاء أن يطردوا من مجتمع الخير و يسلبوا النعمه و الشرافه و الكرامه.

فظهر أن المراد بقوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» الإيمان إلى محاسبه الله سبحانه

إياهم يوم يرجعون فيه إليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى فى قوله تعالى :

«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ»: الأنعام: -٥٧.

و أما قول من قال: إن معنى قوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» إنه لا- يطردهم لأنهم ملاقوا ربهم فيجازى من ظلمهم و طردهم، أو أنهم ملاقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل و كيف يجوز طردهم و هم لا- يستحقون ذلك، فبعيد عن الفهم. على أن أول المعنيين يجعل الآية التالية أعنى قوله: «وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ» الآية زائده مستغنى عنها كما هو ظاهر.

و ظهر أيضا أن المراد بقوله: «وَلِكُنِّي أَرَاكُمُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» جهلهم بأمر المعاد و أن الحساب و الجزاء إلى الله لا إلى غيره، و أما ما ذكره بعضهم أن المراد به الجهالة المضادة للعقل و الحلم أى تسفهون عليهم أو المراد أنكم تجهلون أن حقيقه الامتياز بين إنسان و إنسان باتباع الحق و عمل البر و التحلى بالفضائل لا بالمال و الجاه كما تظنون فهو معنى بعيد عن السياق.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» النصر مضمن معنى المنع أو الإنجاء و نحوهما و المعنى من يمنعنى أو من ينجينى من عذاب الله إن طردتهم أفلا- تتذكرون أنه ظلم، و الله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم و ينتقم منه، و العقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوى بين الظالم و المظلوم، و لا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوؤه و يشفى به غليل صدر المظلوم و الله عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَغْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» جواب عن قولهم: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» يرد عليهم قولهم بأنى لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعون منى أن أدعيه بما أنى أدعى الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل بإغناء الفقير و شفاء العليل و إحياء الموتى و التصرف فى السماء و الأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء و كيف شاء.

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه إلى نفسه، و يدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجمله يستكثر من الخيرات و يصاب من المكاره.

و أن يرتفع عن درجه البشريه إلى مقام الملكيه أى يكون ملكا منزها من ألواث الطبيعه و مبرى من حوائج البشريه و نقائصها فلا يأكل و لا يشرب و لا ينكح و لا يقع فى تعب اكتساب الرزق و اقتناء لوازم الحياه و أمتعتها.

فهذه هى جهات الفضل التى ترعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها، و قد أخطأتم فليس للرسول إلا الرساله و إنى لست أدعى شيئا من ذلك فلا أقول لكم عندى خزائن الله و لا أعلم الغيب و لا أقول إنى ملك، و بالجمله لست أدعى شيئا من الفضل الذى تتوقعونه حتى تكذبونى بفقده، و إنما أقول إنى على بينه من ربي تصدق رسالتى و آتانى رحمه من عنده.

و المراد بقوله: «خَزَائِنُ اللَّهِ» جميع الذخائر و الكنوز الغيبية التى ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون إليه فى وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تميم نقائصهم و تكميلها.

فهاتيك هى التى ترعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلكون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبى ص و قد حكاه الله تعالى إذ يقول: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَسِيفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ سَبِيلًا أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَعْوِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا: إسرء: -٩٣.

و إنما قال: «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» و لم يقل: و لا- أقول إنى أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضمن به و لا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل: لا أقول

إني أعلم الغيب نافيا لوجوده عند القائل بل يحتاج إلى أن يقال: لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله: «لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» وقوله: «وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ»، ولم يكرر قوله: «لَكُمْ» لحصول الكفاية بالواحدة.

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمد ص أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح (ع) قومه ثم ذيله بما يظهر به المراد إذ قال: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَفَكَّرُونَ:» الأنعام: -٥٠.

انظر إلى قوله: «لَا أَقُولُ لَكُمْ» إلخ، ثم إلى قوله: «إِنْ أَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» ثم إلى قوله: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ» إلخ، فهو ينفي أولا- الفضل الذي يتوقعه عامه الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادر إلى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة إليه كالأعمى بالنسبة إلى البصير وهذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير، وهو المجوز له أن يدعوهم إلى اتباعه.

(كلام في قدره الأنبياء والأولياء فلسفي قرآني)

الناس في جهل بمقام ربهم وغفلة عن معنى إحاطته وهيمته فهم مع ما تهديهم الفطره الإنسانيه إلى وجوده وأحديته يسوقهم الابتلاء بعالم المادة والطبيعه والتوغل في الأحكام والقوانين الطبيعیه ثم السنن والنواميس الاجتماعیه والأنس بالكثرة والبينونه إلى قياس العالم الربوبی بما ألفوا من عالم المادة فالله سبحانه عندهم مع خلقه كجبار من جبابره البشر مع عبيده ورعيته.

فهناك فرد من الإنسان نسميه مثلا ملكا أو جبارا دونه وزراء و أمراء و الجنديون و الجلاوزه يجرون ما يأمر به أو ينهى أنه و له عطايا و مواهب لمن شاء و إرادته و كراهه و أخذ و رد و قبض و إطلاق و رحمه و سخط و قضاء و نسخ إلى غير ذلك.

و كل من الملك و خدمه و أياديه العماله و رعاياه و ما يدور بأيديهم من النعم و أمتعته الحياه أمر موجود محدود مستقل الوجود منفصله عن غيره إنما يرتبط بعضهم ببعض بأحكام و قوانين و سنن اصطلاحيه لا موطن لها سوى ذهن الذاهن و اعتقاد المعتقد.

و قد طبقوا العالم الربوبى أعنى ما يخبر به النبوه من مقام الرب تعالى و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله على هذا النظام فهو تعالى يريد و يكره و يعطى و يمنع و يدبر نظام الخلقه كما يفعل ذلك الواحد منا المسمى ملكا، و هو محدود الوجود منعزل الكون و كل من ملائكته و سائر خليقته مستقل الوجود يملك ما عنده من الوجود و النعم الموهوبه دون الله سبحانه، و قد كان تعالى فى أزل الزمان وحده لا شىء معه من خلقه ثم أبدع فى جانب الأبد الخلق فكانوا معه.

فقد أثبتوا- كما ترى- موجودا محدودا منطبق الوجود على الزمان غير أن وجوده الزمانى دائمى، و له قدره على كل شىء، و علم بكل شىء، و إرادته لا تنكسر و قضاء لا ترد، مستقل بما عنده من الصفات و الأعمال كما مستقل الواحد منا فيملك ما عنده من الحياه و العلم و القدره و غير ذلك فحياته حياه له و ليست لله، و علمه علمه لا علم الله، و قدرته قدرته لا قدره الله و هكذا، و إنما يقال لوجودنا أو حياتنا أو علمنا أو قدرتنا أنها لله كما يقال لما عند الرعيه من النعمه أنها للملك بمعنى أنها كانت عنده فأخرجها من عنده و وضعها عندنا نتصرف فيها فجميع ذلك- كما ترى- يقوم على أساس المحدوديه و الانعزال.

لكن البراهين اليقينييه تقضى بفساد ذلك كله فإنها تحكم بسرمان الفقر و الحاجه إلى الموجودات الممكنه فى ذواتها و آثار ذواتها و إذا كانت الحاجه إليه تعالى فى مقام الذات استحال الاستقلال عنه و الانعزال منه على الإطلاق إذ لو فرض استقلال لشىء منه تعالى فى وجوده أو شىء من آثار وجوده- بأى وجه فرض فى حدوث أو بقاء- استغنى عنه من تلك الجبهه و هو محال.

فكل ممكن غير مستقل فى شىء من ذاته و آثار ذاته، و الله سبحانه هو الذى مستقل فى ذاته و هو الغنى الذى لا يفتقر فى شىء و لا يفقد شيئا من الوجود و كمال

الوجود كالحياه و القدره و العلم فلا حد له يتحدد به. و قد تقدم بعض التوضيح لهذه المسأله فى ذيل تفسير قوله تعالى: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ»: المائدة: ٧٣.

و على ما تقدم كان ما للممكن من الوجود أو الحياه أو القدره أو العلم متعلق الوجود به تعالى غير مستقل منه بوجه، و لا فرق فى ذلك بين القليل و الكثير ما كانت خصيصه عدم الاستقلال محفوظه فيه فلا مانع من فرض ممكن له علم بكل شىء أو قدره على كل شىء أو حياه دائمه ما دام غير مستقل الوجود عن الله سبحانه و لا منجزل الكون منه كما لا مانع من تحقق الممكن مع وجود موقت ذى أمد أو علم أو قدره متعلقين ببعض الأشياء دون بعض. نعم فرض الاستقلال يبطل الحاجه الإمكانيه و لا فرق فيه بين الكثير و القليل كما عرفت، هذا من جهه العقل.

و أما من جهه النقل فالكتاب الإلهى و إن كان ناطقا باختصاص بعض الصفات و الأفعال به تعالى كالعلم بالمغيبات و الإحياء و الإماتة و الخلق كما فى قوله: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ»: الأنعام: ٥٩، و قوله: «وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا»: النجم: ٤٤، و قوله «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»: الزمر: ٤٢، و قوله :

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»: الزمر: ٦٢، إلى غير ذلك من الآيات لكنها جميعا مفسره بآيات آخر كقوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ»: الجن: ٢٧، و قوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ»: الم السجده: ١١، و قوله عن عيسى (ع): «وَ أَحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ»: آل عمران: ٤٩، و قوله: «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي»: المائدة: ١١٠ إلى غير ذلك من الآيات.

و انضمام الآيات إلى الآيات لا يدع شكاً فى أن المراد بالآيات النافيه اختصاص هذه الأمور به تعالى بنحو الأصالة و الاستقلال و المراد بالآيات المثبتة إمكان تحققها فى غيره تعالى بنحو التبعية و عدم الاستقلال.

فمن أثبت شيئاً من العلم الممكنون أو القدره الغيبيه أعنى العلم من غير طريق الفكر و القدره من غير مجراها العادى الطبيعى لغيره تعالى من أنبيائه و أوليائه

كما وقع كثيرا في الأخبار والآثار و نفى معه الأصالة و الاستقلال بأن يكون العلم و القدره مثلا له تعالى و إنما ظهر ما ظهر منه بالتوسيط و وقع ما وقع منه بإفاضته وجوده فلا حجر عليه.

و من أثبت شيئا من ذلك على نحو الأصالة و الاستقلال طبق ما يثبتته الفهم العامى و إن أسنده إلى الله سبحانه و فيض رحمته لم يخل من غلو و كان مشمو لا لمثل قوله: «لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ»: النساء: -١٧١.

[بيان]

قوله تعالى: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» قال في المفردات: زريت عليه عبه و أزريت به قصرت به و كذلك ازدرت به و أصله افتعلت قال: تزدري أعينكم أى تستقلهم تقديره تزدريهم أعينهم أى تستقلهم و تستهين بهم. انتهى.

و هذا الفصل من كلامه (ع) إشاره إلى ما كان يعتقد الملاء الذين كفروا من قومه و بنوا عليه سنه الأشرافيه و طريقه السياده، و هو أن أفراد الإنسان تنقسم إلى قسمين الأقوياء و الضعفاء، أما الأقوياء فهم أولوا الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العده، و أما الضعفاء فهم الباقون. و الأقوياء هم الساده فى المجتمع الإنسانى لهم النعمه و الكرامه، و لأجلهم انعقاد المجتمع، و غيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضحى منافعهم كالرعيه بالنسبه إلى كرسى الحكومه المستبده، و العبيد بالنسبه إلى الموالى، و الخدم و العمله بالنسبه إلى المخدومين و النساء بالنسبه إلى الرجال، و بالأخره كل ضعيف بالنسبه إلى القوى المستعلى عليه.

و بالجمله كان معتقدهم أن الضعيف فى المجتمع إنسان منحط أو حيوان فى صورته إنسان إنما يرد داخل المجتمع و يشاركهم فى الحياه ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كد يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامه مطرود عن حظيره الشرافه آيس من الرحمه و العنايه.

فهذا هو الذى كانوا يرونه و كان هو المعتمد عليه فى مجتمعهم، و قد رد نوح (ع) ذلك إليهم بقوله: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا».

ثم بين خطأهم في معتقدتهم بقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ» أي إن أعينكم إنما تزدريهم و تستحقهم و تستهين أمرهم لما تحس ظاهر ضعفهم و هوانهم، وليس هو الملاك في إحراز الخير و نيل الكرامة بل الملاك في ذلك و خاصة الكرامات و المثوبات الإلهية أمر النفس و تحليلها بحلى الفضيله و المنقبه المعنويه، و لا طريق لى و لا لكم إلى العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلا الله سبحانه فليس لى و لا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعاده.

ثم بين بقوله: «إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» السبب في تحاشيه عن هذا القول و معناه أنه قول بغير علم، و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه الإنسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين.

و هذا المعنى هو الذى يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: «وَ نَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» الأعراف: -٤٩.

و فى الكلام أعنى قول نوح(ع): «وَ لَا- أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» إلخ، تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيويه الاجتماعيه كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامه الدينيه و يقولون: إنهم لا يسعدون بدين و إنما يسعد به أشراف المجتمع و أقوياءهم، و فيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون.

و إنما عقب نوح(ع) قوله: «وَ لَا- أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» و هو ينفى فيه جهات الامتياز التى كانوا يتوقعونها فى الرسول عن نفسه، بقوله: «وَ لَا- أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» إلخ، مع أنه راجع إلى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملاء الحقوهم به فى قولهم:

« وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ».

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتباعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا و لا نرى لكم علينا من فضل أما أنت فليس معك ما يختص به الرسول من قدره ملكوتيه أو علم بالغيب أو أن تكون

ملكا منزها من ألوات الماده و الطبعه، و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الإنسانیه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه: أما أنا فلا أدعى شيئا مما تتوقعون من رسالتى فليست للرسول إلا الرساله و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم، و ملاك الكرامه الدينيه و الرحمه الإلهيه زكاء النفس و سلامه القلب دون الظاهر الذى تزدرية أعينكم فليست أقول: لن يؤتيهم الله خيرا، فإنه ظلم يدخلنى فى زمرة الظالمين.

قوله تعالى: «**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**» كلام ألقوه إلى نوح (ع) بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطال ما دعا إليه من الحق، و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم: «**بِمَا تَعِدُنَا**» ما أنذرهم به فى أول دعوته من عذاب يوم أليم.

و قد أورد الله سبحانه قولهم هذا فضلا من غير تفریع لأنهم إنما قالوه بعد ما لبث فيهم أمدا بعيدا يدعوهم إلى التوحيد و يخاصمهم و يحاجهم بفنون الخصام و الحجاج حتى قطع جميع معاذيرهم و أنار الحق لهم كما يدل عليه قوله تعالى فيما يحكى عنه (ع) فى دعائه: «**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا -X إلى أن قال X- ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**» نوح: - ٩ و فى سورة العنكبوت: «**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**»: العنكبوت: - ١٤.

فهذا الذى أوردته الله من حجاجه قومه و جوابهم فى شكل محاوره واحده إنما وقع فى مآت من السنين، و هو كثير النظر فى القرآن الكريم و لا بدع فيه فإن الذى يقتص ذلك هو الله سبحانه المحيط بالدهر و بكل ما فيه و الذى يسمعها بالوحى هو النبى ص و قد أوتى من سعه النظر ما يجتمع عنده أشتات الأمم و أطراف الزمان.

و المعنى -و الله أعلم- يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب، و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل يؤيسونه من أنفسهم فى الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل

الداعى الآيس من السمع و الطاعه و هو الشر الذى يهددهم به و يذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: « قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » لما كان قولهم: « فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدْنَا » إلخ، طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك إليه فإنما هو رسول، أجب عن اقتراحهم هذا أيضا- فى سياق قصر القلب- أن الإتيان بالعذاب ليس إلى بل إنما هو إلى الله فهو الذى يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذى وعدتكموه بأمره فهو ربكم و إليه مرجع أمركم كله، و لا يرجع إلى من أمر التدبير شىء حتى أن وعدى إياكم بالعذاب و اقتراحكم على بطلبه لا يؤثر فى ساحه كبريائه شيئا فإن يشأ يأتيكم به و أن لم يشأ فلا.

و من هنا يظهر أن قوله (ع): « إِنْ شَاءَ » من أطف القیود فى هذا المقام أفيد به حق التنزيه و هو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شىء و لا يقهره قاهر يفعل ما يشاء و لا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتى فى آخر السوره من الاستثناء فى قوله :

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ: » هود: -١٠٨.

و قوله: « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » تنزيه آخر لله سبحانه و هو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزى الذى ألقوه إليه (ع) فإن ظاهره أنهم لا يعبتون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: « وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » إلخ، قال فى المفردات: النصح تجرى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه -قال- و هو من قولهم نصحت له الود أى أخلصته و ناصح العسل خالصة أو من قولهم: نصحت الجلد خطته و الناصح الخياط و الناصح الخيط.

و قال أيضا: الغى جهل من اعتقاد فاسد، و ذلك أن الجهل قد يكون من الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا، و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد، و هذا النحو الثانى يقال له غى قال تعالى: « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى »، و قال:

وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ . انتهى.

و على هذا فالفرق بين الإغواء و الإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع

بقاء المقصد فى ذكر الضال، و الإغواء إخراجة منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلاً.

و الإرادة و المشيه كالمترادفتين، و هى من الله سبحانه تسبب الأسباب المؤديه لوجود شىء بالضروره فكون الشىء مراداً له تعالى أنه تم أسباب وجوده و أكملها فهو كائن لا- محاله، و أما أصل السببيه الجاربه فهى مراده بنفسها و لذا قيل: خلق الله الأشياء بالمشيه و المشيه بنفسها.

و بالجملة قوله: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي» إىخ، كأحد شقى الترديد و الشق الآخر قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» كأنه (ع) يقول: أمركم إلى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب و لا يدفع عذابه و لا يقهر مشيته شىء فلا أنتم معجزوه، و لا نصحى ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمه العذاب، و قيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

و الإغواء كالإضلال و إن لم يجز نسبتة إليه تعالى إذا كان إغواء ابتدائياً لكنه جائز إذا كان بعنوان المجازاه كان يعصى الإنسان و يستوجب به الغوايه فيمنعه الله أسباب التوفيق و يخليه و نفسه فيغوى و يضل عن سبيل الحق قال تعالى: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» البقره: -٢٦.

و فى الكلام إشاره إلى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبق بالإغواء الإلهى كما يلوح إليه قوله تعالى: «وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَسُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» إسرء: -١٦، و قال: «وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» حم السجده: -٢٥.

و قوله: «هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» تعليل لقوله: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي» إىخ، أو لقوله: «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» إى قوله - يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ « جميعاً و محصله أن أمر تدبير العباد إلى الرب الذى إليه يرجع الأمور، و الله سبحانه هو ربكم و إليه ترجعون فليس لى أن آتاكم بعذاب موعود، و ليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتاكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم و ليس لنصحى أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

وقد ذكروا في قوله: «إِنَّ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» وجوها من التأويل:

منها: أن المعنى يعاقبكم على كفركم، وقد سمي الله تعالى العذاب غيا في قوله: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا» مريم: -٥٩.

و منها: أن المراد إن كان الله يريد عقوبه إغوائكم الخلق و إضلالكم إياهم و من عاده العرب أن يسمى العقوبه باسم الشىء المعاقب عليه، و من هذا الباب قوله:

«اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» أى يعاقبهم على استهزائهم و قوله: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» آل عمران: -٥٤ أى عذبهم على مكرهم إلى غير ذلك.

و منها: أن الإغواء بمعنى الإهلاك فالمعنى يريد أن يهلككم فهو من قولهم:

غوى الفصيل إذا فسد من كثره شرب اللبن.

و منها: أن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين، و أن ما هم عليه بإرادة الله، و لو لا ذلك لغيره و أجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجب لقولهم و الإنكار لذلك أن نصحى لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون.

و أنت بالتأمل فيما قدمناه تعرف أن الكلام فى غنى من هذه التأويلات.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» أصل الجرم -على ما ذكره الراغب فى مفرداته- قطع الثمره من الشجره و أجرم أى صار ذا جرم، و أستعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم و فتحها بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصيه.

و الآيه، واقعه موقع الاعتراض، و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته على و ثنيه قومه و خاصه ما أورده الله تعالى فى هذه السوره من احتجاجه أشبه شىء بدعوه النبى ص، و احتجاجه على و ثنيه أمته.

و إن شئت زياده تصديق فى ذلك فارجع إلى سوره الأنعام- و هى فى الحقيقه سوره الاحتجاج- و قابل ما حكاه الله تعالى عن نوح فى هذه السوره ما أمر الله به النبى ص فى تلك السوره بقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ - إلى أن قال - وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاهِ

وَالْعَشِيِّ - إِلَى أَنْ قَالَ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ .

و لك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه ع في سورة نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام و في هذه السوره فتشاهد صدق ما ادعيناه.

و لهذه المشابهه و المناسبه ناسب أن يعطف بعد ذكر حجج نوح(ع) في إنذاره قومه بأمر من الله سبحانه على ما اتهموا النبي ص و رموه بالافتراء على الله، و هو لا يندرهم و لا يلقى إليهم من الحجج إلا كما أنذر به نوح(ع) و ألقاه من الحجج إلى قومه، و هذا كما ينذر رسول الملك قومه و المتمردين المستنكفين عن الطاعه و يلقى إليهم النصح و يتم عليهم الحجج فيرمونه بأنه مفتر على الملك و لا طاعه و لا وظيفه فيرجع إليهم بالنصح ثانيا، و يذكر لهم قصه رسول ناصح آخر من الملك إلى قوم آخرين نصح لهم بمثل ما نصح هو لهم فلم يتبصروا به فهلكوا فحيثما يذكر لهم حججه و مواعظه يبعثه الوجد و الأسف إلى أن يتذكر رميهم إياه بالافتراء فيأسف لذلك قائلا: إنكم ترمونني بالافتراء و لم أذكر لكم إلا ما بثه هذا الرسول في قومه من كلمه الحكمه و النصيحه لا جرم إن افتريته فعلى إجرامى و لا تقبلوا قولى غير أنى برىء من عملكم.

و قد عاد سبحانه إلى الأمر بمثل هذه المباره ثانيا في آخر السوره بعد إيراد قصص عدده من الرسل حيث قال: «وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَاءِ الرَّسُلِ مَا نُنبِئُ بِهِ فُؤَادَكَ - إلى أن قال X- وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» هود: ١٢٢.

و ذكر بعض المفسرين أن الآيه، من تمام القصة و الخطاب فيها لنوح، و المعنى أم يقول قوم نوح افتراه نوح قل يا نوح إن افتريته فعلى إجرامى و أنا برىء مما تجرمون، و على هذا فالكلام مشتمل على نوع التفات من الغيبه إلى الخطاب و هذا بعيد عن سياق الكلام غايته.

و في قوله: «وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلمات كما في قوله: «فَعَلَىٰ إِجْرَامِي» من إثبات الجرم و ذلك أن الذى

ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا(ع) لم يحتج بهذه الحجج و هي حقه، لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعه لا تقبل الكذب و هي تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا في رفض ما يهديهم إليه من الإيمان و العمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً، و النبي ص مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً و ليس بمفتر.

(بحث روائى)

في تفسير العياشى، عن ابن أبى نصر البنظلى عن أبى الحسن الرضا(ع) قال:

قال الله في نوح(ع) وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي - إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِحَ لَكُمْ - إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ «قال: الأمر إلى الله - يهدى و يضل.

أقول: قد مر بيانه

و في تفسير البرهان، " في قوله تعالى: «أم يقولون افتراه» الآية: "الشيباني في نهج البيان عن مقاتل قال: "إن كفار مكة قالوا: إن محمدا افترى القرآن. قال: "

و روى مثل ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع).

[سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩]

اشاره

وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعِ الْفُلَكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ بَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورَ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَيَأْوِي إِلَيَّ جَبَلٌ يَعْصِي مَنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَ قِيلَ بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَ نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنِّي وَعِيدُكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُسْمِنُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَىٰ أُمَّةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٍ سَنُنْتَعِمُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

تممه قصه نوح(ع) و هى تشتمل على فصول كإخباره(ع) بنزول العذاب على قومه، و أمره بصنع الفلك، و كيفية نزول العذاب و هو الطوفان، و قصه ابنه الغريق، و قصه نجاته و نجاه من معه لكنها جميعا ترجع من وجه إلى فصل واحد و هو فصل القضاء بينه(ع) و بين قومه.

قوله تعالى: « وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » الابتئاس من البؤس و هو حزن مع استكانه.

و قوله: « لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ آمَنَ » إيتاس و إقناط له(ع) من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك، و لذلك فرع عليه قوله: « فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » لأن الداعى إلى أمر إنما يبتئس و يغمم من مخالفه المدعويين و تمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان و الاستجابة لدعوته، و أما إذا يئس من إجابتهم فلا- يهتم بهم و لا- يتعب نفسه فى دعوتهم إلى السمع و الطاعة و الإلحاح عليهم بالإقبال إليه و لو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحججه و إبراز المعذره.

و على هذا ففى قوله: « فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » تسليه من الله لنوح(ع) و تطيب لنفسه الشريفة من جهه ما فى الكلام من الإشارة إلى حلول حين فصل القضاء بينه و بين قومه، و صيانته لنفسه من الوجد و الغم لما كان يشاهد من فعلهم به و بالمؤمنين به من قومهم من إيدائهم إياهم فى دهر طويل (مما يقرب من ألف سنه) لبث فيه بينهم.

و يظهر من كلام بعضهم أنه استفاد من قوله: « لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ آمَنَ » أن من كفر منهم فليس يؤمن بعد هذا الحين أبدا كما أن الذين آمنوا به ثابتون على إيمانهم دائمون عليه و فيه أن العناية فى الكلام إنما تعلقت ببيان عدم إيمان الكفار بعد ذلك فحسب و أما إيمان المؤمنين فلم يعن به إلا بمجرد التحقق سابقا و لا دلالة فى الاستثناء على أزيد من ذلك، و أما ثباتهم و دوامهم على الإيمان فلا دليل عليه.

و يستفاد من الآيه أولا: أن الكفار لا يعذبون ما كان الإيمان مرجوا منهم فإذا ثبتت فيهم ملكه الكفر و رجس الشرك حق عليهم كلمه العذاب.

و ثانيا: أن ما حكاه الله سبحانه من دعاء نوح بقوله: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْدُوا إِلَّا فَاَجْرًا كَفَّارًا:» نوح:- ٢٧ كان واقعا بين قوله: «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» إلخ، و بين قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» -إلى قوله -إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ».

و ذلك لأنه- كما ذكر بعضهم- لا سبيل إلى العلم بعدم إيمان الكفار في المستقبل من طريق العقل و إنما طريقه السمع بالوحي فهو(ع) علم أولا من وحيه تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن أن أحدا منهم لا يؤمن بعد ذلك و لا في نسلهم من سيؤمن بالله ثم دعا عليهم بالعذاب و ذكر في دعائه ما أوحى إليه فلما استجاب الله دعوته و أراد إهلاكهم أمره(ع) باتخاذ السفينه و أخبره أنهم مغرقون.

قوله تعالى: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» الفلك هي السفينه مفردها و جمعها واحد و الأعين جمع قله للعين و إنما جمع للدلاله على كثره المراقبه و شدتها فإن الجملة كناية عن المراقبه في الصنع.

و ذكر الأعين قرينه على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعنى قوله:

«وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» إلخ، حتى يكون وحيًا للحكم بل وحي في مقام العمل و هو تسديد و هدايه عمليه بتأييده بروح القدس الذي يشير إليه أن افعل كذا و افعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمه من آل إبراهيم ع بقوله: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ:» الأنبياء:- ٧٣، و قد تقدمت الإشاره إليه في المباحث السابقه و سيجيء إن شاء الله في تفسير الآيه.

و قوله: «وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» أي لا تسألني في أمرهم شيئا تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحكم حتم و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» في محل التعليل لقوله: «وَ لَا تُخَاطِبْنِي» إلخ، أو لمجموع قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» و يظهر أيضا أن قوله: «وَ لَا تُخَاطِبْنِي» إلخ، كناية عن الشفاعه.

و المعنى: و اصنع السفينه تحت مراقبتنا الكامله و تعليمنا إياك و لا تسألنى صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضى عليهم الغرق قضاء حتم لا مرد له.

قوله تعالى: « وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّخْرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسِيخْرُونَ » قال فى المجمع: السخريه إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، و منه التسخير لتذليل يكون استضعافا بالقهر، و الفرق بين السخريه و اللعب أن فى السخريه خديعه و استنقاصا و لا تكون إلا فى الحيوان و قد يكون اللعب بجماد، انتهى.

و قال الراغب فى المفردات: سخرت منه و استسخرته للهزم منه قال تعالى:

« إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسِيخْرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ » و قيل: رجل سخر - بالضم فالفتح - لمن سخر و سخره - بالضم فالسكون - لمن يسخر منه، و السخريه - بالضم - و السخريه - بالكسر - لفعل الساخر، انتهى.

و قوله: « وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية الحال الماضيه يمثل بها ما يجرى على نوح (ع) من إيذاء قومه و قيام طائفه منهم بعد طائفه على إهانته و الاستهزاء به فى عمل السفينه و صبره عليه فى جنب الدعوه الإلهيه و إقامة الحجج عليهم من غير أن يفشل و ينثنى.

و قوله: « كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّخْرُوا مِنْهُ » حال من فاعل يصنع و الملاء هاهنا الجماعه الذين يعاب بهم، و فى الكلام دلالة على أنهم كانوا يأتونه و هو يصنع الفلك جماعه بعد جماعه بالمرور عليه ساخرين، و أنه (ع) كان يصنعها فى مرأى منهم و ممر عام.

و قوله: « قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسِيخْرُونَ » فى موضع الجواب لسؤال مقدر كان قائلا - قال: فما ذا قال نوح (ع)؟ فقيل: « قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ » و لذا فصل الكلام من غير عطف.

و لم يقل (ع): إن تسخروا منى فإنى أسخر منكم ليدفع به عن نفسه و عن عصابه المؤمنين به و كأنه كان يستمد من أهله و اتباعه فى ذلك و كانوا يشاركونه فى

عمل السفينه و كانت السخرية تتناولهم جميعا فظاهر الكلام أن المأ كانوا يواجهون نوحا و من معه في عمل السفينه بسخرية نوح و رميه(ع)بالخيل و الجنون فيشمل هزؤهم نوحا و من معه و إن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلا نوحا فقط.

على أن الطبع و العاده يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه أيضا كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض و إن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوه، و لذا قيل:

« سَخِرُوا مِنْهُ » و لم يقل: سخروا منه و من المؤمنين.

و السخرية و إن كانت قبيحه و من الجهل إذا كانت ابتدائية لكنها جائزه إذا كانت مجازاه و بعنوان المقابله و خاصه إذا كانت تترتب عليها فائده عقلايه كإنفاذ العزيمه و إتمام الحجج قال تعالى: «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»: التوبه:- ٧٩، و يدل على اعتبار المجازاه و المقابله بالمثل في الآيه قوله: «كَمَا تَسْخَرُونَ».

قوله تعالى: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» السياق يقضى أن يكون قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تفريعا على الجملة الشرطيه السابقه «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و تكون الجملة المتفرعه هو متن السخرية التي أتى بها نوح(ع) و يكون قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» إلخ، متعلقا بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى: أن تسخروا منا فإننا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن أو أنتم؟ و هذه سخرية بقول حق.

و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا و هو الغرق الذي أخزاهم و أذلهم، و المراد بقوله: «وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» أى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق، هو عذاب النار في الآخرة، و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذى في الدنيا و الثانى هو عذاب الآخرة هو المقابله و تكرر العذاب-منكرا-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامه.

و ربما أخذ بعضهم قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تاما من غير ذكر متعلق العلم و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» إلخ،ابتداء كلام من نوح و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ» إلى آخر الآيه، يقال:

فار القدر يفور فورا و فورانا إذا غلا و اشتد غليانه،و فارت النار إذا اشتعلت و ارتفع لهيبها،و التنور تنور الخبز،و هو مما اتفقت فيه اللغتان:العربية و الفارسيه أو الكلمه فارسيه فى الأصل.

و فوران التنور نبع الماء و ارتفاعه منه،

و قد ورد فى الروايات: أن أول ما ابتداء الطوفان يومئذ-كان ذلك بتفجر الماء من تنور،و على هذا فاللام فى التنور للعهد يشار بها إلى تنور معهود فى الخطاب،و يحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم:«حمى الوطيس»إذا اشتد الحرب.

فقوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ»:أى كان الأمر على ذلك حتى إذا جاء أمرنا أى تحقق الأمر الربوبى و تعلق بهم و فار الماء من التنور أو اشتد غضب الرب تعالى قلنا له كذا و كذا.

و فى التنور أقوال أخر بعيده من الفهم كقول من قال إن المراد به طلوع الفجر و كان عند ذلك أول ظهور الطوفان،و قول بعضهم:إن المراد به أعلى الأرض و أشرفها أى انفجر الماء من الأمكنه المرتفعه و نجود الأرض،و قول آخرين:

إن التنور وجه الأرض هذا.

و قوله:«قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»أى أمرنا نوحا(ع)أن يحمل فى السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هى الذكر و الأنثى.

و قوله:«و أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»أى و احمل فيها أهلك و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم إلا من سبق عليه قولنا و تقدم عليه عهدنا أنه هالك،و كان هذا المستثنى زوجته الخائنه التى يذكرها الله

تعالى فى قوله: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا:»
التحرير:- ١٠. و ابن نوح الذى يذكره الله تعالى فى الآيات التاليه و كان نوح(ع) يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله و أنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

و قوله: «وَمَنْ آمَنَ وَمِمَّنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» أى و احمل فيها من آمن بك من قومك غير أهلك لأن من آمن به من أهله أمر بحمله بقوله: «وَأَهْلَكَ» و لم يؤمن به من القوم إلا قليل.

فى قوله: «وَمَا آمَنَ مَعَهُ» دون أن يقال: و ما آمن به تلويح إلى أن المعنى:

و ما آمن بالله مع نوح إلا- قليل، و ذلك أنسب بالمقام و هو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق، و الملاك فيه هو الإيمان بالله و الخضوع لربوبيته، و كذا فى قوله:

«إِلَّا قَلِيلٌ» دون أن يقال إلا قليل: منهم بلوغا فى استقلالهم إن من آمن كان قليلا فى نفسه لا بالقياس إلى القوم فقد كانوا فى نهايه القله.

قوله تعالى: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» قرئ مجراها بفتح الميم و هو مجرى السفينه و سيرها، و مجراها بضم الميم و هو إجراء السفينه و سيقاها، و مرساها بضم الميم مصدر ميمى مرادف الإرساء، و الإرساء الإثبات و الإيقاف، قال تعالى: «وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا:» النازعات:- ٣٢.

و قوله: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا» معطوف على قوله فى الآيه السابقه: «جَاءَ أَمْرُنَا» أى حتى إذا قال نوح إلخ، و خطابه لأهله و سائر المؤمنين أو لجميع من فى السفينه.

و قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا» تسميه منه(ع) يجلب به الخير و البركه لجرى السفينه و إرسائها فإن فى تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الأمور على اسم الله تعالى و ربطه به صيانته له من الهلاك و الفساد و اتقاء من الضلال و الخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور و الفناء و العى و العناء إليه فما تعلق به مصون لا محاله من تطرق عارض السوء.

فهو(ع) يعلق جرى السفينه و إرساءها باسم الله و هذان هما السبيان

الظاهران فى نجاه السفينه و من فيها من الغرق، و إنما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهيه من ركبها، و إنما تشمل العناية بشمول المغفره الإلهيه لخطايا ركبها و الرحمه الإلهيه لهم لينجوا من الغرق و يعيشوا على رسلهم فى الأرض، و لذلك علل (ع) تسميته بقوله: «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» أى إنما أذكر اسم الله على مجرى سفينتى و مرساها لأنه ربي الغفور الرحيم، له أن يحفظ مجراها و مرساها من الاختلال و التخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته و رحمته.

و نوح (ع) أول إنسان حكى الله سبحانه عنه التسميه باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو (ع) أول فاتح فتح هذا الباب كما أنه أول من أقام الحجج على التوحيد، و أول من جاء بكتاب و شريعته و أول من انتهض لتعديل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنسانى.

و ما قدمناه من معنى قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا» مبنى على ما هو الظاهر من كون الجملة تسميه من نوح (ع) و المجرى و المرسى مصدرين ميمين و ربما احتتمل كونه تسميه ممن مع نوح بأمره أو كون مجراها و مرساها اسمين للزمان أو المكان فيختلف المعنى.

قال فى الكشاف، فى الآية: يجوز أن يكون كلاما واحدا و كلامين: فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجرى و المرسى للوقت و إما لأنهما مصدران كالإجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم و مقدم الحاج، و يجوز أن يراد مكانا الإجراء و الإرساء، و انتصابهما بما فى بسم الله من معنى الفعل أو بما فيه من إرادته القول.

و الكلامان أن يكون بسم الله مجراها و مرساها جملة من مبتدأ و خبر مقتضبه (1) أى بسم الله إجراؤها و إرساؤها، يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال: بسم الله

ص: ٢٢٨

(١ - ١) اقتضاب الكلام ارتجاله و المراد من كون الجملة مقتضبه كونها ابتدائية أى كونها كلاما ابتدائيا من نوح مقطوعا عما قبله.

فجرت، و إذا أن ترسو قال: بسم الله فرست، و يجوز أن يقحم (١). الاسم كقوله: ثم اسم السلام عليكما و يراد بالله إجراؤها و إرساءها.

قال: و قرئ مجراها و مرساها (٢) بفتح الميم من جرى و رسى إما مصدرين أو وقتين أو مكانين، و قرأ مجاهد: مجريها و مرسياها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله.

قوله تعالى: « وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » الضمير للسفينه، و الموج اسم جنس كتمر أو جمع موجه - على ما قيل - و هى قطعه عظيمه ترتفع عن جمله الماء و فى الآية إشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحيثان كما قيل.

قوله تعالى: « وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن أبيه و المؤمنين فى مكان لا يقرب منهم، و لذلك قال: « وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ » و لم يقل: و قال نوح لابنه.

و المعنى: و نادى نوح ابنه و كان ابنه فى مكان منعزل بعيد منهم و قال فى ندائه:

يا بنى - بالتصغير و الإضافة دلالة على الإشفاق و الرحمة - اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم فى البلاء كما شاركهم فى الصحبه و عدم ركوب السفينه، و لم يقل (ع): و لا - تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن إلا باللفظ، و لذلك دعاه إلى الركوب.

قوله تعالى: « قَالَ سَأْوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » إلخ، قال الراغب: المأوى مصدر أوى يأوى أويا و مأوى تقول: أوى إلى كذا: انضم إليه يأوى أويا و مأوى و آواه غيره يؤويه إيواء، انتهى.

و المعنى: قال ابن نوح مجيباً لأبيه رادا لأمره: سأنضم إلى جبل يعصمنى

ص: ٢٢٩

١ - ١) التحميم إدخال الكلمه بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف إليه و المراد كون الاسم معترضاً بين «ثم» و «السلام» و كذا بين الباء و لفظ الجلاله فى قوله: بسم الله
٢ - ٢) قراءه مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب إلى ابن محيصن.

و يقينى من الماء فلا أغرق، قال نوح: لا عاصم اليوم - وهو يوم اشتد غضب الله و قضى بالغرق لأهل الأرض إلا من التجأ منهم إلى الله - من الله لا - جبل ولا - غيره، و حال بين نوح و ابنه الموج فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموج بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و فى الكلام إشاره إلى أن أرضهم كانت أرضا جبلية لا مثونه زائده فى صعود الإنسان إلى بعض جبال كانت هناك.

قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاةِ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» البلع إجراء الشىء فى الحلق إلى الجوف، و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله، و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها و هو كالنشف يقال: غاضت الأرض الماء أى نقصته.

و الجودى مطلق الجبل و الأرض الصلبة، و قيل: هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى إلى أرمينية و هى المسماه «آارات».

و قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاةِ أَفْلِعِي» نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرح باسم قائله و هو الله عز اسمه للتعظيم، و الأمر تكوينى تحمله كلمه «كن» الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها، و أن تكف السماء عن أمطارها.

و فيه دلالة على أن الأرض و السماء كانتا مشتركتين فى إطغاء الماء بأمر الله كما بيينه قوله تعالى: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قَدَرٍ»: القمر: - ١٢.

و قوله: «و غِيضَ الْمَاءِ» أى نقص الماء و نشف عن ظاهر الأرض و انكشف البسيط، و ذلك إنما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات، و انتشاف ما على سائر البسيطة.

و قوله: «و قُضِيَ الْأَمْرُ» أى أنجز ما وعد لنوح (ع) من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى بغرقهم و تطهر الأرض منهم أى كان ما قيل له كن كما قيل

فقضاء الأمر كما يقال على جعل الحكم و إصداره كذلك يقال على إمضائه و إنفاذه و تحقيقه فى الخارج، غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و إنفاذه واحداً، و إنما الاختلاف بحسب التعبير.

و قوله: «وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى» أى استقرت السفينه على الجبل أو على جبل الجودى المعهود، و هو إخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح و من معه من أمر الطوفان.

□
و قوله: «وَ قِيلَ بُعِيداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أى قال الله عز اسمه: بعدا للقوم الظالمين أى ليعبدوا بعدا فأبعدهم بذلك من رحمته و طردهم عن دار كرامته، و الكلام فى ترك ذكر فاعل «قِيلَ» هاهنا كالكلام فيه فى «قِيلَ» السابق.

□
و الأمر أيضاً فى قوله: «بُعِيداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» كالأمرين السابقين: «يَا أَرْضُ اْبْلَعِي مَاءِ كِ وَ يَا سَمَاءُ اَقْلَعِي» تكوينى فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدى إلى خزيهم فى الدنيا و خسرانهم فى الآخرة، و إن كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعى لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهى بالإيمان و العمل، و كونه جزاء لهم على استكبارهم و استعلائهم على الله عز و جل.

و للصفح عن ذكر الفواعل فى قوله: «وَ قِيلَ يَا أَرْضُ اْبْلَعِي» و قوله: «وَ قُضِيَ الْأَمْرُ» و قوله: «وَ قِيلَ بُعِيداً» إلخ، فى الآيه وجه آخر مشترك و هو أن هذه الأمور العظيمة الهائلة المسدهشه لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر الذى لا شريك له فى أمره فلا يذهب الوهم إلى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلا فعله ذكر أم لم يذكر.

و لمثل هذه النكته حذف فاعل «غِيضَ الْمَاءِ» و هو الأرض، و فاعل «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى» و هو السفينه، و لم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح، و لا- الناجون بأنهم نوح(ع) و من معه فى السفينه فإن الآيه بلغت فى بلاغتها العجيبه من حيث سياق القصة مبلغا ليس فيه إلا سماء تنزل أمطارها، و أرض انفجرت بعيونها و انغمرت بالماء و سفينه تجرى فى أمواجه، و أمر مقضى، و قوم ظالمون هم قوم نوح و أمر إلهى بوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض، و لو استقر شىء و استوى فإنما هى السفينه تستقر على الأرض كما أنه لو قيل: يا أرض ابلعى ماء كِ و يا سماء اقلعى

وقيل:بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضى عليهم بالعذاب،و لو قيل:قضى الأمر فإنما القاضى هو الله سبحانه،و الأمر هو ما وعده نوحا ونهاه أن يراجعه فى ذلك و هو أنهم مغرقون،و لو قيل للسماء:أقلعى بعد ما قيل للأرض:ابلقى ماءك فإنما يراد إقلاعها و إمساكها ماءها.

ففى الآيه الكريمة اجتماع عجيب من أسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما بينها كما أن الآيه واقفه على موقف عجيب من بلاغه القرآن المعجزه يبهر العقول و يدهش الألباب و إن كانت الآيات القرآنيه كلها معجزه فى بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البيان فغاصوا لحي بحرها و أخرجوا ما استطاعوا نيله من لثاليتها،و ما هو—و قد اعترفوا بذلك—إلا كغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالى:﴿ وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (دعاء نوح(ع) لابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه و قد كان آخر عهده به يوم ركب السفينه فوجده فى معزل فناداه و أمره بركوب السفينه فلم يآتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح(ع) و هو يرى أنه مؤمن بالله من أهله و قد وعده الله بإنجاء أهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿ وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ و لم يقل:سأل أو قال أو دعا،و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذى اشتد به الضر و هاج به الوجد أمر طبعى.و الدعاء أعنى نداء نوح(ع)ربه فى ابنه و إن ذكر فى القصة بعد ذكر إنجاز غرق القوم و ظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال أن يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما و على هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان إنما هو لمكان العناية ببيان جميع ما فى القصة من الهيئه الهائله فى محل واحد لتكميل تمثيل الواقعه ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية.

و قد كان(ع)رسولا أحد الأنبياء أولى العزم عالما بالله عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه فى العبوديه، و الظرف ظهرت فيه آيه الربوبيه و القهر الإلهى

أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها، و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح(ع) يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ(ع)-على ما يقتضيه أدب النبوه-على أن يسأل ما يريد من نجاه ابنه بالتصريح، بل أورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر، و ابتدر بذكر ما وعده الله من نجاه أهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينه فقال له: «إِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ».

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح(ع) مؤمنا لم يدعه البتة إلى ركوب السفينه فهو(ع) الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه إذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤديا إلى الكفر و إنما هي معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال(ع): «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» فذكر وعد ربه و ضم إليه أن ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلالة «رَبِّ» على الاسترحام، و دلالة الإضافة فى «إِنِّي» على الحجه فى قوله: «مِنْ أَهْلِي» و دلالة التأكيد بان و لام الجنس فى قوله: «وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» و «وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما إلى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه(ع) لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديه فلا حكم إلا لله بل سلم الحكم الحق و القضاء الفصل إلى الله سبحانه فقال: «وَأَنْتَ أَحْكُمُ الْحَاكِمِينَ».

فالمعنى: رب إن ابني من أهلى، و إن وعدك حق كل الحق، و إن ذلك يدل على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحق إليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه(ع) يستوضح ما هو حقيقه الأمر و لم يذكر نجاه ابنه و لا زاد على هذا الذى حكاه الله عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى: «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

«إلخ بين سبحانه لنوح(ع)وجه الصواب فيما ذكره بقوله:

«إِنَّ ابْنَ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ» إلخ، وهو يستوجب به نجاه ابنه فقال تعالى:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فارتفع بذلك أثر حجته.

□
و المراد بكونه ليس من أهله-و الله أعلم-أنه ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم لأن المراد بالأهل في قوله: «و أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الأهل الصالحون، وهو ليس بصالح وإن كان ابنه و من أهله بمعنى الاختصاص، و لذلك علل قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» بقوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ».

فإن قلت: لا يزم ذلك أن يكون امرأته الكافره من أهله لأنها إنما خرجت من الحكم بالاستثناء و هي داخله موضوعا في قوله: «و أَهْلَكَ» و يكون ابنه ليس من أهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد.

□
قلت: المراد بالأهل في قوله: «و أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» هم الأهل بمعنى الاختصاص و بالمستثنى-من سبق عليه القول-غير الصالحين و مصداقه امرأته و ابنه هذا، و أما الأهل الواقع في قوله هذا: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فهم الصالحون من المختصين به(ع) طبقا لما وقع في قوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنَ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» فإنه(ع) لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من أولى الاختصاص و إلا شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلك.

فهذا هو الظاهر من معنى الآية، و يؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت(ع) مما سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

و ذكروا في تفسير الآية معان أخر:

منها: أن المراد أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله. و نسب إلى جماعه من المفسرين. و فيه أنه في نفسه معنى لا- بأس به إلا- أنه غير مستفاد من سياق الآية لأن الله سبحانه ينفي عنه الأهليه بالمعنى الذي كان يثبتها له به نوح(ع) و لم يكن نوح يريد بأهليته أنه مؤمن غير كافر بل إنما كان يريد أنه أهله بمعنى الاختصاص و الصلاح و إن كان لازمه الإيمان. اللهم إلا أن يرجع إلى المعنى المتقدم.

و منها: أنه لم يكن ابنه على الحقيقة و إنما ولد على فراشه فقال نوح (ع): إنه ابني على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك، و نبهه على خيانه امرأته. و ينسب إلى الحسن و مجاهد.

و فيه: أنه على ما فيه من نسبه العار و الشين إلى ساحة الأنبياء (ع)، و الذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم و ينزه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل، أنه ليس مما يدل عليه اللفظ بصراحه و لا ظهور فليس في القصة إلا قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» و ليس بظاهر فيما تجرءوا عليه و قوله في امرأه نوح: «امْرَأَتُ نُوحٍ وَ امْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا»: التحريم: -١٠ و ليس إلا- ظاهرا في أنهما كانتا كافرتين تواليان أعداء زوجيهما و تسران إليهم بأسرارهما و تستجدانهم عليهما.

و منها: أنه كان ابن امرأته (ع) و كان ربيبه لا- ابنه من صلبه. و فيه أنه مما لا- دليل عليه من جهه اللفظ. على أنه لا يلائم قوله في تعليل أنه ليس من أهله:

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » و لو كان كذلك كان من حق الكلام أن يقال: إنه ابن المرأة.

على أن من المستبعد جدا أن لا يكون نوح (ع) عالما بأنه ربيبه و ليس بابنه حتى يخاطب ربه بقوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» أو يكون عالما بذلك و يتكلم بالمجاز و يحتج على ربه العليم الخبير بذلك فينبه أنه ليس ابنه و إنما هو ربيب.

و قوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» ظاهر السياق أن الضمير لابن نوح (ع) فيكون هو العمل غير الصالح، و عده عملا غير صالح نوع من المبالغه نحو زيد عدل أي ذو عدل، و قولها: فإنما هي إقبال و إدبار، أي ذات إقبال و إدبار.

فالمعنى: إن ابنك هذا ذو عمل غير صالح فليس من أهلك الذين وعدتكم أن أنجيهم. و يؤيد هذا المعنى قراءه من قرأ: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» بالفعل الماضي أي عمل عملا غير صالح.

و ذكر بعضهم: أن الضمير راجع إلى سؤال نوح (ع) المفهوم من قوله:

« رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » أي إن سؤالك نجاه ابنك عمل غير صالح لأنه سؤال لما ليس لك به علم و لا ينبغي لنبى أن يخاطب ربه بمثل ذلك.

و هو من أسخف التفسير فإنه معنى لا يلائم شيئاً من الجملتين المكتنفتين به لا قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» و لا قوله: «فَلَا تَسْئَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» و هو ظاهر، و لو كان كذلك كان من حق الكلام أن يتقدم على قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» و يتصل بقول نوح(ع).

على أنك عرفت أن قول نوح(ع): «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» إلخ، لا يتضمن سؤالاً- و إنما كان يسوقه- لو جرى في كلامه- إلى السؤال لكن العناية الإلهية حالت بينه و بين السؤال.

و قوله: «فَلَا تَسْئَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» كان قول نوح(ع): «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» في مظنه أن يسوقه إلى سؤال نجاه ابنه و هو لا- يعلم أنه ليس من أهله فأخذته العناية الإلهية، و حال التسديد الغيبي بينه و بين السؤال فأدركه النهي بقوله: «فَلَا تَسْئَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» بتفريع النهي على ما تقدم أي فإذا ليس من أهلك لكونه عملاً غير صالح و أنت لا سبيل لك إلى العلم بذلك فإياك أن تبادر إلى سؤال نجاته لأنه سؤال ما ليس لك به علم.

و النهي عن السؤال بغير علم لا يستلزم تحقق سؤال ذلك منه(ع) لا مستقلاً و لا في ضمن قوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» لأن النهي عن الشيء لا يستلزم الارتكاب قبلاً، و قد قال تعالى: «لَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ» الحجر: - ٨٨ فهى النبى ص عن حب الدنيا و الافتتان بزینتها و حاشاه عن ذلك.

و إنما يفترق النهي في صحه تعلقه بفعل ما أن يكون فعلاً اختيارياً يمكن أن يبتلى به المكلف، و ما نهى عنه الأنبياء(ع) على هذه الصفة و إن كانوا ذوى عصمه إلهيه و تسديد غيبي، فإن من العصمه و التسديد أن يراقبهم الله سبحانه في أعمالهم و كلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب و يدعهم إلى السداد و التزام طريق العبوديه، قال تعالى: «وَلَوْ لَا أَنْ بَبْتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً» إسرء:- ٧٥ فأبأ تعالى أنه هو الذى ثبته و لم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلا عن نفس الركون.

وقال تعالى وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا: النساء: -١١٣.

و من الدليل على أن النهي - «فَلَا تَسْئَلْنِ» إلخ- نهى عما لم يقع بعد قول نوح (ع) بعد استماع هذا النهي: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشِيئَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» و لو كان سأل شيئا لقل: أعود بك من سؤالي ذلك ليفيد المصدر المضاف إلى المعمول التحقق و الارتكاب.

و من الدليل أيضا على أنه (ع) لم يسأل ذلك تعقيب قوله: «فَلَا تَسْئَلْنِ» لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» بقوله: «إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» فإن معناه: أني أنصح لك في القول أن لا تكون بسؤالك ذلك من الجاهلين، و لو كان نوح سأل ذلك لكان من الجاهلين لأنه سأل ما ليس له به علم.

فإن قلت: إنه تعالى قال: «أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» أي ممن استقرت فيه صفة الجهل، و استقرارها إنما يكون بالتكرار لا بالمره و الدفعه، و بذلك يعلم أنه سأل ما سأل و تحقق منه الجهل مره و إنما وعظه الله تعالى بما وعظ لثلا يعود إلى مثله فيتكرر منه ذلك فيدخل في زمره الجاهلين.

قلت: زنه الفاعل كجاهل لا تدل على الاستقرار و التكرر و إنما تفيده الصفة المشبهة كجهول على ما ذكره، و يشهد لذلك قوله تعالى في قصة البقره: «قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ:» البقره: -٦٧، و قوله في قصة يوسف: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ:» يوسف: -٣٣ و قوله خطابا لنيبه (ص): «وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ:» الأنعام: -٣٥.

و أيضا لو كان المراد من النهي عن السؤال أن لا يتكرر منه ذلك بعد ما وقع مره لكان الأنسب أن يصرح بالنهي عن العود إلى مثله دون النهي عن أصله كما وقع في نظير المورد من قوله تعالى: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ - X إلى أن قال X- يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا:» النور: -١٧.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» لما تبين لنوح(ع) أنه لو ساقه طبع الخطاب الذى خاطب به ربه إلى السؤال كان سائلا ما ليس له به علم و كان من الجاهلين و إن عناه الله حالت بينه و بين الهلكه،شكر ربه فاستعاذ بمغفرتة و رحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ».

و الكلام فى الاستعاذه مما لم يقع بعد من الأمور المهلكه و المعاصى الموبقه كالنهى عما لم يقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم لكلام فيه و قد أمر الله نبيه ص بالاستعاذه من الشيطان و هو معصوم لا سبيل للشيطان إليه،قال تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ - X إلى أن قال X- مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ:» الناس:- ٥- و قال: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ:» المؤمنون:- ٩٨- و الوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ:» الجن:- ٢٨.

و قوله: «وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» كلام صورته صورته التوبه و حقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم و التأديب.

أما صورته توبته فإن فى ذلك رجوعا إلى ربه تعالى بالاستعاذه و لآزمها طلب مغفره الله و رحمته أى ستره على الإنسان ما فيه زلته و هلاكته و شمول عنايته لحاله و قد تقدم فى أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعم من مخالفه الأمر التشريعى بل كل وبال و أثر سيئ الإنسان بوجهه،و أن المغفره أعم من الستر على المعصيه المعروفة عند المتشرعه بل كل ستر إلهى يسعد الإنسان و يجمع شمله.

و أما حقيقه الشكر فإن العنايه الإلهيه التى حالت بينه و بين السؤال الذى كان يوجب دخوله فى زمره الجاهلين و عصمته ببيان وجه الصواب كانت ستر إلهيا على زله فى طريقه و رحمه و نعمه أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله(ع): «وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أى إن لم تعذنى من الزلات لخسرت،ثناء و شكر لصنعه الجميل.

قوله تعالى: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» إلخ، السلام هو السلامه أو التحيه غير أن ذكر مس العذاب فى آخر الآيه يؤيد كون المراد به فى صدرها السلامه من العذاب و كذا تبديل البركه فى آخر الآيه إلى التمتع يدل على أن المراد بالبركات ليس مطلق النعم و أمتعه الحياه بل النعم من حيث تسوق الإنسان إلى الخير و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله: «قِيلَ - و لم يذكر القائل و هو الله سبحانه للتعظيم- يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ» معناه- و الله أعلم- يا نوح انزل مع سلامه من العذاب -الطوفان- و نعم ذوات بركات و خيرات نازله منا عليك أو أنزل بتحيه و بركات نازله منا عليك.

و قوله: «وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» معطوف على قوله: «عَلَيْكَ» و تنكير أُمم يدل على تبعيضمهم لأن من الأمم من يذكره تعالى بعد فى قوله: «وَأُمَّمٍ سَنَمَتُهُمْ».

و الخطاب أعنى قوله تعالى: «يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ» إلى آخر الآيه بالنظر إلى ظرف صدوره و ليس وقتئذ متنفس على وجه الأرض من إنسان أو حيوان و قد أغرقوا جميعا و لم يبق منهم إلا جماعه قليله فى السفينه و قد رست و استوت على الجودى، و قد قضى أن ينزلوا إلى الأرض فيعمروها و يعيشوا فيها إلى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها إلى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهى يوم أهبط آدم(ع) من الجنه إلى الأرض و قد حكاه الله تعالى فى موضع بقوله: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عِدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ - إلى أن قال X- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» البقره:- ٣٩ و فى موضع آخر بقوله: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ» الأعراف:- ٢٥.

و هذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجه إلى نوح(ع) و من معه من المؤمنين- و إليهم ينتهى نسل البشر اليوم-متعلق بهم و بمن يلحق بهم

من ذراريهم إلى يوم القيامة، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها.

وقد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبّر عن إذنه لطائفه منهم بالسلام والبركات وهم نوح(ع) وأمم ممن معه، ولطائفه أخرى بالتمتع، وعقب التمتع بمس العذاب لهم كما كلمتى السلام والبركات لا تخلوان من بشرى الخير والسعادة بالنسبة إلى من تعلقتا به.

فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط فى هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام وبركات و تمتع موجه إلى عامه البشر من حين هبوط أصحاب السفينه إلى يوم القيامة، و وزانه وزان خطاب الهبوط الموجه إلى آدم و زوجته(ع)، و فى هذا الخطاب إذن فى الحياه الأرضيه و وعد لمن أطاع الله سبحانه و وعيد لمن عصاه كما أن فى ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل.

و ظهر بذلك أن المراد بقوله: «وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» الأمم الصالحون من أصحاب السفينه و من سيظهر من نسلهم من الصالحين، و الظاهر على هذا أن يكون «مِمَّنْ» فى قوله «مِمَّنْ مَعَكَ» ابتدائية لا بيانية، و المعنى و على أمة يتدى تكونهم ممن معك، و هم أصحاب السفينه و الصالحون من نسلهم.

و ظاهر هذا المعنى أن يكون أصحاب السفينه كلهم سعداء ناجين، و الاعتبار يساعد ذلك فإنهم قد محصوا بالبلاء تمحيصا و آثروا ما عند الله من زلفى و قد صدق الله سبحانه إيمانهم مرتين فى أثناء القصة حيث قال عز من قائل: «إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ»: آيه-٣٦ من السوره، و قال: «وَمَنْ آمَنَ وَمِمَّا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ»: آيه-٤٠ من السوره و قوله: «وَأُمَمٌ سِنْتَعْتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنْ أَلِيمٍ» كأنه مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: و ممن معك أمة أو و هناك أمة سنمتعهم إلخ، و قد أخرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بـخطاب الإذن فلم يقل: و متاع لأمم آخرين سيعذبون طردا لهم من موقف الكرامه، فأخبر أن هناك أمة آخرين سنمتعهم ثم نعذبهم و هم غير مأذون لهم فى التصرف فى أمتعته الحياه إذن كرامه و زلفى.

و فى الآية جهات من تعظيم القائل لا تخفى كالبناء للمفعول فى «قِيلَ» و تخصيص نوح

(ع) بخطاب الهبوط و التكلم مع الغير فى قوله: «مِنَّا فى موضعين و «سَمَتُّهُمْ» و غير ذلك.

و ظهر أيضا: أن ما فسروا به قوله: «عَلَى أُمَّ مَمَّنْ مَعَيْكَ» أن معناه: على أمم من ذريه من معك ليس على ما ينبغى مع ما فيه من خروج من معه من الخطاب و كذا قول من قال: يعنى بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه لأن الله جعل فيهم البركة. و فساده أظهر.

قوله تعالى: «تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ» أى هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحىها إليك.

و قوله: «مَا كُنْتُ تَعَلَّمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» أى كانت و هى على محوضه الصدق و الصحه مجهوله لك و لقومك من قبل هذا، و الذى عند أهل الكتاب منها محرف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما فى التوراه الحاضره من قصته (ع).

و قوله: «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» أمر متترع عن تفصيل القصة أى إذا علمت ما آل إليه أمر نوح (ع) و قومه من هلاك قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين و قد ورثهم الله الأرض على ما صبروا، و نصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبه للمتقين، و هم الصابرون فى جنب الله سبحانه.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور، أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر عن ابن عباس قال:

إن نوحا (ع) كان يضرب ثم يلف فى لبد-فيلقى فى بيته يرون أنه قد مات-ثم يخرج فيدعوهم حتى إذا أيس من إيمان قومه-جاءه رجل و معه ابنه و هو يتوكأ على عصا فقال: يا بنى انظر هذا الشيخ لا يغرنك-قال: يا أبت أمكنى من العصا-ثم

أخذ العصا ثم قال:ضعني في الأرض-فوضعه فمشى إليه فضربه فشجه موضحه في رأسه-و سالت الدماء.

قال نوح(ع):رب قد ترى ما يفعل بي عبادك-فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهداهم،و إن يكن غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم-و أنت خير الحاكمين فأوحى الله إليه-و آيسه من إيمان قومه و أخبره-أنه لم يبق في أصلاب الرجال و لا- في أرحام النساء مؤمن-قال:يا نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا- من قد آمن-فلا- تبتئس بما كانوا يفعلون يعنى لا تحزن عليهم-و اصنع الفلك.قال:يا رب و ما الفلك؟قال:

بيت من خشب يجرى على وجه الماء-فأغرق أهل معصيتى و أظهر أرضى منهم.

قال:يا رب و أين الماء؟قال:إنى على ما أشاء قدير.

و فى الكافى،بإسناده عن المفضل قال: كنت عند أبى عبد الله(ع)بالكوفة أيام قدم على أبى العباس-فلما انتهينا إلى الكناسه قال:هاهنا صلب عمى زيد رحمه الله-ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين و هو آخر السراجين-فنزل و قال:انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول-الذى كان خطه آدم و أنا أكره أن أدخله راكبا.قلت:فمن غيره عن خطته؟قال،أما أول ذلك فالطوفان فى زمن نوح-ثم غيره أصحاب كسرى و النعمان ثم غيره بعد زياد بن أبى سفيان-فقلت:

و كانت الكوفة و مسجدها فى زمن نوح؟فقال لى:نعم يا مفضل-و كان منزل نوح و قومه فى قريه على منزل من الفرات-مما يلى غربى الكوفه.

قال:و كان نوح رجلا نجارا فجعله الله عز و جل نبيا و انتجبه،و نوح أول من عمل سفينه تجرى على ظهر الماء.قال:و لبث نوح فى قومه ألف سنه إلا- خمسين عاما-يدعوهم إلى الله عز و جل فيهزون به و يسخرون منه-فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا- إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا-إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا، فأوحى الله عز و جل إلى نوح-أن اصنع سفينه و أوسعها و عجل عملها-فعمل نوح سفينه فى مسجد الكوفه بيده،فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها-.

قال المفضل:ثم انقطع حديث أبى عبد الله(ع)عند زوال الشمس-فقام

أبو عبد الله (ع) فصلى الظهر و العصر - ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره - و أشار بيده إلى موضع دار الدارين - و هي موضع دار ابن حكيم و ذلك فرات اليوم - فقال: يا مفضل و هاهنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث و يعوق و نسر. ثم مضى حتى ركب دابته -.

فقلت: جعلت فداك في كم عمل نوح سفينه؟ قال في: دورين. قلت: و كم الدوران؟ قال: ثمانين (1) سنة. قلت: فإن العامه يقولون - عملها في خمس مائه سنة؟ فقال: كلا. كيف؟ و الله يقول: « وَ حِينَا » قال: قلت: فأخبرني عن قول الله عز و جل: « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورُ » فأين كان موضعه؟ و كيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنه في دبر قبله ميمنه المسجد. قلت له: فأين ذلك؟ قال: موضع زاويه باب الفيل اليوم. ثم قلت له: و كان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال نعم: إن الله عز و جل أحب أن يرى قوم نوح آيه - ثم إن الله تبارك و تعالى أرسل عليهم المطر - فيفيض فيضا و العيون كلهن فيضا فغرقهم الله - و أنجى نوحا و من معه في السفينه - الحديث.

أقول: و الروايه على طولها غير متعلقه بالتفسير غير أنا أوردناها لتكون كالأ نموذج من روايات كثيره وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة و أهل السنه و لتكون عوناً لفهم قصص الآيات من طريق الروايات.

و في الروايه استفاده التعجيل في صنع السفينه من قوله تعالى: « وَ اصْبِرْ لِفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا » الآية، و في الروايه نسبه زياد إلى أبي سفيان و لعل الوارد في لفظ الإمام «زياد» فأضيف إليه «ابن أبي سفيان» في لفظ بعض الرواه.

و فيه، بإسناده عن أبي رزين الأسدي عن أمير المؤمنين (ع) قال: إن نوحا (ع) لما فرغ من السفينه - و كان ميعاده فيما بينه و بين ربه في إهلاك قومه - أن يفور التنور ففار التنور في بيت امرأه - فقالت إن التنور قد فار فقام إليه فحتمه - فقام الماء و أدخل من أراد أن يدخل - و أخرج من أراد أن يخرج - ثم جاء إلى

ص: ٢٤٣

خاتمه فنزعه، يقول الله عز و جل: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ - وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ - وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ - .

قال: و كان نجره فى وسط مسجدكم. و لقد نقص عن ذرعه سبعمائه ذراع.

أقول: و كون فوران التنور علامه له (ع) يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع فى عده من روايات الخاصه و العامه و سياق الآيه: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ» الآيه، لا يخلو من ظهور فى كونه ميعادا.

و فيه، بإسناده عن إسماعيل الجعفى عن أبى جعفر (ع) قال: كان شريعه نوح أن يعبد الله بالتوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد - و هى الفطره التى فطر الناس عليها - و أخذ الله ميثاقه على نوح و النبيين - أن يعبدوا الله تبارك و تعالى - و لا يشركوا به شيئا - و أمر بالصلاه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الحلال و الحرام، و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرائض مواريث - فهذه شريعته. فلبث فيهم نوح ألف سنه إلا خمسين عاما - يدعوهم سرا و علانية فلما أبوا و عتوا قال: «رب إنى مغلوب فانتصر» فأوحى الله عز و جل إليه: «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا - مَنْ قَدْ آمَنَ - فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» فذلك قول نوح: «و لا يلدوا إلا فاجرا كفارا» فأوحى الله إليه:

« أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ ::

أقول: و رواه العياشى عن الجعفى مرسلا

و ظاهر الروايه أن له (ع) دعاءين على قومه أحدهما و هو أولهما قوله: «رب إنى مغلوب فانتصر» الواقع فى سوره القمر، و ثانيهما بعد ما أياسه الله من إيمان قومه و هو قوله: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا» الواقع فى سوره نوح.

و فى معانى الأخبار، بإسناده عن حمران عن أبى جعفر (ع): فى قول الله عز و جل «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» قال: كانوا ثمانيه:

أقول: و رواه العياشى أيضا عن حمران عنه (ع)،

و للناس فى عددهم أقوال آخر: ستة أو سبعة أو عشره أو اثنان و سبعون أو ثمانون و لا دليل على شىء منها.

و فى العيون، بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروى قال: قال الرضا (ع):

لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح و ولده و من تبعه ثمانين نفساً-فبنى حيث نزل قريه فسمها قريه الثمانين.

أقول: و لا تنافى بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانيه من أهل نوح(ع) و قد عمر ما يقرب من ألف سنه يومئذ.

و فيه، بإسناده عن الحسن بن على الوشاء عن الرضا(ع) قال: سمعته يقول:

قال أبى: قال أبو عبد الله(ع): إن الله عز و جل قال لنوح: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لأنه كان مخالفاً له، و جعل من اتبعه من أهله.

قال: و سألتى كيف يقرءون هذه الآيه فى ابن نوح؟ فقلت: يقرؤها الناس على و جهين: إنه عمل غير صالح، و إنه عمل غير صالح. فقال: كذبوا هو ابنه و لكن الله نفاه عنه-حين خالفه فى دينه.

أقول: و لعله(ع) يشير بقوله: «و جعل من اتبعه من أهله» إلى قوله تعالى «فَجَعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ مِنَ الْكُذِبِ الْعَظِيمِ»: الأنبياء-٧٦. فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه.

و كان المراد من قراءه الآيه تفسيرها و الراوى يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسر الآيه بأن المراد أن امرأه نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه و لذلك قرأ بعضهم: «و نادى نوح ابنها» أو «و نادى نوح ابنه» بفتح الهاء مخفف ابنها و نسبوا القراءتين إلى على و بعض الأئمه من ولده(ع).

قال فى الكشاف: و قرأ على رضى الله عنه «ابنها» و الضمير لامرأته، و قرأ محمد بن على و عروه بن الزبير «ابنه» بفتح الهاء يريدان «ابنها» فاكْتفياً بالفتحة عن الألف و به ينصر مذهب الحسن قال قتاده: سألته فقال: و الله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» و أنت تقول: لم يكن ابنه، و أهل الكتاب لا- يختلفون أنه كان ابنه! فقال: و من يأخذ دينه من أهل الكتاب؟ و استدل بقوله من أهلى و لم يقل: منى. انتهى.

و استدلاله بما استدل به سخيْف فإن الله وعده بنجاه أهله و لم يعده بنجاه من

كان منه حتى يضطر إلى قول: إن ابني منى عند سؤال نجاته، وقد تقدم بيان أن لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه.

و ما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراه ساكتة عن قصه ابن نوح هذا الغريق.

و فى الدر المشهور، أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف و أبو الشيخ عن على رضى الله عنه: أنه قرأ: «و نادى نوح ابنها».

و فيه، أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على: فى قوله: «و نادى نُوحُ ابْنَهُ» قال هى بلغه طيئ-لم يكن ابنه و كان ابن امرأته:.

أقول: و رواه العياشى فى تفسيره عن محمد بن مسلم عنه (ع).

و فى تفسير العياشى، عن موسى عن العلاء بن سيباه عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله: «و نادى نُوحُ ابْنَهُ» قال ليس بابنه-إنما هو ابن امرأته و هى لغه طيئ- يقولون لابن امرأته: ابنه. الحديث.

و فيه، عن زراره عن أبى جعفر (ع): فى قول نوح: «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا» قال: ليس بابنه. قال: قلت: إن نوحا قال: يا بنى؟ قال: فإن نوحا قال ذلك-و هو لا يعلم.

أقول: و المعتمد ما تقدم من روايه الوشاء عن الرضا (ع).

و فيه، عن إبراهيم بن أبى العلاء عن أحدهما (ع) قال: لما قال الله:

«يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ-و يَا سَمَاءُ اقْلَعِي» قالت الأرض: إنما أمرت أن أبلع مائى أنا فقط، و لم أؤمر أن أبلع ماء السماء فبلعت الأرض ماءها-و بقى ماء السماء فصير بحرا حول الدنيا.

و فيه، عن أبى بصير عن أبى الحسن موسى (ع): فى حديث ذكر فيه الجودى قال: و هو جبل بالموصل.

و فيه، عن المفضل بن عمر عن أبى عبد الله (ع): «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى» هو

أقول: و يؤيد الروايه السابقه روايات أآر.

و فيه، عن عبد الحميد بن أبى الديللم عن أبى عبد الله (ع) قال: لما ركب نوح (ع) فى السفينه قيل: بعدا للقوم الظالمين.

و فى المجمع، " فى قوله تعالى: « قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مِمَّا كِ » الآية-قال: و يروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضه القرآن-فعكفوا على لباب البر و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوما-لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية-فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبهه شىء من الكلام، و لا يشبه كلام المخلوقين و تركوا-ما أخذوا فيه و افترقوا.

أبحاث حول قصه نوح فى فصول و هى أبحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه

أ-الإشاره إلى قصته:

ذكر اسمه (ع) فى القرآن فى بضع و أربعين موضعا يشار فيها إلى شىء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً، و لم تستوف قصته (ع) فى شىء منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخى بذكر نسبه و بيته و مولده و مسكنه و نشوئه و شغلته و عمره و وفاته و مدفنه و سائر ما يتعلق بحياته الشخصيه لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتص تواريخ الناس من بر أو فاجر.

و إنما هو كتاب هدايه يصف للناس ما فيه سعادتهم، و يبين لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا فى حياتهم الدنيا و الآخرة، و ربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء و الأمم لتظهر به سنه الله فى عباده، و يعتبر به من شملته العنايه و وفق للكرامه، و تتم به الحجه على الباقيين.

و قد فصلت قصه نوح (ع) فى ست من السور القرآنيه و هى سورة الأعراف و سورة هود، و سورة المؤمنون، و سورة الشعراء، و سورة القمر، و سورة نوح

و أكثرها تفصيلا سورة هود التي ذكرت قصته(ع)فيها في خمس و عشرين آيه (٢٥-٤٩).

٢- قصته(ع) في القرآن:

بعثه و إرساله:

كان الناس بعد آدم(ع)يعيشون أمه واحده على بساطه و سداجه،و هم على الفطره الإنسانيه حتى فشا فيهم روح الاستكبار و آل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجيا و اتخاذ بعضهم بعضا أربابا و هذه هي النواه الأصلية التي لو نشأت و اخضرت و أينعت لم تثمر إلا- دين الوثنيه و الاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعيه باستخدام القوى للضعيف،و استرقاق العزيز و استدراره للذليل،و حدوث المنازعات و المشاجرات بين الناس.

فشاع في زمن نوح(ع)الفساد في الأرض،و أعرض الناس عن دين التوحيد و عن سنه العدل الاجتماعى و أقبلوا على عباده الأصنام،و قد سمى الله سبحانه منها ودا و سواعا و يغوث و يعوق و نسرا(سوره نوح).

و تباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال و الأولاد يضيعون حقوق الضعفاء و الجابره يستضعفون من دونهم و يحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم(الأعراف هود-نوح).

فبعث الله نوحا(ع)و أرسله إليهم بالكتاب و الشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه و خلع الأنداد و المساواه فيما بينهم(البقره آيه ٢١٣)بالتبشير و الإنذار.

دينه و شريعته(ع):

كان(ع)يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه و رفض الشركاء(كما يظهر من جميع قصصه القرآنيه)و الإسلام لله(كما يظهر من سورتي نوح و يونس و سوره آل عمران آيه ١٩)و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر(كما يظهر من سوره هود آيه ٢٧)و الصلاه(كما يظهر من آيه ١٠٣ من سوره النساء و آيه ٨ من سوره الشورى)

و المساواه و العداله و أن لا- يقربوا الفواحش و المنكرات و صدق الحديث و الوفاء بالعهد(سوره الأنعام آيه ١٥١-١٥٢)و هو(ع)أول من حكى عنه فى القرآن التسميه باسم الله فى الأمور الهامه(سوره هود آيه ٤١).

اجتهاده(ع)فى دعوته:

و كان(ع)يدعو قومه إلى الإيمان بالله و آياته،و يبذل فى ذلك غايه وسعه فيندبهم إلى الحق ليلا و نهارا و إعلانا و إسرارا فلا يجيبونه إلا- بالعناد و الاستكبار و كلما زاد فى دعائهم زادوا فى عتوهم و كفرهم،و لم يؤمن به غير أهله و عدده قليله من غيرهم حتى أيس من إيمانهم و شكا ذلك إلى ربه و طلب منه النصر(سوره نوح و القمر و المؤمنون).

لبثه فى قومه:

لبث(ع)فى قومه ألف سنه إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزاء و السخرية و رميه بالجنون و أنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه(سوره العنكبوت)فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن و عزاه فيهم(سوره هود)فدعا عليهم بالتبار و الهلاك،و أن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم(سوره نوح)فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا و وحيناً(سوره هود).

صنعه(ع)الفلك:

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه و تسديده فأخذ فى صنعها و كان القوم يمرون عليه طائفه بعد طائفه فيسخرون منه و هو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء،و يقول(ع): **إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** (سوره هود)و قد نصب الله لنزول العذاب علما و هو أن يفور الماء من التنور(سورتا هود و المؤمنون).

نزول العذاب و مجيء الطوفان:

حتى إذا تمت صنعه الفلك و جاء أمر الله و فار التنور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينه من كل من الحيوان زوجين اثنين و أن يحمل أهله إلا- من سبق عليه القول الإلهي بالغرق و هو امرأته الخائنه و ابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه، و أن يحمل الذين آمنوا(سورتا هود و المؤمنون) فلما حملهم و ركبوا جميعا فتح الله أبواب السماء بماء منهمر و فجر الأرض عيوننا فالتقى الماء على أمر قد قدر(سوره القمر) و علا- الماء و ارتفعت السفينه عليه و هى تسير فى موج كالجبال (سوره هود) فأخذ الناس الطوفان و هم ظالمون و قد أمره الله تعالى إذا استوى هو و من معه على الفلك أن يحمده الله على ما نجاه من القوم الظالمين و أن يسأله البركه فى نزوله فيقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، و يقول: رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ .

قضاء الأمر و نزوله و من معه إلى الأرض:

فلما عم الطوفان و أغرق الناس (كما يظهر من سوره الصافات آيه ٧٧) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها و السماء أن تقلع و غيض الماء و استوت السفينه على جبل الجودي و قيل بعدا للقوم الظالمين، و أوحى إلى نوح(ع) أن اهبط إلى الأرض بسلام منا و بركات عليك و على أمم ممن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام، و منهم أمم سيمتعهم الله بأمته الحياه ثم يمسه عذاب أليم فخرج هو و من معه و نزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد و الإسلام، و توارث ذريته(ع) الأرض و جعل الله ذريته هم الباقين(سورتا هود و الصافات).

قصة ابن نوح الغريق:

كان نوح(ع) عند ما ركب السفينه لم يركبها واحد من أبنائه، و كان لا يصدق أباه فى أن من تخلف عنها فهو غريق لا محاله فرآه أبوه و هو فى معزل فناده:

يا بنى اركب معنا و لا تكن مع الكافرين فرد على أبيه قائلاً: سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال نوح(ع): لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم- يريد أهل

السفينه- فلم يلتفت الابن إلى قوله و حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

و لم يكن نوح(ع) يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته و لو كان علم ذلك لم يحزنه أمره و هو القائل في دعائه:
«رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» X الدعاء X نوح- ٢٧ و
هو القائل: «فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»: الشعراء:- ١١٨ و قد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه: «وَلَا
تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ»: هود:- ٣٧.

فوجد نوح(ع) و حزن فنادى ربه من وجدته قائلا: رب إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلي و أنت أحكم
الحاكمين لا- تجور في حكمك و لا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية و حالت بينه و بين أن
يصرح بالسؤال في نجاه ابنه- و هو سؤال لما ليس له به علم- و أوحى الله إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح
فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاه فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشف الأمر لنوح(ع) و التجأ إلى ربه تعالى قائلا- رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم أسألك أن تشملني
بعنايتك و تستر على بمغفرتك، و تعطف على برحمتك، و لو لا ذلك لكنت من الخاسرين.

٣- خصائص نوح(ع):

هو(ع) أول أولى العزم سادة الأنبياء أرسله الله إلى عامه البشر بكتاب و شريعه فكتابه أول الكتب السماويه المشتمله على شرائع
الله، و شريعته أول الشرائع الإلهية.

و هو(ع) الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهى أنسابهم و الجميع ذريته لقوله تعالى: «وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ»:
الصفات:- ٧٧ و هو(ع) أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم و إدريس(ع) قال تعالى: «وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ»:
الصفات:- ٧٨.

و هو(ع) أول من فتح باب التشريع و أتى بكتاب و شريعه و كلم الناس

بمنطق العقل و طريق الاحتجاج مضافا إلى طريق الوحي فهو الأصل الذى ينتهى إليه دين التوحيد فى العالم فله المنه على جميع الموحدين إلى يوم القيامة، و لذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل: «سَيِّئًا عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ:» الصافات:- ٧٩.

و قد اصطفاه الله على العالمين (آل عمران آيه ٣٣) و عده من المحسنين (الأنعام ٨٤ الصافات ٨٠) و سماه عبدا شكورا (إسراء آيه ٣) و عده من عباده المؤمنين (الصافات ٨١) و سماه عبدا صالحا (التحريم ١٠).

و آخر ما نقل من دعائه قوله: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَجَارًا:» نوح:- ٢٨

٤- قصته (ع) فى التوراه الحاضره:

و حدث (١) لما ابتداء الناس يكثرون على الأرض و ولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنت.

فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب لا يدين روى فى الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر و تكون أيامه مائه و عشرين سنه. كان فى الأرض طغاه فى تلك الأيام. و بعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس و ولدن لهم أولادا هؤلاء هم الجبابره الذين منذ الدهر ذوو اسم.

و رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض. و أن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض. و تأسف فى قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته. الإنسان مع بهائم و دبابات و طيور السماء. لأنى حزن أنى عملتهم. و أما نوح فوجد نعمه فى عين الرب.

هذه مواليد نوح. كان نوح رجلا بارا كاملا فى أجياله- و سار نوح مع الله.

و ولد نوح ثلاثه بنين ساما و حاما و يافث. و فسدت الأرض أمام الله و امتلأت الأرض ظلما. و رأى الله الأرض فإذا هى قد فسدت. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.

ص: ٢٥٢

فقال الله لنوح نهايه كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلما منهم.

فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن. و تطليه من داخل و من خارج بالقار. و هكذا تصنعه. ثلاث مائه ذراع يكون طول الفلك و خمسين ذراعا عرضه و ثلاثين ذراعا ارتفاعه. و تصنع كوا للفلك و تكمله إلى حد ذراع من فوق. و تضع باب الفلك فى جانبه. مساكن سفليه و متوسطه و علويه تجعله. فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياه من تحت السماء. كل ما فى الأرض يموت. و لكن أقيم عهدى معك.

فتدخل الفلك أنت و بنوك و امرأتك و نساء بنيك معك. و من كل حى من كل ذى جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكرا و أنثى.

من الطيور كأجناسها. و من البهائم كأجناسها و من كل دبابات الأرض كأجناسها.

اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها. و أنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل و اجمعه عندك. فيكون لك و لها طعاما. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله.

هكذا فعل.

و قال (١) الرب لنوح: ادخل أنت و جميع بنيك إلى الفلك. لأنى إياك رأيت بارا لدى فى هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهره تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا و أنثى. و من البهائم التى ليست بطاهره اثنين ذكر و أنثى. و من طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا و أنثى. لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. لأنى بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليله. و أمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

و لما كان نوح ابن ستمائه سنه صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح و بنوه و امرأته و نساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. و من البهائم الطاهره و البهائم التى ليست بطاهره و من الطيور و كل ما يدب على الأرض. دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكر و أنثى. كما أمر الله نوحا.

ص: ٢٥٣

(١-١) الإصحاح السابع من سفر التكوين.

و حدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. فى سنة ستمائه من حياه نوح فى الشهر الثانى فى اليوم السابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم و انفتحت طاقات السماء. و كان المطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليله. فى ذلك اليوم عينه دخل نوح و سام و حام و يافث بنو نوح و امرأه نوح و ثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. هم و كل الوحوش كأجناسها و كل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها و كل الطيور كأجناسها كل عصفور ذى جناح.

و دخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياه. و الداخلات دخلت ذكرا و أنثى من كل ذى جسد كما أمره الله. و أغلق الرب عليه.

و كان الطوفان أربعين يوما على الأرض. و تكاثرت المياه و رفعت الفلك فارتفع عن الأرض. و تعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. و تعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخه التى تحت كل السماء. خمس عشر ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال.

فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور و البهائم و الوحوش و كل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض و جميع الناس. كل ما فى أنفه نسمة روح حياه من كل ما فى اليابسه مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس و البهائم و الدبابات و طيور السماء فانمحت من الأرض. و تبقى نوح و الذين معه فى الفلك فقط. و تعاظمت المياه على الأرض مائه و خمسين يوما.

ثم (1) ذكر الله نوحا و كل الوحوش و كل البهائم التى معه فى الفلك و أجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه. و انسدت ينابيع الغمر و طاقات السماء فامتنع المطر من السماء. و رجعت المياه عن الأرض رجوعا متواليا و بعد مائه و خمسين يوما نقصت المياه. و استقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. و كانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر و فى العاشر فى أول الشهر ظهرت رءوس الجبال.

ص: ٢٥٤

و حدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقه الفلك التي كان قد عملها.

و أرسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامه من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامه مقرا لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض فمد يده و أخذها و أدخلها عنده إلى الفلك. فلبث أيضا سبعة أيام آخر و عاد فأرسل الحمامه من الفلك. فأتت إليه الحمامه عند المساء و إذا ورقه زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضا سبعة أيام آخر فأرسل الحمامه فلم يعد يرجع إليه أيضا.

و كان في السنه الواحده و الستمائيه في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك و نظر فإذا وجه الأرض قد نشف.

و في الشهر الثاني في اليوم السابع و العشرين من الشهر جفت الأرض.

و كلم الله نوحا قائلا: اخرج من الفلك أنت و امرأتك و بنوك و نساء بنيك معك. و كل الحيوانات التي معك من كل ذى جسد الطيور و البهائم و كل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك و لتتوالد في الأرض و تثمر و تكثر على الأرض.

فخرج نوح و بنوه و امرأته و نساء بنيه معه، و كل الحيوانات و كل الدبابات و كل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.

و بنى نوح مذبحا للرب. و أخذ من كل البهائم الطاهره و من كل الطيور الطاهره و أصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحه الرضا و قال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته و لا أعود أيضا أميت كل حى كما فعلت. مده كل أيام الأرض زرع و حصاد و برد و حر و صيف و شتاء و نهار و ليل لا يزال.

و بارك الله (١) نوحا و بنيه و قال لهم أثمروا و أكثروا و املثوا الأرض و لتكن خشيتكم و رهبتكم على كل حيوانات الأرض و كل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض و كل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم. كل دابه حيه تكون لكم طعاما

ص: ٢٥٥

كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحما بجنابه دمه لا- تأكلوه. و أطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه و من يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان. فأثمروا أنتم و أكثروا و توالدوا فى الأرض و تكاثروا فيها.

و كلم الله نوحا و بنيه معه قائلا- و ها أنا مقيم ميثاقى معكم و مع نسلكم من بعدكم. و مع كل ذوات الأنفس الحيه التى معكم الطيور و البهائم و كل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الطوفان و لا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض. و قال الله هذه علامه الميثاق الذى أنا واضعه بينى و بينكم و بين كل ذوات الأنفس الحيه التى معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامه ميثاق بينى و بين الأرض. فيكون متى أنشر سحابة على الأرض و تظهر القوس فى السحاب. إنى أذكر ميثاقى الذى بينى و بينكم و بين كل نفس حيه فى كل جسد فلا يكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد. فمتى كانت القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله و بين كل نفس حيه فى كل جسد على الأرض.

و قال الله لنوح: هذه علامه الميثاق الذى أنا أقمته بينى و بين كل ذى جسد على الأرض.

و كان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما و حاما و يافث و حام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح و من هؤلاء تشعبت كل الأرض.

و ابتدأ نوح يكون فلاحا و غرس كرما. و شرب من الخمر فسكر و تعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عوره أبيه و أخبر أخويه خارجا. فأخذ سام و يافث الرداء و وضعاه على أكتافهما و مشيا إلى الوراء و ستر عوره أبيهما و وجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عوره أبيهما.

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. و قال: مبارك الرب إله سام و ليكن كنعان عبدا لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام و ليكن كنعان عبدا لهم.

و عاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة و خمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسع مائه و خمسين سنة و مات. انتهى ما قصدنا إيراده.

و هو- كما ترى- يخالف ما جاء فى القرآن الكريم من وجوه:

منها: أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأه نوح بل صرح بدخولها الفلك و نجاتها مع بعلها، و قد اعتذر عنه بعض: أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما و نجت الأخرى.

و منها: أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق و قد قصه القرآن.

و منها: أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح و أهله بل اقتصر عليه و على بنيه و امرأته و نساء بنيه.

و منها: أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسع مائه و خمسين سنة، و ظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التى لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان. قال تعالى :

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» العنكبوت: -١٤.

و منها: ما ذكر فيه من حديث قوس قزح و قصه إرسال الغراب و الحمامة للاستخبار و خصوصيات السفينة من عرضها و طولها و ارتفاعها و طبقاتها الثلاث و مدة الطوفان و ارتفاع الماء و غير ذلك فهى خصوصيات لم تذكر فى القرآن الكريم و بعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس، و قد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعانى فى قصه نوح (ع) فى لسان الصحابة و التابعين، و أكثرها بالإسرائيليات أشبه.

٥- ما جاء فى أمر الطوفان فى أخبار الأمم و أساطيرهم:

قال صاحب المنار فى تفسيره: قد ورد فى تواريخ الأمم القديمه ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلا و منها المخالف له إلا قليلا.

و أقرب الروايات إليه روايه الكلدانيين، و هم الذين وقع الطوفان فى بلادهم

فقد نقل عنهم «برهوشع» و«يوسيفوس» أن «زيزستروس» رأى في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى و تغرق جميع البشر، و أمره ببناء سفينه يعتصم فيها هو و أهل بيته و خاصه أصدقائه ففعل. و هو يوافق سفر التكوين فى أنه كان فى الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها و أكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان.

و قد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الأجر نقشت فيها هذه الروايه بالحروف المسماريه فى عصر آشور بانيبال من نحو ستمائه و ستين سنه قبل ميلاد المسيح، و أنها منقوله من كتابه قديمه من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهى أقدم من سفر التكوين.

و روى اليونان خبرا عن الطوفان أوردته أفلاطون و هو أن كهنه المصريين قالوا لسولون-الحكيم اليونانى-إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض فهلك البشر مرارا بطرق مختلفه فلم يبق للجيل الجديد شىء من آثار من قبله و معارفهم.

و أورد «مانيتون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذى كان بعد ميناس الأول، و هذا أقدم من تاريخ التوراه أيضا، و روى عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الأرض كلها إلا «دو كاليون» و امرأته «بيرا» فقد نجوا منه.

و روى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد و الشرور بفعل أهرمين إله الشر، و قالوا: إن هذا الطوفان فار أولا- من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه، و لكن المجوس أنكروا عموم الطوفان و قالوا: إنه كان خاصا بإقليم العراق و انتهى إلى حدود كردستان.

و كذا قدماء الهنود يشبتون وقوع الطوفان سبع مرات فى شكل خرافى آخرها أن ملكهم نجا هو و امرأته فى سفينه عظيمه أمره بصنعها إلهه فشنو و سدها بالدر حتى استوت على جبل جيمافات-هملايا-و لكن البراهمه كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها، و روى تعدد الطوفان عن اليابان و الصين و عن البرازيل و المكسيك و غيرهما، و كل هذه الروايات تتفق فى أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم و شرورهم. انتهى.

و قد (١) وقع في «أوستا» و هو كتاب المجوس المقدس أن «أهورا مزدا» أوحى إلى «إيما» (و تعتقد المجوس أنه جمشيد الملك) أنه سيقع طوفان يغرق الأرض، و أمره أن يبني حائطا مرتفعا غاية يحفظ من في داخله من الغرق، و أن يجمع في داخله جماعه من الرجال و النساء صالحه للنسل، و يدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين، و يبني في داخل السور بيوتا و قبايا في طبقات مختلفه يسكنها الناس المجتمعون هناك و يأوى إليها الدواب و الطيور، و أن يغرس في داخله ما ينفع في حياه الناس من الأشجار المثمره، و يحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياه الدنيا و عمارتها.

و في تاريخ الأدب الهندي (٢) في قصه الطوفان: أنه بينما كان «مانو» (هو ابن الإله عند الوثنيين) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكه، و مما اندهش به أن السمكه كلمته و طلبت إنقاذها من الهلاك و وعدته جزاء عليه أنها ستنقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم، و الخطر العظيم المحقق الذي أنبأت به السمكه كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات و على ذلك حفظ «مانو» السمكه في المرتبان.

فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنه التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينه كبيره و يدخل فيها عند طوفان الماء قائله: أنا أنقذك من الطوفان، فمانو صنع السفينه و السمكه كبرت أكثر من سعه المرتبان لذلك ألقاها في البحر.

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكه، و حين دخل «مانو» السفينه عامت السمكه إليه فربط السفينه بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشماليه، و هنا ربط مانو السفينه بشجره، و عند ما تراجع الماء و جف بقى مانو وحده. انتهى.

٦- هل كانت نبوته عامه للبشر؟

مسأله اختلفت فيها آراء العلماء. فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته، و قد ورد من طرق أهل البيت (ع)

ص: ٢٥٩

١- ١) ترجمه كتاب أوستا بالفرنسيه المطبوعه بباريس.

٢- ٢) على ما في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار.

ما يدل عليه، و على أن أولى العزم من الأنبياء و هم نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد(ص) كانوا مبعوثين إلى الناس كافة.

و أما أهل السنه فمنهم من قال بعموم رسالته مستندا إلى ظاهر الآيات الناطقه بشمول الطوفان لأهل الأرض كلهم كقوله: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» نوح:- ٢٦ و قوله: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» هود:- ٤٣، و قوله: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» الصافات-٧٧، و ما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض و لازمه كونه مبعوثا إليهم كافة.

و منهم من أنكر ذلك مستندا إلى

ما ورد في الصحيح عن النبي ص:

«و كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصه- و بعث إلى الناس كافة» و أجابوا عن الآيات أنها قابله للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كانوا يسكنونها و هي وطنهم كقول فرعون لموسى و هارون: «وَتَكُونُ لَكُمْ الْأَرْضُ فِي الْأَرْضِ» يونس:- ٧٨.

فمعنى الآية الأولى: لا تذر على هذه الأرض من كافر قومي ديارا، و كذا المراد بالثانية: لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله، و المراد بالثالثة: و جعلنا ذريته هم الباقين من قومه.

و الحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم، و الذى ينبغى أن يقال: إن النبوه إنما ظهرت فى المجتمع الإنسانى عن حاجه واقعيه إليها و رباطه حقيقه بين الناس و بين ربهم و هى تعتمد على حقيقه تكوينيه لا- اعتباريه جزافيه فإن من القوانين الحقيقه الحاكمه فى نظام الكون ناموس تكميل الأنواع و هدايتها إلى غاياتها الوجوديه، و قد قال تعالى: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» الأعلى:- ٣، و قال :

«الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَى» طه:- ٥٠.

فكل نوع من أنواع الكون متوجه منذ أول تكونه إلى كمال وجوده و غايه خلقه الذى فيه خيره و سعاده، و النوع الإنسانى أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال و سعاده يسير إليها و يتوجه نحوها أفرادى و مجتمعين.

و من الضروري عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيويه و كثره الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملي الذي يبعثه إلى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه و استخدام الجماد و أصناف النبات و الحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بنى نوعه.

غير أن الأفراد أمثال و في كل واحد منهم من العقل العملي و الشعور الخاص الإنسانى ما فى الآخر و يبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الآخر ما عنده من العقل العملي، و اضطرهم ذلك إلى الاجتماع التعاونى بأن يعمل الكل للكل و ينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كل لغيره بمقدار ما يسخره كما قال تعال: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا»: الزخرف:-٣٢.

و هذا الذى ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاونى اضطرارى له ألزمه عليه حاجه الحياه و قوه الرقباء فهو فى الحقيقة مدنى تعاونى بالطبع الثانى و إلا- فطبعه الأولى أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه، و لذلك مهما قوى الإنسان و استغنى و استضعف غيره عدا عليه و أخذ يسترق الناس و يستثمرهم من غير عوض قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»: إبراهيم:-٣٤ و قال: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى»: العلق:-٨.

و من الضروري أن الاجتماع التعاونى بين الأفراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها و حفاظ تقوم بها، و هذا مما استمرت سيره النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملا كان أو ناقصا، راقيا كان أو منحطا إلا و يجرى فيه رسوم و سنن جريانا كليا أو أكثريا، و التاريخ و التجربه و المشاهده أعدل شاهد فى تصديقه و هذه الرسوم و السنن و إن شئت فسمها القوانين هى مواد و قضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقا كليا أو أكثريا فى المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظنا فهى أمور متخلله بين كمال الإنسان و نقصه، و أشياء متوسطه بين الإنسان و هو فى أول نشأته و بينه و هو مستكمل فى حياته عائش فى مجتمعه تهدى الإنسان إلى غايه وجوده فافهم ذلك.

و قد علم أن من الواجب فى عناية الله أن يهدى الإنسان إلى سعادته حياهه و كماله

وجوده على حد ما يهدى سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقه و الفطره إلى ما فيه خيره و سعاده و هو الذى يبعثها إليه نظام الكون و الجهازات التى جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه و يميز خيره من شره و سعاده من شقائه كما قال تعالى: «وَنَفْسٍ وَّمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» الشمس:- ١٠.

يهديه بواجب عنايته إلى أصول و قوانين اعتقاديه و عمليه يتم له بتطبيق شئون حياته عليها كماله و سعاده فإن العنايه الإلهيه بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهدايه كما توجب الهدايه التكوينييه المحضه.

و لا يكفى فى ذلك ما جهز به الإنسان من العقل -و هو هاهنا العملى منه- فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام و يدعو إلى الاختلاف، و من المحال أن يفعل شىء من القوى الفعاله فعلين متقابلين و يفيد أثرين متناقضين، على أن المتخلفين من هذه القوانين و المجرمين بأنواع الجرائم المفسده للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به.

فظهر أن هناك طريقا آخر لتعليم الإنسان شريعته الحق و منهج الكمال و السعاده غير طريق التفكير و التعقل و هو طريق الوحي، و هو نوع تكليم إلهى يعلم الإنسان ما يفوز بالعمل به و الاعتقاد له فى حياته الدنيويه و الآخروييه.

فإن قلت: الأمر سواء فإن شرع النبوه لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لأتى به فإن العالم الإنسانى لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل، و لم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الإنسانى و يركبه صراط الحق فما هى الحاجه إليه؟ قلت: لهذا البحث جهتان: جهه أن العنايه الإلهيه من واجبه أن تهدي المجتمع الإنسانى إلى تعاليم تسعده و تكمله لو عمل بها و هى الهدايه بالوحي و لا- يكفى فيها العقل، و جهه أن الواقع فى الخارج و المتحقق بالفعل ما هو؟ و إنما نبحت فى المقام من الجهه الأولى دون الثانية، و لا يضر بها أن هذه الطريقه لم تجر بين الناس إلى هذه الغايه إلا قليلا. و ذلك كما أن العنايه الإلهيه تهدي أنواع النبات و الحيوان إلى كمال خلقها و غايه وجودها و مع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول

إلى غايته النوعية و يفسد و يموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي.

و بالجمله فطريق النبوه مما لا مناص منه فى تربيته النوع بالنظر إلى العناية الإلهيه و إلا لم تتم الحجه بمجرد العقل لأن له شغلا غير الشغل و هو دعوه الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه، و لو دعه إلى شىء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فافهم ذلك و أحسن التدبر فى قوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا:» النساء:- ١٦٥.

فمن الواجب فى العناية أن ينزل الله على المجتمع الإنسانى دينا يدينون به و شريعه يأخذون بها فى حياتهم الاجتماعيه دون أن يخص بها قوما و يترك الآخرين سدى لا عناية بهم، و لازمه الضرورى أن يكون أول شريعه نزلت عليهم شريعه عامه.

و قد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعه بقوله عز من قائل: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه:» البقره:- ٢١٣، فبين أن الناس كانوا أول ما نشئوا و تكاثروا على فطره ساذجه لا يظهر فيهم أثر الاختلافات و المنازعات الحيويه ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعه و كتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، و يحسم ماده الخصومه و النزاع.

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد ص: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى:» الشورى:- ١٣.

و مقام الامتتان يقضى بأن الشرائع الإلهيه المنزله على البشر هي هذه التى ذكرت لا غير، و أول ما ذكر من الشريعه هي شريعه نوح، و لو لم يكن عامه للبشر كلهم و خاصه فى زمنه (ع) لكان هناك إما نبى آخر ذو شريعه أخرى لغير قوم نوح و لم يذكر فى الآيه و لا فى موضع آخر من كلامه تعالى، و إما إهمال سائر الناس غير

قومه (ع) في زمنه و بعده إلى حين.

فقد بان أن نبوه نوح (ع) كانت عامه، و أن له كتابا و هو المشتمل على شريعته الرافعه للاختلاف، و أن كتابه أول الكتب السماويه المشتمله على الشريعه، و أن قوله تعالى في الآيه السابقه « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » هو كتابه أو كتابه و كتاب غيره من أولى العزم: إبراهيم و موسى و عيسى و محمد ص.

و ظهر أيضا أن ما يدل من الروايات على عدم عموم دعوته (ع) مخالف للكتاب

و في حديث الرضا (ع): أن أولى العزم من الأنبياء خمس- لكل منهم شريعه و كتاب و نبوتهم عامه لجميع من سواهم- نبيا أو غير نبي، و قد تقدم الحديث في ذيل قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً.» البقره- ٢١٣، في الجزء الثاني من الكتاب.

٧- هل الطوفان كانت عامه لجميع الأرض؟

اشاره

تبيين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته (ع) يقضى بعموم العذاب، و هو نعم القرينه على أن المراد بسائر الآيات الداله بظاهاها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح (ع): «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا.» نوح- ٢٦، و قوله حكاية عنه: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ.» هود: -٤٣، و قوله :

«وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ.» الصافات: -٧٧.

و من الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصا بصقع من أصقاع الأرض و ناحيه من نواحيها كالعراق- كما قيل- لم يكن أى حاجه إلى أن يحمل في السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين.

و هو ظاهر.

و اختار بعضهم كون الطوفان خاصا بأرض قوم نوح (ع) قال صاحب المنار في تفسيره: «أما قوله في نوح (ع) بعد ذكر تنجيته و أهله: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافيا أى الباقين دون غيرهم من قومهم، و أما

قوله: « وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » فليس نصا في أن المراد بالأرض هذه الكره كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والأقوام و في أخبارهم أن تذكر الأرض و يراد بها أرضهم و وطنهم كقوله تعالى حكايه عن خطاب فرعون لموسى و هارون: « وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ » يعنى أرض مصر، وقوله:

« وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا » فالمراد بها مكه، وقوله:

« وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » والمراد بها الأرض التى كانت وطنهم، و الشواهد عليه كثيره.

و لكن ظواهر الآيات تدل بمعونه القرائن و التقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على أنه لم يكن فى الأرض كلها فى زمن نوح إلا قومه و أنهم هلكوا كلهم بالطوفان و لم يبق بعده فيها غير ذريته، وهذا يقتضى أن يكون الطوفان فى البقعه التى كانوا فيها من الأرض سهلها و جبلها لا فى الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسه منها فى ذلك الزمن صغيره لقرب العهد بالتكوين و بوجود البشر عليها فإن علماء التكوين و طبقات الأرض-الجيولوجيه-يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كره ناريه ملتبهه ثم صارت كره مائيه ثم ظهرت فيها اليابسه بالتدرج.

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنا نجد بعض الأصداف و الأسماك المتحجره فى أعالي الجبال و هذه الأشياء مما لا تتكون إلا فى البحر فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها مره من المرات، و لن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض هذا.

و رد عليه بأن وجود الأصداف و الحيوانات البحريه فى قلال الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكون الجبال و غيرها من اليابسه فى الماء كما قلنا آنفا فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدوده لا يكفى لحدوث ما ذكر فيها.

ثم قال ما ملخصه: أن هذه المسائل التاريخيه ليست من مقاصد القرآن و لذلك لم يبينها بنص قطعى فنحن نقول بما تقدم أنه ظاهر النصوص و لا نتخذة عقيدته دينيه قطعيه فإن أثبت علم الجيولوجيه خلافه لا يضرنا لأنه لا ينقض نصا

قطعيًا عندنا. انتهى.

أقول: أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل، و أما قوله في رد قولهم بوجود الأصداف و الأسماك في قلل الجبال: إن صعود الماء إليها في أيام معدوده لا يكفي في حدوثها! فيه أن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمه إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخه في أيام معدوده غير عزيز.

و بعد ذلك كله قد فاته ما ينص عليه الآيات أنه(ع) أمر أن يحمل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في أن الطوفان عم البقاع اليابسه من الأرض جميعا أو معظمها الذي هو بمنزله الجميع.

فالحق أن ظاهر القرآن الكريم-ظهورا لا- ينكر- أن الطوفان كان عاما للأرض، و أن من كان عليها من البشر أغرقوا جميعا و لم يبق لهذا الحين حجه قطعيه تصرفها عن هذا الظهور.

[بحث جيولوجي ملحق بهذا الفصل في فصول]

و قد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم أستاذ الجيولوجيا بكليه طهران أن يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجيه في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلى فأجابني بإيفاد مقال محصله ما يأتي مفصلا في فصول:

١- الأراضي الرسوبية:

تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الأرضيه التي كونتها رسوبات المياه الجاريه على سطح الأرض كالبطائح و المسيلات التي غطتها الرمال و دقاق الحصى.

نعرف الأراضي الرسوبيه بما تراكم فيها من الرمال و دقاق الحصى الكرويه المدوره فإنها كانت في الأصل قطعات من الحجاره حاده الأطراف و الزوايا حولتها إلى هذه الحاله الاصطكاكات الواقعه بينها في المياه الجاريه و السيول العظيمه ثم إن الماء حملها و بسطها على الأرض في غايات قريبه أو بعيدة بالرسوب.

و ليست تنحصر الأراضي الرسوبيه في البطائح فغالب الأراضي الترابيه من

هذا القبيل تخالطها أو تكونها رمال بالغه في الدقه، و قد حملها لدقتها و خفتها إليها جريان المياه و السيول.

نجد الأراضي الرسوبية و قد غطتها طبقات مختلفه من الرمل و التراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب و نظم، و ذلك-أولا- أماره أن تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه و-ثانيا- أن مسير المياه و السيول أو شدة جريانها قد تغير بحسب اختلاف الأزمنه.

و يتضح بذلك أن الأراضي الرسوبية كانت مجارى و مسائل في الأزمنه السابقه لمياه و سيول هامه و إن كانت اليوم في معزل من ذلك.

و هذه الأراضي التي تحكى عن جريان مياه كثيره جدا و سيلان سيول هائله عظيمه توجد في أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضي طهران و قزوین و سمنان و سبزوار و يزد و تبريز و کرمان و شیراز و غيرها، و منها مركز بين النهرين و جنوبه، و ما وراء النهر، و صحراء الشام، و الهند، و جنوب فرنسا، و شرقي الصين، و مصر، و أكثر قطعات أمريكا، و تبلغ صحامه الطبقة الرسوبية في بعض الأماكن إلى مئات الأمتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربع مائة مترا.

و ينتج مما مر أولا: أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد (على ما سيأتى توضيحه) كان مجرى سيول هائله عظيمه ربما غطت معظم بقاعها.

و ثانيا: أن الطغيان و الطوفان-بالنظر إلى صحامه القشر الرسوبى في بعض الأماكن- لم يحدث مره واحده و لا في سنه أو سنين معدوده بل دام أو تكرر في مئات من السنين كلما حدث مره كون طبقه رسوبيه ثم إذا انقطع غطتها طبقه ترايبه ثم إذا عاد كون أخرى و هكذا و كذلك اختلاف الطبقات الرسوبيه في دقه رمالها و عدمها يدل على اختلاف السيلان بالشده و الضعف.

٢- الطبقات الرسوبية أحدث القشور و الطبقات الجيولوجيه:

ترسب الطبقات الرسوبيه عادة رسوبا أفقيا و لكن ربما وقعت أجزاءها المتراكمه تحت ضغوطات جانبيه قويه شديده على ما بها من الدفع من فوق و من تحت فتخرج بذلك

تدریجا عن الأفقیه إلى التدویر و الالتواء، و هذا غیر ظاهر الأثر فی الأزمنه القصیره المحدوده لكن إذا تمادی الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر و تكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتویه بعض تلالها فی بعض و ترتفع بقللها من سطوح البحار.

و يستنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبیه و القشور الأفقیه الباقیه علی حالها من أحدث الطبقات المتكونه علی البسيط، و الدلائل الفنیه الموجوده تدل علی أن عمرها لا یجاوز عشره آلاف إلى خمس عشره ألف سنه من زماننا هذا (١). (١)

٣- انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها:

كأن تكون القشور الرسوبیه الجديده عاملا فی انبساط أكثر بحار الكره و اتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها و غطت أكثر سواحلها و عملت جزائر فی السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها.

فمن ذلك جزیره بريطانيا انقطعت فی هذا الحین من فرنسا و انفصلت من أوروبا بالکلیه، و كانت أوروبا من ناحیه جنوبها و إفريقيا من ناحیه شمالها مرتبطين برابط بری إلى هذا الحین فانفصلتا باتساع البحر المتوسط (مدیترانه) و تكون بذلك شبه جزیره إيطاليا و شبه جزیره تونس من شمالها الشرقی و جزائر صقلیه و سردينیا و غيرها و كانت جزائر أندونيسیا من ناحیه جاوا و سوماترا إلى جنوبی جزیره اليابان متصله بآسيا من جهه الجنوب الشرقی إلى هذا الحین فانفصلت و تحولت إلى صورتها الفعلیه، و كذا انقطاع أمريكا الشماليه من جهه شمالها عن شمال أوروبا أحد الآثار الباقیه من هذا العهد عهد الطوفان.

و للحركات و التحولات الأرضیه الداخليه آثار فی سير هذه المياه و استقرارها فی البقاع الخافضه المنحدره و لذلك كان ینكشف الماء عن بعض البقاع الساحلیه المغموره بماء البحار فی حین كان الطوفان مستولیا علی أكثر البسيط یكون بحیرات

ص: ٢٤٨

١- ١) و یستثنى من ذلك بعض ما فی أطراف بالتيك و سائر المناطق الشماليه من طبقات رسوبیه أفقیه باقیه علی حالها من أقدم العهود الجیولوجیه لجهات مذكوره فی محلها.

و يوسع بحارا،و من هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبيه انكشف عنها ماء الخليج(١). (١)

٤-العوامل المؤثره فى ازدياد المياه و غزاره عملها فى عهد الطوفان:

الشواهد الجيولوجيه التى أشرنا إلى بعضها تؤيد أن النزولات الجويه كانت غير عاديه فى أوائل الدور الحاضر من أدوار الحياه الإنسانيه و هو عهد الطوفان،وقد كان ذلك عن تغيرات جويه هامه خارقه للعادة قطعاً.فكان الهواء حارا فى هذه دوره نسبه لكن كان ذلك مسبقا ببرد شديد و قد غطى معظم النصف الشمالى من الكره الثلج و الجمد و الجليد فمن المحتمل قويا أن المتراكم من جمد دوره السابقه عليه كان باقيا لم يذب بعد فى النجود فى أكثر بقاع المنطقه المعتدله الشماليه.

فعمل الحراره فى سطح الأرض فى دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد و الجليد يوجب تغيرا شديدا فى الجو و انقلابا عظيما مؤثرا فى ارتفاع بخار الماء إليه و تراكمه فيه تراكما هائلا غير عادى و تعقبه نزولات شديده و أمطار غزيره غير معهوده.

نزول هذه الأمطار الغزيره الهاطله ثم استدامتها النزول على الارتفاعات و النجود و خاصه على سلاسل الجبال الجديده الحدوث فى جنوب آسيا و مغربها و جنوب أوروبا و شمال إفريقيا كجبال (٢)ألبرز و هيماليا و آلب و فى مغرب أمريكا عقب جريان سيول عظيمه هائله عليها تنحت الصخور و تحفر الأرض و تقلع أحجارا و تحملها إلى الأراضى و البقاع المنحدره و تحدث أوديه جديده و تعمق أخرى قديمه و توسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجاره و الحصى و الرمل تجاهها قشورا رسوبيه جديده.

و مما كان يمد الطوفان السماوى فى شده عمله و يزيد حجم السيول الجاريه أن حفر الأوديه الجديده كان يكشف عن ذخائر مائه فى بطن الأرض هى منابع

ص: ٢٦٩

١- ١) و قد كانت مدينه شوش و قصر الكرخه فى زمن الملوك الهخامنشيه بإيران على ساحل البحر و كانت السفن الشراعيه الجاريه فى خليج فارس تلقى مراسيها أمام القصر.

٢- ٢) فهى أقل عمرا من سائر جبال الأرض لم تعمر أكثر من مليونى سنه و لذلك كانت أشهب جبال الأرض و أعلى قللا من غيرها لقله ما ورد عليها من أسباب النحت كالأمطار و الرياح.

الآبار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظه لها المانع من سيلانها فيفجر العيون و يجريها مع السيول المطريه، و يزيد في قوه تخريبها و يعينها في إغراق ما على الأرض من سهل و جبل و غمره.

غير أن الذخائر الأرضيه متناهيه محدوده تنفذ بالسيلان و بنفادها و إمساك السماء عن الإمطار ينقضى الطوفان و تنحدر المياه إلى البحار و الأراضي المنخفضه و إلى بعض الخلاء و السرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير و المص.

٥- نتیجه البحث:

و على ما قدمناه من البحث الكلي يمكن أن ينطبق ما قصه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح(ع) كقوله تعالى :

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: القمر:-١٢، و قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورُ: هود:-٤٠، و قوله :

«وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ:»

هود:-٤٤ انتهى.

و مما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد (١) طهران في هذه الأيام و ملخصه: أن جماعه من رجال العلم من أمريكا بهدايه من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل آراراط في شرقى تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطى القياس أنها قطعات متلاشيه من سفينه قديمه وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمه ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

و القياس يعطى أنها قطعات من سفينه يعادل حجمه ثلثى حجم مركب «كوئين ماري» الإنجليزيه التى طولها ١٠١٩ قدما و عرضها ١١٨ قدما، و قد حملت الأخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق أمرها و أنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينه نوح؟(ع).

٨- عمره(ع) الطويل:

القرآن الكريم يدل على أنه(ع) عمر طويل،

ص : ٢٧٠

(١-١) جريده كيهان المنتشره أول سبتمبر ١٩٦٢ المطابق لغره ربيع الأول ١٣٨٢ الهجريه القمرية عن لندن. آسوشيتدبرس.

و أنه دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله سبحانه، وقد استبعده بعض الباحثين لما أن الأعمار الإنسانيه لا تتجاوز في الأغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم أن القدماء كانوا يعدون كل شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاما يعدل ثمانين سنة إلا عشره شهور. و هو بعيد غايته.

و ذكر بعضهم أن طول عمره (ع) كان كرامه له خارقه للعادة، قال الثعلبي في قصص الأنبياء في خصائصه (ع): و كان أطول الأنبياء عمرا و قيل له أكبر الأنبياء و شيخ المرسلين، و جعل معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة و لم ينقص له سن و لم تنقص له قوه. انتهى.

و الحق أنه لم يرقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمر الإنسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب في الاعتبار أن يعمر البشر الأولى بأزيد من الأعمار الطبيعيه اليوم بكثير لما كان لهم من بساطه العيش و قله الهموم و قله الأمراض المسلطه علينا اليوم و غير ذلك من الأسباب الهادمه للحياه، و نحن كلما وجدنا معمرا عمر مائه و عشرين إلى مائه و ستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقى بعض الأعمار في السابقين إلى مئات من السنين.

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح (ع) و هو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقه للعادة شيئا كثيرا لعجيب. و قد تقدم كلام في المعجزه في الجزء الأول من الكتاب.

٩- أين هو جبل الجودي:

ذكروا أنه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية، و قد سماه في التوراه آراراط. قال في القاموس: و الجودي جبل بالجزيره استوت عليه سفينه نوح (ع)، و يسمى في التوراه «آراراط» انتهى، و قال في مراصد الاطلاع: الجودي مشدده جبل مطل على جزيره ابن عمر في شرقي دجله من أعمال الموصل استوت عليه سفينه نوح لما نضب الماء.

[١٠- شبهه و جوابها]

١٠- ربما قيل: هب أنه أغرق قوم نوح بذنوبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلكت بطاغيه المياه؟ و هذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك و لو كان عاما عقوبه و انتقاما، و الحوادث العامه التي تهلك الألوف ثم الألوف

مثل الزلازل و الطوفانات و الوباء و الطاعون كثير الوقوع فى الدهر، و لله فيما يقضى حكم.

(كلام فى عباده الأصنام فى فصول)

١- الإنسان و اطمئناؤه إلى الحس:

الإنسان يجرى فى حياته الاجتماعيه على اعتبار قانون العليه و المعلوليه الكلى و سائر القوانين الكليه التى أخذها من هذا النظام العام المشهود، و هو على خلاف ما نشاهده من أعمال سائر الحيوان و أفعاله يجرى فى التفكير و الاستدلال أعنى القياس و الاستنتاج إلى غايات بعيده.

و هو مع ذلك لا يستقر فى فحصه و بحثه على قرار دون أن يحكم فى عله هذا العالم المشهود الذى هو أحد أجزاءه بشىء من الإثبات و النفى لما يرى أن سعادته حياته التى لا بغيه عنده أحب منها تختلف على تقديري إثبات هذه العله الفاعله المسماه بالإله عز اسمه و نفيه اختلافا جوهريا فمن البين أن لا مضاهاه بين حياه الإنسان المتأله الذى يثبت للعالم إلهها حيا عليما قديرا لا مناص عن الخضوع لعظمته و كبريائه و الجرى على ما يحبه و يرضاه، و بين حياه الإنسان الذى يرى العالم سدى لا مبدأ له و لا غايه، و ليس فيه للإنسان إلا- الحياه المحدوده التى تفنى بالموت و تبطل بالقوت، و لا- موقف للإنسانيه فيه إلا ما للحيوان العجم من موقف الشهوه و الغضب و بغيه البطن و الفرج.

فهذه نزعه فكريه أولى للإنسان إلى الحكم بأنه: هل للوجود من إله؟ و تتلوه نزعه ثانيه و هى القضاء الفطرى بالإثبات، و الحكم بأن للعالم إلهها خلق كل شىء بقدرته و أجرى النظام العام بربوبيته فهدى كل شىء إلى غايته و كمال وجوده بمشيته و سيعود كل إلى ربه كما بدى. هذا.

ثم إن مزاوله الإنسان للحس و المحسوس مدى حياته و انكبابه على ماده و إخلاده إلى الأرض عوده أن يمثل كل ما يعقله و يتصوره تمثيلا- حسيا و إن كان مما لا- طريق للحس و الخيال إليه البته كالكليات و الحقائق المنزهه عن ماده على أن الإنسان إنما ينتقل إلى المعقولات من طريق الإحساس و التخيل فهو أنيس الحس

و أليف الخيال.

و قد قضت هذه العاده اللازمه على الإنسان أن يصور لربه صورته خياليه على حسب ما يألفه من الأمور الماديه المحسوسه حتى أن أكثر الموحدين ممن يرى تنزه ساحه رب العالمين تعالى و تقديس عن الجسميه و عوارضها يثبت في ذهنه له تعالى صورته مبهمه خياليه معتزله للعالم تبادر ذهنه إذا توجه إليه في مسأله أو حدث عنه بحديث غير أن التعليم الدينى أصلح ذلك بما قرر من الجمع بين النفي و الإثبات و المقارنه بين التشبيه و التنزيه يقول الموحده المسلم: أنه تعالى شىء ليس كمثل شىء له قدره لا كقدره خلقه، و علم لا كالعلوم و على هذا القياس.

و قل إن يتفق لإنسان أن يتوجه إلى ساحه العزه و الكبرياء و نفسه خاليه عن هذه المحاكاه، و ما أشد أن يسمح الوجود برجل قد أخلص نفسه لله سبحانه غير متعلق القلب بمن دونه، و لا ممسوس بالتسويلات الشيطانيه، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ الصافات: -١٦٠، و قال حكايه عن إبليس :

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ ص: -٨٣.

و بالجمله الإنسان شديد الولع بتخيل الأمور غير المحسوسه فى صورته الأمور المحسوسه فإذا سمع أن وراء الطبيعه الجسميه ما هو أقوى و أقدر و أعظم و أرفع من الطبيعه و أنه فعال فيها محيط بها أقدم منها مدبر لها حاكم فيها لا يوجد شىء إلا بأمره و لا يتحول عن حال إلى حال إلا بإرادته و مشيئته لم يتلق من جميع ذلك إلا ما يضاهى أوصاف الجسمانيات و ما يتحصل من قياس بعضها إلى بعض.

و كثيرا ما حكاه فى نفسه بصوره إنسان فوق السماوات جالس على عرش الملك يدبر أمر العالم بالتفكر و يتممه بالإرادة و المشيه و الأمر و النهى، و قد صرحت التوراه الموجوده بأن الله سبحانه كذلك، و أنه تعالى خلق الإنسان على صورته، و ظاهر الأناجيل أيضا ذلك.

فقد تحصل أن الأقرب إلى طبع الإنسان و خاصه الإنسان الأولى الساذج أن يصنع لربه المنزه عن الشبه و المثل صورته يضاهى بها الذوات الجسمانيه و تناسب

ص: ٢٧٣

الأوصاف و النعوت التي يصفها بها كما يمثل الثالث بإنسان ذو وجوه ثلاثة كأن كلا من النعوت العامه وجه للرب يواجه به خلقه.

٢- الإقبال إلى الله بالعباده:

إذا قضى الإنسان أن للعالم إلها خلقه بعلمه و قدرته لم يكن له بد من أن يخضع له خضوع عباده اتباعا للناموس العالم الكونى و هو خضوع الضعيف للقوى و مطاوعه العاجز للقادر، و تسليم الصغير الحقيق للعظيم الكبير فإنه ناموس عام جار فى الكون حاكم فى جميع أجزاء الوجود، و به يؤثر الأسباب فى مسبباتها و تتأثر المسببات عن أسبابها.

و إذا ظهر الناموس المذكور لذوات الشعور و الإراده من الحيوان كان مبدأ للخضوع و المطاوعه من الضعيف للقوى كما نشاهده من حال الحيوانات العجم إذا شعر الضعيف منها بقوه القوى آثسا من الظهور عليه و قدره على مقاومته.

و ظهوره فى العالم الإنسانى أوسع و أبين من سائر الحيوان لما فى هذا النوع من عمق الإدراك و خصيصه الفكر فهو متفنن فى إجراءاته فى غالب مقاصده و أعماله جلبا للنفع أو دفعا للضرر كخضوع الرعيه للسلطان و الفقير للغنى و المرءوس للرئيس و المأمور للأمر و الخادم للمخدوم و المتعلم للعالم و المحب للمحسوب و المحتاج للمستغنى و العبد للسيد و المربوب للرب.

و جميع هذه الخضوعات من نوع واحد و هو تذلل و هوان نفسانى قبال عزه و قهر مشهود، و العمل البدنى الذى يظهر هذا التذلل و الهوان هى العباده أيا ما كانت؟ و ممن و لمن تحققت؟ و لا فرق فى ذلك بين الخضوع للرب تعالى و بينه إذا تحقق من العبد بالنسبه إلى مولاه أو من الرعيه بالنسبه إلى السلطان أو من المحتاج بالنسبه إلى المستغنى أو غير ذلك فالجميع عباده.

و على أى حال لا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع لاستناده إلى قضاء فطرى ليس للإنسان أن يتجافى عنه إلا أن يتبين له أن الذى كان يظنه قويا و يستضعف نفسه دونه ليس على ما كان يظنه بل هما سواء مثلا.

و من هنا ما نرى أن الإسلام لم ينه عن اتخاذ آلهه دون الله و عبادتهم إلا بعد ما بين للناس أنهم مخلوقون مربوبون أمثالهم، و أن العزه و القوه لله جميعا قال

تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حِبَادٌ أَشْتَكُواكُمْ»: الأعراف: -١٩٤ و قال :

«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِغُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»: الأعراف: -١٩٨ و قال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»: آل عمران: -٦٤ ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى بعد ما دعاهم إلى ترك عباده غير الله تعالى من الآلهة و رفض الخضوع لسائر المخلوقين المماثلين لهم و قال تعالى: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا»: البقره: -١٦٥، و قال: «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا»: النساء: -١٣٩ و قال: «مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ»: الم السجده: -٤ إلى غير ذلك من الآيات.

فليس عند غيره تعالى ما يدعو إلى الخضوع له فلا يسوغ الخضوع لأحد ممن دونه إلا أن يثول إلى الخضوع لله و يرجع تعزيره أو تعظيمه و ولايته إلى ناحيته قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ -X إلى أن قال -X- فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»: الأعراف: -١٥٧، و قال: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا -X إلى قوله -X- وَ هُمْ رَاكِعُونَ»: المائدة: -٥٥، و قال: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»: التوبه: -٧١، و قال: «وَ مَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»: الحج: -٣٢، فلا خضوع في الإسلام لأحد دون الله إلا ما يرجع إليه تعالى و يقصد به.

٣- كيف نشأت الوثنيه؟

و بما ذا بدأت؟ اتضح في الفصل المتقدم أن الإنسان في مزله من تجسيم الأمور المعنويه و سبك غير المحسوس في قالب المحسوس بالتمثيل و التصوير و هو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أى قوه فائقه قاهره و الاعتناء بشأنها.

ولذا كانت روح الشرك و الوثنيه ساريه في المجتمع الإنساني سرايه تكاد لا- تقبل التحرز و الاجتناب حتى في المجتمعات الراقية الحاضره و حتى في المجتمعات المبنيه على أساس رفض الدين فترى فيها من النصب و تماثيل الرجال و تعظيمها

و احترامها و البلوغ فى الخضوع لها ما يمثل لك و ثنيه العهود الأولى و الإنسان الأولى.

على أن اليوم من الوثنيه على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين فى شرقها و غربها.

و من هنا يتأيد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنيه مبتدئه بين الناس باتخاذ تماثيل الرجال العظماء و نصب أصنامهم و خاصه بعد الموت ليكون فى ذلك ذكرى لهم، و قد ورد فى روايات أئمه أهل البيت ما يؤيد ذلك

ففى تفسير القمى، مضمرا و فى علل الشرائع، مسندا عن الصادق (ع): فى قوله تعالى: «و قالوا لا تذرنا آلِهَتِكُمْ» الآية، قال: كانوا يعبدون الله عز و جل فماتوا-فضح قومهم و شق ذلك عليهم-فجاءهم إبليس لعنه الله و قال لهم: أتخذ لكم أصناما على صورهم-فتنظرون إليهم و تأنسون بهم و تعبدون الله، فأعد لهم أصناما على مثالهم فكانوا يعبدون الله عز و جل-و ينظرون إلى تلك الأصنام، فلما جاءهم الشتاء و الأمطار أدخلوا الأصنام البيوت-.

فلم يزالوا يعبدون الله عز و جل حتى هلك ذلك القرن-و نشأ أولادهم فقالوا:

إن آباءنا كانوا يعبدون هؤلاء-فعبدهم من دون الله عز و جل فذلك قول الله تبارك و تعالى: «و لا تذرنا و دًا و لا سُواعًا» الآية.

و كان رب البيت فى الروم و اليونان القديمين- على ما يذكره التاريخ- يعبد فى بيته فإذا مات اتخذ له صنم يعبده أهل بيته، و كان كثير من الملوك و العظماء معبودين فى قومهم، و قد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم (ع) الذى حاجه فى ربه، و فرعون موسى.

و هو ذا يوجد فى بيوت الأصنام الموجوده اليوم و كذا بين الآثار العتيقه المحفوظه عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كصنم بوذا و أصنام كثير من البراهمه و غيرهم.

و اتخاذهم أصنام الموتى و عبادتهم لها من الشواهد على أنهم كانوا يرون أنهم لا يبطلون بالموت و أن أرواحهم باقيه بعده، لها من العناية و الأثر ما كان فى حال حياتهم بل هى بعد الموت أقوى وجودا و أنفذ إرادته و أشد تأثيرا لما أنها خلصت من

شوب الماده و نجت من التأثيرات الجسمانيه و الانفعالات الجرمانيه، و كان فرعون موسى يعبد أصناما له و هو إله و معبود في قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُؤُا مُوسَىٰ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يُدْرِكُوا آلِهَتَكُمْ﴾: الأعراف: -١٢٧.

٤- اتخاذ الأصنام لأرباب الأنواع و غيرهم:

كان اتخاذ تماثيل الرجال هو الذي نبه الناس على اتخاذ صنم الإله إلا أنه لم يعهد منهم أن يتخذوا تمثالا لله سبحانه المتعالى أن يحيط به حد أو يناله وهم، و كأن هذا هو الذي صرفهم عن اتخاذ صنمه بل تفرقوا في ذلك فأخذ كل ما يهيمه من جهات التدبير المشهود في العالم فتوسلوا إلى عباده الله بعباده من و كله إلى الله على تدبير تلك الجبهه المعنى بها بزعمهم.

فالقاطنون في سواحل البحار عبدوا رب البحر لينعم عليهم بفوائدها و يسلموا من الطوفان و الطغيان، و سكان الأودية رب الوادي، و أهل الحرب رب الحرب، و هكذا.

و لم يلبثوا دون أن اتخذ كل منهم ما يهواه من إله فيما يتوهمه من الصورة و الشكل، و مما يختاره من فلز أو خشب أو حجاره أو غير ذلك حتى روى أن بنى حنيفه من اليمامة اتخذوا لهم صنما من أقط ثم أصابهم جذب و شملهم الجوع فهجموا عليه فأكلوه.

و كان الرجل إذا وجد شجره حسنه أو حجرا حسنا و هواه عبده، و كانوا يذبجون غنما أو ينحرون إبلا فيلطحونه بدمه فإذا أصاب مواشيهم داء جاءوا بها إليه فمسحوها به، و كانوا يتخذون كثيرا من الأشجار أربابا فيتبركون بها من غير أن يمسوها بقطع أو كسر و يتقربون إليها بالقرايين و يأتون إليها بالنذورات و الهدايا.

و ساقهم هذا الهرج إلى أن ذهبوا في أمر الأصنام مذاهب شتى لا يكاد يضبطها ضابط، و لا يحيط بها إحصاء غير أن الغالب في معتقداتهم أنهم يتخذونها شفعا يستشفعون بها إلى الله سبحانه لي جلب إليهم الخير و يدفع عنهم الشر، و ربما أخذها بعض عامتهم معبوده لنفسها مستقلة بالألوهيه من غير أن تكون شفعا و ربما كانوا يتخذونها شفعا و يقدمونها أو يفضلونها على الله سبحانه كما يحكيه القرآن في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ﴾:

و كان بعضهم يعبد الملائكة و آخرون يعبدون الجن، و قوم يعبدون الكواكب الثابتة كـشعري، و طائفه تتخذ بعض السيارات إلها- و قد أشير إلى جميع ذلك في الكتاب الإلهي- كل ذلك طمعا في خيرها أو خوفا من شرها.

و قل أن يتخذ إله من دون الله و لا يتخذ له صنم يتوجه إليه في العبادات به بل كانوا إذا اتخذوا شيئا من الأشياء إلها شفيعا عملوا له صنما من خشب أو حجر أو فلز، و مثلوا به ما يتوهمونه عليه من صوره الحياه فيسوونه في صوره إنسان أو حيوان و إن كان صاحب الصنم على غير الهيئه التي حكوه بها كالكواكب الثابتة و السياره و إله العلم و الحب و الرزق و الحرب و نحوها.

و كان الوجه في اتخاذ أصنام الشركاء قولهم: إن الإله لتعالیه عن الصوره المحسوسه كأرباب الأنواع و سائر الآلهه غير الماديه أو لعدم ثباته على حاله الظهور كالكوكب الذي يتحول من طلوع إلى غروب يصعب التوجه إليه كلما أريد بالتوجه فمن الواجب أن يتخذ له صنم يمثله في صفاته و نعوته فيصمد إليه بوسيلته كلما أريد.

٥- الوثنيه الصابئه.

الوثنيه و إن رجعت- بالتقريب- إلى أصل واحد هو اتخاذ الشفعاء إلى الله و عباده أصنامها و تماثيلها، و لعلها استولت على الأرض و شملت العالم البشرى مرارا كما يحكيه القرآن الكريم عن الأمم المعاصره لنوح و إبراهيم و موسى (ع) إلا- أن اختلاف المنتحلين بها بلغ من التشتت و اتباع الأهواء و الخرافات مبلغا كان حصر المذاهب الناشئه فيها كالمحال و أكثرها لا تبتنى على أصول متقرره و قواعد منتظمه متلائمه.

و مما يمكن أن يعد منها مذهبا قريبا من الانتظام و التحصل مذهب الصابئه و الوثنيه البرهميه و البوذيه:

أما الوثنيه الصابئه فهي تبتنى على ربط الكون و الفساد و حوادث العالم الأرضى إلى الأجرام العلويه كالشمس و القمر و عطارد و الزهره و مريخ و المشترى و زحل و أنها بما لها من الروحانيات المتعلقه بها هي المدبره للنظام المشهود يدبر كل منها ما يتعلق به من الحوادث على ما يصفه فن أحكام النجوم، و يتكرر بتكرر دوراتها الأدوار

و الأكوار من غير أن تقف أو تنتهى إلى أمد.

فهى وسائط بين الله سبحانه و بين هذا العالم المشهود تقرب عبادتها الإنسان منه تعالى ثم من الواجب أن يتخذ لها أصنام و تماثيل فيتقرب إليها بعباده تلك الأصنام و التماثيل.

و ذكر المورخون أن الذى أسس بنيانها و هذب أصولها و فروعها هو «يوداسف» المنجم ظهر بأرض الهند فى زمن طهمورث ملك إيران، و دعا إلى مذهب الصابئه فاتبعه خلق كثير، و شاع مذهبه فى أقطار الأرض كالروم و اليونان و بابل و غيرها، و بنيت لها هياكل و معابد مشتمله على أصنام الكواكب، و لهم أحكام و شرائع و ذبائح و قرابين يتولاها كهنتهم. و ربما ينسب إليهم ذبح الناس.

و هؤلاء يوحدون الله فى ألوهيته لا فى عبادته، و ينزهونه عن النقائص و القبائح، و يصفونه بالنفى لا بالإثبات كقولهم لا يعجز و لا يجهل و لا يموت و لا يظلم و لا يجور، و يسمون ذلك بالأسماء الحسنى مجازا و ليسوا بقائلين باسم حقيقه و قد قدمنا شيئا من تاريخهم فى تفسير قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ:» الآية، البقره: -٦٢ فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

٦- الوثنيه البرهميه:

و البرهميه-على ما تقدم- من مذاهب الوثنيه المتأصله، و لعلها أقدمها بين الناس فإن المدينه الهنديه من أقدم المدينيات الإنسانيه لا يضبط بدء تاريخى لها على التحقيق، و لا يضبط بدء تاريخى لوثنيه الهند غير أن بعض المورخين كالمسعودى و غيره ذكروا أن برهم اسم أول ملوك الهند الذى عمر بلادها و أسس قواعد المدينه فيها و بسط العدل بين أهلها.

و لعل البرهميه نشأت بعده باسمه فكثيرا ما كانت الأمم الماضيه يعبدون ملوكهم و الأعظم من أقوامهم لاعتقادهم أنهم ذوو سلطه غيبيه و أن اللاهوت ظهر فيهم نوع ظهور، و يؤيده بعض التأييد أن الظاهر من «ويدا» و هو كتابهم المقدس أنه مجموع من رسائل و مقالات شتى ألف كل شطر منها بعض رجال الدين فى أزمه مختلفه ورثوها من بعدهم فجمعت و ألفت كتابا يشير إلى دين ذى نظام و قد صرح به علماء سانسكريت و لازم ذلك أن يكون البرهميه كغيرها من مذاهب الوثنيه مبتدئه

من أفكار عاميه غير قيمه،متطوره فى مراحل التكامل حتى بلغت حظها من الكمال.

ذكر البستاني فى دائره المعارف ما ملخصه:

برهم (بفتحيتين فسكون أو بفتح الباء و الهاء و سكون الراء)هو المعبود الأول و الأ-كبر عند الهنود و هو عندهم أصل كل الموجودات واحد غير متغير و غير مدرك أزلى مطلق سابق كل مخلوق خلق العالم كله بمجرد ما أراد دفعه واحده بقوله:
أوم أى كن.

و حكايه برهم تشبه من كل وجه حكايه«اى بوذه»فليس الفرق إلا- فى الاسم و الصفات و كثيرا ما يجعلون نفس برهم اسما للأقنيم الثلاثة المؤلف منها ثلوث الهنود، و هى:«برهما و شنو و سيوا»و يقال لعبده برهم:البرهميون أو البراهمه.

و أما برهما فهو نفس برهم معبود الهنود بعد أن شرع فى أعماله(بدليل زياده الألف فى آخره و هو من اصطلاحاتهم)و هو الأقنوم الأول من الثلوث الهندى أى إن برهم ينبثق فى نفسه فى ثلاثه أقنيم كل مره فى أقنوم فالأقنوم الأول الذى يظهر به أول مره هو برهما،و الثانى وشنو،و الثالث سيوا.

فلما انبثق برهما لبث مده طويله جالسا على صدره تسمى بالهنديه«كمالا» و بالسنسكريتيه بدماء،و كان ينظر من كل جهه،و كان له أربعه رءوس بثمانى أعين فلم ير إلا فضاء واسعا مظلما مملوء ماء فارتاع لذلك و لم يقدر أن يدرك سر أصله فلبث ساكتا أبكم غارقا فى التأملات.

فمضت على ذلك أجيال و إذا بصوت قد طرق أذنيه بغمته و نبهه من سباته و أشار عليه أن يفزع إلى«باغادان»و هو لقب برهم فظهر برهم بصوره رجل له ألف رأس فسجد له برهما و جعل يسبحه فانشرح صدر باغادان و أبدع النور و كشف الظلمات،و أظهر لعبده حاله كينونته و الكائنات بصور جرائيم متخدره و أعطاه القوه لإخراجها من هذا الخمول.

فبقى برهما يتأمل فى ذلك مائه سنه إلهيه و هى عباره عن سته و ثلاثين ألف سنه شمسيه ثم ابتدأ بالعمل فأبدع أولا سبع السماوات المسماه عندهم«سورغه»

ص : ٢٨٠

و أنارها بالأجرام المسماه «ديقانه» ثم أبدع «مريثلوكا» أى مقر الموت ثم الأرض و قمرها، ثم المساكن السبعه السفلى المسماه بتاله، و أنارها بثمانيه جواهر موضوعه على رءوس ثمانى حيات.

فالسماوات السبع و المساكن السفلى السبعه هى العوالم الأربعة عشر فى الميثولوجيا الهنديه.

ثم خلق الأزواج السبعه لكى تعينه فى أعماله فامتنع من مساعدته عشره منها و هى «مونى» و الريشه التسعه التى منها «نارييدا أو نوردام» و اقتصرت على التأملات الدنيويه فتزوج حينئذ أخته «ساراسواتى» و أولدها مائه ولد، و كان البكر اسمه «دكشا» فولد لدكشا خمسون بنتا فتزوجت ثلاث عشره منهن «كاسيابا» الذى يسمونه أحيانا برهمان الأول، و هو الذى ولد لبرهما ولدا يسمى مارتشى».

و ولدت إحدى البنات المذكورات و اسمها «أديتى» الأرواح المنيره المسماه «ديقانه» و هى التى تفعل الخير و تسكن السماوات، و أما أختها «ديتى» فولدت جمهورا غفيرا من الأرواح الشريره المسماه «داتينه» أو «أسوره» و هى سكان الظلام و فاعله كل شر فى العالم.

و كانت الأرض إلى ذلك الوقت خاليه من السكان فقال بعضهم: إن برهما أخرج من نفسه «مانوسويامبوقا» الذى يقول الآخرون: إنه سابق له و إنه نفس برهم المعبود الواحد ثم إن برهما زوجه «ساتاروبا» و قال لهما أن يكثرأ و ينميا.

و قال آخرون: إن برهما ولد أربعة أولاد و هم برهمان و كشتريا و قايسيا و سودارا فالأول خرج من فمه، و الثانى من ذراعه اليمنى، و الثالث من فخذة اليمنى و الرابع من رجله اليمنى فكانوا أربع أرومات لأربع فرق أصلية.

و تزوج الثلاثة الأخيرون بثلاث نساء منه أيضا خرجت واحده من ذراعه اليمنى و الثانيه من فخذة اليسرى، و الثالثه من رجله اليسرى، و سمين باسم بعولتهن بزياده علامه التأنيث و هى «نى»، و تزوج برهمان أيضا زوجه من أبيه، و لكن كانت من نسل الأسوره الشريره، فهذا ما فى الفيداس عن كيفية خلق العالم.

ثم إن برهما بعد أن كان الإله الخالق القدير سقط عن رتبه و شنو الأقوم

الثانى و سىوا الأقوم الثالث و ذلك أنه انتفخ بالكبرياء و العجب، و ظن نفسه نظير العلى فسقط فى ناراك أى الجحيم، و لم ينل العفو إلا بشرط أن يتجسد مره فى كل من الأجيال الأربعة، فتجسد أول مره بصوره غراب شاعر اسمه «كاكابوسندا» و فى الثانيه بصوره «بارباقلميكى» فكان أولا- لصا ثم رجلا عبوسا رزينا نادما ثم ترجمانا مشهورا للفيداس و مؤلفا للراميانا، و فى المره الثالثه بصوره «قياسا» و هو شاعر و مؤلف «المهابارانا» و البغاقه و عدّه بورانات، و فى المره الرابعه و هو العصر الحالى المسمى «كالى يوغ» بصوره «كاليداسا» الشاعر التشخيصى العظيم و مؤلف «ساكتالا» و منقح مؤلفات «قلميكى».

ثم إن برهما ظهر فى ثلاث أحوال ففى، الحال الأولى كان الواحد الصمد و الكل الأعظم العلى، و فى الحال الثانيه ظهر منبثقا من الأول أى شارعا فى العمل و فى الحال الثالثه ظهر متجسدا بصوره إنسان و حكيم.

و ليس لبرهما عباده عامه فى الهند، و له هناك هيكل واحد فقط غير أن البراهمه يجعلونه موضوع عبادتهم، و يدعونه مساء و صباحا، و هم يرمون الماء ثلاث مرات براحه أيديهم على الأرض و نحو الشمس، و يجددون له عبادتهم وقت الظهر بتقديمهم له زهره، و فى تقديس النار يقدمون له سمنا مصفى كما يقدمون لإله النار، و هذا التقديس أهم و أقدس من كل ما سواه. و اسمه هوم أو هوما و رغيب.

و يمثل برهما بصوره رجل ذى لحيه طويله ياحدى يديه سلسله الكائنات و بالأخرى الإناء الذى فيه ماء الحياه السماوى راكبا الهمسا و هو الطير الإلهى الذى يشبه اللقلق و النسر.

و أما برهمان فهو ابن برهما البكر أخرجه من فيه كما تقدم، و جعل نصيبه أربعه الكتب المقدسه المسماه «فيداس» كناية عن الكلمات الأربع التى نطق بها بأفواهه الأربعة.

فلما أراد برهمان أن يتزوج نظير إخوته قال له برهما: إنك ولدت للدرس و الصلاه فيجب أن تبعد عن العلاقات الجسديه فلم يقتنع برهمان بقول أبيه فغضب برهما و زوجه بواحد من جنيات الشر المسماه أسوره، و من هذا ولد البراهمه و هم

الكهنة المقدسون الذين خصوا بتفسير الفيداس، وكانوا يتولون أمر كل التقدّمات التي يقدمها الهنود للأكله.

و ولد كشتريا صنف الحربيين من البراهمه، و قايسيا صنف أهل الزراعه منهم، و سودرا صنف العبيد، فالبراهمه أربعه أصناف، انتهى ملخصا من دائره المعارف للبستاني.

و ذكر غيره أن البرهميه منقسمه إلى طبقات أربع هم البراهمه (علماء المذهب) و الحربيون و الزراع و التجار، و لا يعبأ بغيرهم كالنساء و العبيد، و قد نقلنا في ذيل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ:» X الآية X، المائده: -١٠٥ في الجزء السادس من الكتاب في بحث علمي عن كتاب ما للهند من مقوله لأبي ريحان البيروني شيئا من وظائف البراهمه و عباداتهم، و كذا عن الملل و النحل للشهرستاني شطرا من شرائع الصابئين.

و المذاهب الوثنيه الهنديه و كان الصابئين مثلهم أيضا مطبقون على القول بالتناسخ و هو أن العوالم غير متناهيه من ناحيتي الأزل و الأبد و لكل منها حظا من البقاء مؤجلا فإذا انقضى أمد بقائه بطلت صورته و تولد منه عالم آخر يعيش فيموت فيحدث ثالث و هكذا، و النفوس الإنسانيه المتعلقه بالأبدان لا تموت بموت أبدانها بل موت أبدانها مبدأ حياه جديده لها فإنها تتعلق بأبدان آخر تعيش فيها عيشه سعيده إن كسبت في بدنها السابق فضائل نفسانيه و عملت عملا صالحا، و عيشه شقيه إن تلبست بالذائل و اقترفت السيئات إلا الكاملون في معرفه البرهم (الله سبحانه) فإنهم أحياء بحياه الأبد آمنون من التولد الثاني خارجون عن سلطان التناسخ.

٧- الوثنيه البوذيه:

و قد أصلحت الوثنيه البرهميه (١) بالبوذيه منسوبه إلى بوذا «سقياموني» المتوفى سنه خمس مائه و ثلاث و أربعين قبل المسيح على ما نقل عن التاريخ السيلاني و قيل غير ذلك حتى إن الاختلاف في ذلك ينسحب إلى ألفى سنه، و لذلك ربما ظن أنه شخص

ص: ٢٨٣

خرافي لا- حقيقه له لكن الحفريات الأ-خيره التي وقعت في غايا الحديثه و آثارا أخرى في بطنه دلت على صحه وجوده، و قد انكشفت بها آثار أخرى من تاريخ حياته و تعاليمه التي ألقاها إلى تلامذته و أتباعه.

و كان بوذا من بيت الملك ابن ملك يدعى «سوذودانا» فعزفت نفسه الدنيا و شهواتها و اعتزل الناس في شبابه و لبث في بعض الغابات الموحشه سنين من عمره مكبا على التزهد و الارتياض حتى تنورت نفسه بالمعرفه فخرج إلى الناس و هو ابن ست و ثلاثين سنه على ما قيل فدعاهم إلى التخلص عن الشقاء و الآلام و الفوز بالراحه الكبرى و الحياه السماويه الأبدية السرمديه، و عظيمهم و حثهم على التمسك بذيل شريعته بالتخلق بالأخلاق الكريمة و رفض الشهوات و اجتناب الرذائل.

و كان بوذا-على ما نقل-يقول عن نفسه من دون كبرياء برهميه: «أنا (1)متسول، و لا- توجد إلا شريعته واحده للجميع و هي العقاب الشديد للمجرمين و الثواب العظيم للصالحين، و شريعتي شريعته نعمه للجميع، و فيها كالسمااء مكان للرجال و النساء و الصبيان و البنات و الأغنياء و الفقراء على أنه يعسر على الغنى أن يسلك طريقها».

و كان تعليمه على ما عند البوذيين: أن الطبيعه ذات فراغ و أنها وهميه خداعه و أن العدم يوجد في كل مكان و كل زمان، و هو مملوء من الغش، و نفس هذا العدم يزيل كل الحواجز بين أصناف الناس و جنسياتهم و أحوالهم الدنيويه، و يجعل أحقر الديدان إخوه للبوذيين.

و هم يعتقدون أن آخر عبارته نطق بها سقياموني هي «كل مركب فان» و الغايه القصوى عندهم هي نجاه النفس من كل ألم و غرور، و أن دور التناسخ الذي لا نهايه له ينتهي أو ينقطع بمنع النفس أن تولد ثانيه، و يتوصل إلى ذلك بتطهيرها حتى من رغبه الوجود.

فهذه القواعد الأساسيه للبوذيه موجوده صريحا في أقدم تعليمها المدرج في

ص: ٢٨٤

١- ١) أي تصنيفي التسويلات و الوسوس النفسانيه و في كلامه هذا نسخ لحكم الطبقات في الشريعه البرهميه القاضى بتفاوت الناس في التشرف بالسعاده الدينيه و تحريم بعضهم كالنساء و الصبيان منها.

«الآرياني ستيناس» و هي أربع حقائق ساميه تنسب إلى سقياموني ذكرها في عظته الأولى التي قام بها في غابه تعرف بغابه الغزال بالقرب من بنارس.

و تلك الحقائق الأربع تتعلق بالألم و أصله و ملامشاته و بالطريقه المؤديه إلى الملامشاه فالألم هو الولاده و السن و المرض و الموت و مصادفه المكروه و مفارقه المحبوب و العجز عما يرام، و أسباب الألم الشهوات النفسانيه و الجسديه و الأهواء، و ملامشاه جميع هذه الأسباب هي الحقيقه الثالثه، و لطريقه الملامشاه أيضا ثمانيه أقسام و هي: نظر صحيح و حس صحيح، و نطق صحيح، و فعل صحيح، و مركز صحيح، و جد صحيح و ذكر صحيح، و تأمل صحيح، فهذه صوره الإيمان عندهم و قد وجدت محفوره على أبنيه كثيره و مدونه في عده كتب.

و أما خلاصه الأدب البوذى فهي اجتناب كل شىء ردى، و عمل كل شىء صالح و تهذيب العقل.

فهذا هو الذى سلموه من تعليم بوذا و ما عداه من العبادات و الذبائح و الكهنوت و الفلسفه و الأسرار أمور أضيفت إليه بمرور الأيام و مرور الدهور، و هي تشتمل على أقاويل و آراء عجيبه فى خلق العالم و نظمه و غير ذلك.

و مما يقال إن بوذا لم يتكلم عن الإله قط، غير أن ذلك لم يكن لإعراض منه عن مبدأ الوجود و لا لإنكار بل لأن الرجل كان يبذل كل جهده فى تجهيز الناس بالزهد عن زهره الحياه الدنيا و تغييرهم عن هذه الدار الغاره.

٨- وثنيه العرب.

و هم أول من عارضهم الإسلام بالدعوه إلى التوحيد من عبده الأوثان، كان معظم العرب فى عهد الجاهليه بدويين و أهل الحضاره منهم كاليمن فى طبع البداوه يحكم فيهم من السنن و الآداب رسوم مختلطة مختلفه مأخوذه من جيرانهم الأقوياء كالفرس و الروم و مصر و الحبشه و الهند، و منها السنن الدينيه.

و كان أسلافهم الأقدمون و هم العرب العاربه و منهم عاد إرم و ثمود على دين الوثنيه كما يحكيه الله سبحانه فى كتابه عن قوم هود و صالح و عن أصحاب مدين و عن أهل سبأ فى قصه سليمان و الهدهد، حتى أن جاء إبراهيم (ع) بابنه إسماعيل و أمه هاجر إلى أرض مكه و هي واد غير ذى زرع و بها قبيله جرهم، و أسكنهما

هناك فنشأ إسماعيل (ع) و بنيت بلده مكه، و بنى إبراهيم (ع) الكعبه البيت الحرام و دعا الناس إلى دينه الحنيف و هو الإسلام فاستجيب له فى الحجاز و ما والاها و شرع لهم الحج كما يدل على جملة ذلك قول الله تعالى له فيما يحكيه القرآن :

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»، الحج: ٢٧.

ثم تهود بعض الأعراب لمعاشره كانت بينهم و بين اليهود النازلين بالحجاز، و تسربت النصرانيه إلى بعض أقطار الجزيره، و المجوسيه إلى بعضها الآخر.

ثم وقعت وقائع بين آل إسماعيل و جرهم بمكه حتى آل إلى غلبه آل إسماعيل و إجلاء جرهم منها و استولى عمرو بن لحي على مكه و ما والاها.

ثم إنه مرض مرضا شديدا فقبل له: إن البلقاء من أرض الشام حمه لو استحمت بها برأت فقصدها و استحتم بها فبرأ، و رأى هناك قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلويه و الأشخاص البشريه نستنصر بها فننصر و نستسقى بها فنسقى فأعجبه ذلك فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه هبل فرجع إلى مكه و وضعه على الكعبه، و كان معه إساف و نائله و هما صنمان على شكل زوجين - كما فى الملل و النحل - أو شابين - كما فى غيره - فدعا الناس إلى عباده الأصنام و روج ذلك بين قومه فعادوا يعبدونها بعد إسلامهم و قد كانوا يسمون حنفاء لاتباعهم مله إبراهيم (ع) فبقى عليهم الاسم و هجرهم المعنى و صار الحنفاء اسما للوثنيين (١) منهم.

و كان مما يقربهم إلى الوثنيه أن الكعبه المشرفه كان يعظمها اليهود و النصرارى و المجوس و الوثنيه جميعا فكان لا يظعن من مكه ظاعن إلا حمل معه شيئا من حجاره الحرم تبركا و صبابه، و حيثما حلوا وضعوه و طافوا به تيمنا و حبا للكعبه و الحرم.

و عن هذه الأسباب شاعت الوثنيه بين العرب عاربهم و مستعربهم و لم يبق من أهل التوحيد بينهم إلا آحاد لا يذكرون، و كان من الأصنام المعروفه بينهم هبل و إساف و نائله، و هى التى أتى بها عمرو بن لحي و دعا إليها الناس، و اللات و العزى

ص: ٢٨٦

١- ١) و لعل هذا هو الوجه فى إصرار القرآن على توصيف إبراهيم بالحنيف و الإسلام بالحنيفيه.

و مناه و ود و سواع و يغوث و يعوق و نسر، وقد ذكرت هذه الثمان في القرآن و نسبت الخمس الأواخر منها إلى قوم نوح.
و روى في الكافي، بإسناده إلى عبد الرحمن بن الأشل يباع الأنماط عن الصادق (ع): أن يغوث كان موضوعا قبالة باب الكعبة، و كان يعوق عن يمين الكعبة و نسر عن يسارها.

و في الرواية أيضا: أن هبل كان على سطح الكعبة-و إساف و نائله على الصفا و المروه.

و في تفسير القمي، قال: "كانت ود لكعب، و كانت سواع لهذيل و يغوث لمراد، و كانت يعوق لهمدان، و كانت نسر لحصين.

و كانت في الوثنية التي عندهم آثار من وثنيه الصابئة كالغسل من الجنابه و غيره.

و فيها آثار من البرهمية كالقول بالأنواء و القول بالدهر كما تقدم عن وثنيه بوذه قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾: الجاثية: -٢٤ و إن ذكر بعضهم أنه قول الماديين المنكرين لوجود الصانع.

و فيها شيء من الدين الحنيف و هو إسلام إبراهيم (ع) كالختنه و الحج إلا أنهم خلطوه بسنن و وثنيه كالتمسح بالأصنام التي حول الكعبة و الطواف عريانا، و التلبية بقولهم: ليبيك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه و ما ملك.

و عندهم أمور آخر اختلقوه من عند أنفسهم كالقول بالبحيره و السائبه و الوصيله و الحام و القول بالصدى و الهام و الأنصاب و الأزلام و أمور آخر مذكوره في التواريخ و قد تقدم تفسير البحيره و السائبه و الوصيله و الحام في سورة المائدة في ذيل آيه ١٠٣ و كذا ذكر الأزلام و الأنصاب في ذيل آيه ٣ و آيه ٩٠.

٩- دفاع الإسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه.

لم تزل الدعوه الإلهيه تخاصم الوثنيه و تقاومه و تندب إلى التوحيد كما ذكره الله في كتابه فيما يقصه من دعوه الأنبياء و الرسل كنوح و هود و صالح و إبراهيم و شعيب و موسى (ع)، و أشير إلى ذلك في قصص عيسى و لوط و يونس (ع).

و قد أجمل القول في ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ:» الأنبياء:- ٢٥.

وقد بدأ النبي محمد ص فى دعوته العامه بدعاء الوثنيين من قومه إلى التوحيد بالحكمه و الموعظه و الجدل بالتى هى أحسن فلم يجيبوه إلا بالاستهزاء و الأذى و فتنه من آمن به منهم و تعذيبه أشد العذاب حتى اضطر جمع من المسلمين إلى ترك مكه و الهجره إلى الحبشه، ثم مكروا لقتله(ص) فهاجر إلى المدينه ثم هاجر إليها بعده عدده من المؤمنين.

و لم يلبثوا حتى تعلقوا به بالقتال، و قاتلوه ببدر و أحد و الخندق و فى غزوات أخرى كثيره حتى أظهره الله تعالى عليهم بفتح مكه فظهر(ص) البيت و الحرم من أوثانهم، و كسر الأصنام المنصوبه حول الكعبه المشرفه، و كان هبل منصوبا على سطح الكعبه فأصعد عليا(ع) إليه فرماه إلى الأرض و كان-على ما يقال-أعظم أصنامهم فدفن-على ما ذكره-فى عتبه باب المسجد.

و الإسلام شديد العناية بحسم ماده الوثنيه و تخليه القلوب عن الخواطر الداعيه إليها و صرف النفوس حتى عن الحومان حولها و الإشراف عليها، و ذلك مشهود مما ندب إليه من المعارف الأصلية و الأخلاق الكريمة و الأحكام الشرعيه فتراه يعد الاعتقاد الحق أنه لا إله إلا الله له الأسماء الحسنی يملك كل شىء، له الوجود الأصل الذى يستقل بذاته و هو الغنى عن العالمين، و كل ما هو غيره منه يتبدى و إليه يعود، و إليه يفتقر فى جميع شئون ذاته حدوثا و بقاء فمن أسند إلى شىء شيئا من الاستقلال بالقياس إليه تعالى-لا بالقياس إلى غيره-فى شىء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهو مشرك بحسبه.

و تراه يأمر بالتوكل على الله، و الثقة بالله، و الدخول تحت ولايه الله، و الحب فى الله، و البغض فى الله، و إخلاص العمل لله، و ينهى عن الاعتماد بغير الله، و الركون إلى غيره، و الاطمئنان إلى الأسباب الظاهره و رجاء من دونه، و العجب و الكبر إلى غير ذلك مما يوجب إعطاء الاستقلال لغيره و الشرك به.

و تراه ينهى عن السجده لغيره تعالى، و ينهى عن اتخاذ التماثيل ذوات الأظلال و عن تصوير ذوى الأرواح، و ينهى عن طاعه غير الله و الإصغاء إليه فيما يأمر و ينهى إلا ما رجع إلى طاعه الله كطاعه الأنبياء و أئمه الدين، و ينهى عن البدعه و اتباعها و عن اتباع خطوات الشيطان.

و الأخبار المأثوره عن النبي ص و عن أئمه أهل البيت(ع)متظافره فى أن الشرك ينقسم إلى جلى و خفى،و أن الشرك ذو مراتب كثيره لا يسلم من جميعها إلا المخلصون،و أنه أخفى من ديب النمل على الصفا فى الليله الظلماء،

و قد روى فى الكافى،عن الصادق(ع): فى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ- إِلَّا- مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» الشعراء:-
٨٩،القلب السليم الذى يلقى ربه-ليس فيه أحد سواه، قال:و كل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط-و إنما أرادوا بالزهد فى الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخره.

و ورد أيضا: أن عبادته تعالى طمعا فى الجنه عبادته الأجراء،و عبادته خوفا من النار عبادته العبيد،و حق العباده أن يعبد تعالى حبا له-و تلك عبادته الكرام، و هذا مقام مكنون-لا- يمسه إلا المطهرون و قد تقدمت عده من هذه الروايات فى بعض الأبحاث السابقه من الكتاب.

١٠-بناء سيره النبي على التوحيد و نفى الشركاء:

أجمل تعالى سيرته (ص)التي أمره باتخاذها و السير بها فى المجتمع البشرى فى قوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»
آل عمران:-٦٤،و قال تعالى يشير إلى ما داخل دينهم من عقائد الوثنيه: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»: المائده-٧٧.

و قال أيضا يذم أهل الكتاب: «اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُحَبَاءَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»: التوبه:-٣١.

و كان(ص)قد سوى بين الناس فى إجراء الأحكام و الحدود و قارب بين طبقات المجتمع كالحاكم و المحكوم،و الرئيس و المرءوس،و الخادم و المخدوم،و الغنى و الفقير،و الرجل و المرأه،و الشريف و الوضيع فلا كرامه و لا فخر و لا تحكم لأحد على أحد إلا كرامه التقوى و الحساب إلى الله و الحكم إليه.

و كان (ص) يقسم بالسويه، و ينهى عن تظاهر القوى بقوته بما يتأثر و ينكسر به قلب الضعيف المهين كتظاهر الأغنياء بزيتهم على الفقير المسكين، و الحكام و الرؤساء بشوكتهم على الرعيه.

و كان (ص) يعيش كأحد من الناس لا- يمتاز منهم فى مأكلا أو مشرب أو ملبس أو مجلس أو مشيه أو غير ذلك، و قد تقدم جوامع سيرته فى آخر الجزء السادس من هذا الكتاب.

(كلام آخر ملحق بالكلام السابق) [فى فصول]

اشاره

نزن فيه تعليم القرآن الكريم بقياسه إلى تعاليم ويدا، و أوستا، و التوراه، و الإنجيل على نحو الإجمال و الكليه فى فصول و هذا بحث تحليلي شريف.

١- التناسخ عند الوثنيين:

من الأصول الأوليه التى تبتنى عليها البرهميه و مثلها البوذيه و الصابئيه هو التناسخ و هو أن العالم محكوم بالكون و الفساد دائما فهذا العالم المشهود لنا و كذا ما فيه من الأجزاء مكون عن عالم مثله سابق عليه و هكذا إلى غير النهايه، و سيفسد هذا العالم كما لا يزال يفسد أجزاءه و يتكون منه عالم آخر و هكذا إلى غير النهايه، و الإنسان يعيش فى كل من هذه العوالم على ما اكتسبه فى عالم يسبقه فمن عمل صالحا و اكتسب ملكه حسنه فستتعلق نفسه بعد مفارقه البدن بالموت ببدن سعيد و يعيش على السعاده، و هو ثوابه، و من أخلد إلى الأرض و اتبع هواه فسوف يعيش بعد الموت فى بدن شقى و يقاسى فيه أنواع العذاب إلا من عرف البرهم و اتحد به فإنه ينجو من الولاده الثانيه و يعود ذاتا أزليه أبديه هى عين البهاء و السرور و الحياه و القدره و العلم لا سبيل للفناء و البطلان إليها.

و لذلك كان من الواجب الدينى على الإنسان أن يؤمن بالبرهم (و هو الله أصل كل شىء) و يتقرب إليه بالقرايين و العبادات، و يتحلى بالأخلاق الكريمه و الأعمال الصالحه فإن عزفت نفسه الدنيا و تخلق بكرائم الأخلاق و تحلى بصوالح الأعمال و عرف البرهم بمعرفه نفسه صار برهمنا و اتحد بالبرهم و صار هو هو، و هو السعاده

الكبرى و الحياه البحتة،و إلا فليؤمن بالبرهم و ليعمل صالحا حتى يسعد فى حياته التاليه و هى آخرته.

لكن البرهم لما كان ذاتا مطلقه محيطا بكل شىء غير محاط لشىء كان أعلى و أجل من أن يعرفه الإنسان إلا بنوع من نفى النقائص أو يناله بعباده أو قربان فمن الواجب علينا أن نتقرب بالعباده إلى أوليائه و أقوياء خلقه حتى يكونوا شفعا لنا عنده،و هؤلاء هم الآلهه الذين يعبدون من دون الله بعباده أصنامهم،و هم على كثرتهم إما من الملائكه أو من الجن أو من أرواح المكملين من البراهمه،و إنما يعبد الجن خوفا من شرهم،و غيرهم طمعا فى رحمتهم و خوفا من سخطهم و منهم الأزواج و البنون و البنات لله تعالى.

فهذه جمل ما تتضمنه البرهميه و يعلمه علماء المذهب من البراهمه.

لكن الذى يتحصل من أوبانيشاد» (١)و هو القسم الرابع من كتاب «ويدا» المقدس ربما لم يوافق ما تقدم من كليات عقائدهم و إن أوله علماء المذهب من البراهمه.

فإن الباحث الناقد يجد أن رسائل «أوبانيشاد»المعلمه للمعارف الإلهيه و إن كانت تصف العالم الألوهى و الشئون المتعلقة به من الأسماء و الصفات و الأفعال من إبداء و إعاده و خلق و رزق و إحياء و أماته و غير ذلك بما يوصف به الأمور الجسمانيه الماديه كالانقسام و التبعض و السكون و الحركه و الانتقال و الحلول و الاتحاد و العظم و الصغر و سائر الأحوال الجسمانيه الماديه إلا أنها تصرح فى مواضع منها أن برهم (٢) ذات مطلقه متعاليه من أن يحيط به حد له الأسماء الحسنى و الصفات العليا من حياه و علم و قدره،منزه عن نعوت النقص و أعراض الماده و الجسم ليس كمثل شىء.

و تصرح (٣)بأنه تعالى إحدى الذات لم يولد من شىء و لم يلد شيئا و ليس له

ص: ٢٩١

١- ١) أوبانيشاد لكتب «ويدا»المقدس و هى رسائل متفرقه مأثوره من كبار رجال الدين من عرفائهم القدماء الأقدمين تحتوى جمل ما حصلوه من المعارف الإلهيه بالكشف و يعتبرها البراهمه و حيا سماويا.

٢- ٢) هذا كثر الورود يعثر عليه الراجع فى أغلب فصول أوبانيشاد.

٣- ٣) «لم يولد منه شىء و لم يتولد من شىء و ليس كفؤا أحد»أوبانيشاد(شيت استر)ادها السادس آيه ٨(السر الأكبر).

كفو و مثل البته.

و تصرح (١) بأن الحق أن لا يعبد غيره تعالى و لا يتقرب إلى غيره بقربان بل الحرى بالعباده هو وحده لا شريك له.

و تصرح (٢) كثيرا بالقيامه و أنه الأجل الذى ينتهى إليه الخلقه، و تصف ثواب الأعمال و عقابها بعد الموت بما لا يأبى الانطباق على البرزخ من دون أن يتعين حمله على التناسخ.

و لا خبر فى هذه الأبحاث الإلهيه المورده فيها عن الأوثان و الأصنام و توجيه العبادات و تقديم القرابين إليها.

و هذه التى نقلناها من «أوبانيشاد» - و ما تركناه أكثر - حقائق ساميه و معارف حقه تطمئن إليها الفطره الإنسانيه السليمه، و هى - كما ترى - تنفى جميع أصول الوثنيه المورده فى أول البحث.

و الذى يهدى إليه عميق النظر أنها كانت حقائق عاليه كشفها آحاد من أهل ولايه الله ثم أخبروا بما وجدوا بعض تلامذتهم الآخذين منهم غير أنهم تكلموا غالبا بالرمز و استعملوا فى تعاليمهم الأمثال.

ثم جعل ما أخذ من هؤلاء أساسا تبتنى عليه سنه الحياه التى هى الدين المجتمع عليه عامه الناس، و هى معارف دقيقه لا يحتملها إلا الآحاد من أهل المعرفه لارتفاع سطحها عن الحس و الخيال اللذين هما حظ العامه من الإدراك و كمال صعوبه إدراكها على العقول الراجله غير المتدربه فى المعارف الحقه.

و اختصاص نيلها بالأقلين من الناس و حرمان الأ-كثرين من ذلك و هى دين إنسانى أول المحذور فإن الفطره أنشأت العالم الإنسانى مغروزه على الاجتماع المدنى، و انفصال بعضهم عن بعض فى سنه الحياه و هى الدين إلغاء لسنه الفطره و طريقه الخلقه.

على أن فى ذلك تركا لطريق العقل و هو أحد الطرق الثلاث الوحى و الكشف

ص: ٢٩٢

١ - ١) قال شبت استر: «اعمل الصالحات لتلك الذات النورانيه إلى أى ملك أقدم القربان و أترك تلك الذات الظاهره؟» أوبانيشاد شيت استر. ادهيا الرابع آيه ١٣.

٢ - ٢) و هذا كثير الورود فى فصول أوبانيشاد يعثر عليه المراجع.

و العقل، و أعمها و أهمها بالنظر إلى حياه الإنسان الدنيويه فالوحي لا يناله إلا أهل العصمه من الأنبياء المكرمين، و الكشف لا يكرم به إلا- الآحاد من أهل الإخلاص و اليقين، و الناس حتى أهل الوحي و الكشف في حاجه مبرمه إلى تعاطي الحجه العقليه في جميع شئون الحياه الدنيويه و لا- غنى لها عن ذلك، و في إهمال هذا الطريق تسليط التقليد الإجبارى على جميع شئون المجتمع الحيويه من اعتقادات و أخلاق و أعمال، و في ذلك سقوط الإنسانيه.

على أن في ذلك إنفاذا لسنه الاستعباد فى المجتمع الإنسانى و يشهد بذلك التجارب التاريخى المديد فى الأمم البشرىة التى عاشت فى دين الوثنيه أو جرت فيهم سنن الاستعباد باتخاذ أرباب من دون الله.

٢- سريان هذه المحاذير إلى سائر الأديان:

الأديان العامه الآخر على ما فيها من القول بتوحيد الألوهيه لم تسلم من شرك العباده فساقهم ذلك إلى الابتلاء بعين ما ابتليت به الوثنيه البرهميه من المحاذير التى أهمها الثلاثه المتقدمه.

أما البوذيه و الصابئه فذلك فيهم ظاهر و التاريخ يشهد بذلك، و قد تقدم شىء مما يتعلق بعقائدهم و أعمالهم.

و أما المجوس فهم يوحدون «أهورا مزدا» بالألوهيه لكنهم يخضعون بالتقديس ليزدان و أهريمن و الملائكه الموكلين بشئون الربوبيه و للشمس و النار و غير ذلك، و التاريخ يقص ما كانت تجرى فيهم من سنه الاستعباد و اختلاف الطبقات و التدبر و الاعتبار يقضى أنه إنما تسرب ذلك كله إليهم من ناحيه تحريف الدين الأصيل، و قد ورد عن النبى ص فيهم: «أنه كان لهم نبى فقتلوه و كتاب فأحرقوه».

و أما اليهود فالقرآن يقص كثيرا من أعمالهم و تحريفهم كتاب الله و اتخاذهم العلماء أربابا من دون الله، و ما ابتلاههم الله به من انتكاس الفطره و ردائه السليقه.

و أما النصرى فقد فصلنا القول فيما انحرفوا فيه من النظر و العمل فى الجزء الثالث من الكتاب فراجع و إن شئت فطبق مفتاح إنجيل يوحنا و رسائل بولس على سائر الأناجيل و تممه بمراجعته تاريخ الكنيسه فالكلام فى ذلك طويل.

فالبحت العميق في ذلك كله ينتج أن المصائب العامه في المجتمعات الدينيه في العالم الإنساني من مواريث الوثنيه الأولى التي أخذت المعارف الإلهيه و الحقائق العاليه الحقه مكشوفه القناع مهتوكه الستر فجعلتها أساس السنن الدينيه، و حملتها على الأفهام العامه التي لا تأنس إلا بالحس و المحسوس فأنتج ذلك ما أنتج.

٣- إصلاح الإسلام لهذه المفاسد:

أما الإسلام فإنه أصلح هذه المفاسد إذ قلب هذه المعارف العاليه في قالب البيان الساذج الذي يصلح لهضم الأفهام الساذجه و العقول العاديه فصارت تلامسها من وراء حجاب و تتناولها ملفوفه محفوفه، و هذا هو الذي يصلح به حال العامه و أما الخاصه فإنهم ينالونها مسفره مكشوفه في جمالها الرائع و حسنها البديع آمنين مطمئنين و هم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا، قال الله تعالى: ﴿وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ الزخرف:- ٤، و قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة:- ٧٩،

و قال النبي ص:

«إنا معاشر الأنبياء-أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

و عالج غائله الشرك و الوثنيه في مرحله التوحيد بنفى الاستقلال في الذات و الصفات عن كل شيء إلا الله سبحانه فهو تعالى القيوم على كل شيء، و ركز الأفهام في معرفه الألوهيه بين التشبيه و التنزيه فوصفه تعالى بأن له حياه لكن لا كحياتنا، و علما لا كعلمنا، و قدره لا كقدرتنا و سمعا لا كسمعنا، و بصرا لا كبصرنا، و بالجمله ليس كمثل شيء و أنه أكبر من أن يوصف، و أمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولا إلا عن علم، و لا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجه عقليه يهضمها عقولهم و أفهامهم.

فوفق بذلك أولا- لعرض الدين على العامه و الخاصه شرعا سواء، و ثانيا أن يعمل العقل السليم من غير أن يترك هذه الموهبه الإلهيه سدى لا- ينتفع بها، و ثالثا أن قرب بين الطبقات المختلفه في المجتمع الإنساني غايه ما يمكن فيها من التقريب من غير أن ينعم على هذا و يحرم ذاك أو يقدم واحدا و يؤخر آخر قال تعالى: ﴿إِنَّ

لِهَذِهِ أُمَّتِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ:» الأنبياء: -٩٢ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ:» الحجرات: -١٣.

و هذا إجمال من القول يمكنك أن تعثر على تفصيل القول في أطرافه في أبحاث متفرقة تقدمت في هذا الكتاب و الله المستعان.

[٤- إشكال الاستشفاع و التبرك في الإسلام]

٤- ربما يظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبى و آله المعصومين (ص) و مسألته تعالى بحقهم و زياره قبورهم و تقييلها و التبرك بتربتهم و تعظيم آثارهم من الشرك المنهى عنه و هو الشرك الوثنى محتجا بأن هذا النوع من التوجه العبادى فيه إعطاء تأثير ربوبى لغيره تعالى و هو شرك و أصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم فى أوثانهم: إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله. و قولهم: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، و لا فرق فى عباده غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيا أو وليا أو جبارا من الجبابره أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهى عنه.

و قد فاتهم أولا أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا أو غير مادى فى غيره تعالى ضرورى لا سبيل إلى إنكاره، و قد أسند تعالى فى كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره و نفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم إبطال قانون العليه و المعلوليه العام الذى هو الركن فى جميع أدله التوحيد، و فيه هدم بيان التوحيد. نعم المنفى من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال فى التأثير و لا كلام لأحد فيه، و أما نفى مطلق التأثير فيه إنكار بديهه العقل و الخروج عن الفطره الإنسانيه.

و من يستشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله فى مثل قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ:» الزخرف: -٨٦ و قوله :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى:» الأنبياء: -٢٨.

أو يسأل الله بجاههم و يقسمه بحقهم الذى جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ:» الصافات: -١٧٣ و قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا:» المؤمن: -٥١.

أو يعظمهم و يظهر حبهم بزياره قبورهم و تقييلها و التبرك بتربتهم بما أنهم آيات

الله و شعائره تمسكا بمثل قوله تعالى: «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»: الحج: -٣٢، و آيه القربى و غير ذلك من كتاب و سنه.

فهو فى جميع ذلك يتنغى بهم الى الله الوسيه و قد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»: المائده: -٣٥ فشرع به ابتغاء الوسيه، و جعلهم بما شرع من حبههم و تعزيرهم و تعظيمهم وسائل إليه، و لا معنى لإيجاب حب شىء و تعظيمه و تحريم آثار ذلك فلا- مانع من التقرب إلى الله بحبههم و تعظيم أمرهم و ما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل و الاستشفاع من غير أن يعطوا استقلال التأثير و العباده البته.

و ثانيا: أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله، و بين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع و التقرب بهم إليه فى الصوره الأولى إعطاء الاستقلال و إخلاص العباده لغيره تعالى و هو الشرك فى العبوديه و العباده، و فى الصوره الثانيه يتمحض الاستقلال لله تعالى و يختص العباده به وحده لا شريك له.

و إنما ذم تعالى المشركين لقولهم: «إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِئَقْرَبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» حيث أعطوهم الاستقلال و قصدوهم بالعباده دون الله سبحانه، و لو قالوا: إنما نعبد الله وحده و نرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله و أولياؤه بإذنه أو نتوسل إلى الله بتعظيم شعائره و حب أولياؤه، لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبه فى الإسلام هى وجهه و ليست بمعبوده، و إنما يعبد بالتوجه إليها الله.

و ليت شعرى ما ذا يقول هؤلاء فى الحجر الأسود و ما شرع فى الإسلام من استلامه و تقييله؟ و كذا فى الكعبه؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة؟ فالحكم حكم ضرورى عقلى لا يقبل تخصصا و لا استثناء، أو أن ذلك من عباده الله محضا و للحجر حكم الطريق و الجهه، و حينئذ فما الفرق بينه و بين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال و تمحيض العباده، و مطلقا تعظيم شعائر الله و تعزير النبى ص و حبه و مودته و حب أهل بيته و مودتهم و غير ذلك فى محلها.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (۵۰) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (۵۱) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَائِبَةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ يَا هُودُ لَعَلَّ الْبَشَرَ يَتَّقُونَ (۵۹) وَأَنْتَبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

تذكر الآيات قصه هود النبي و قومه و هم عاد الأولى، و هو (ع) أول نبي يذكره الله تعالى في كتابه بعد نوح (ع)، و يشكر مسعاه في إقامه الدعوه الحقه و الانتهاض على الوثنيه، و يعقب ذكر قوم نوح بذكر قوم هود، قال تعالى في عده مواضع من كلامه: «قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ».

قوله تعالى: «وَ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» كان أخاهم في النسب لكونه منهم و أفراد القبيله يسمون إخوه لانتسابهم جميعا إلى أب القبيله، و الجملة معطوفه على قوله تعالى سابقا: «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» و التقدير: «و لقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا» و لعل حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل: «وَ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ» إلخ، و لم يقل: و هودا إلى عاد مثلا كما قال: «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» لأن دلالة الظرف أعني: «إِلَىٰ عَادٍ» على تقدير الإرسال أظهر و أوضح.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» الكلام وارد مورد الجواب كان السامع لما سمع قوله: «وَ إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» قال: فما ذا قال لهم؟ فقيل: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» إلخ، و لذا جيء بالفصل من غير عطف.

و قوله: «أُعْبُدُوا اللَّهَ» في مقام الحصر أى اعبدوه و لا تعبدوا غيره من آلهه اتخذتموها أربابا من دون الله تعبدونها لتكون لكم شفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى. و الدليل على الحصر المذكور قوله بعد: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهه يعبدونها افتراء على الله بالشركه و الشفاعه.

قوله تعالى: «يَا قَوْمِ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» إلى آخر الآيه، قال في المجمع، الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر، و منه فطر الله الخلق لأنه بمنزله ما شق منه فظهر. انتهى، و قال الراغب: أصل الفطر الشق طولا يقال:

فطر فلان كذا فطرا و أفطر هو فطورا و انفطر انفطارا- إلى أن قال- و فطر الله

الخلق و هو إيجاد الشيء و إبداعه على هيئته مترشحه لفعل من الأفعال فقوله: فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيَّهَا إشاره منه تعالى إلى ما فطر أى أبداع و ركز في الناس من معرفته، و فطره الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفه الإيمان و هو المشار إليه بقوله: وَ لئن سألْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. انتهى.

و الظاهر أن الفطر هو الإيجاد عن عدم بحث، و الخصوصيه المفهومه من مثل قوله: «فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيَّهَا» إنما نشأت من بناء النوع الذى تشتمل عليه فطره و هي فعله، و على هذا فتفسير بعضهم الفطره بالخلقه بعيد من الصواب، و إنما الخلق هو إيجاد الصورة عن ماده على طريق جمع الأجزاء، قال تعالى: «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ:» المائدة: -١١٠.

و الكلام مسوق لرفع التهمه و العبث و المعنى يا قوم لا- أسألکم على ما أدعوکم أجرا و جزاء حتى تتهمونى أنى أستدر به نفعا يعود إلى و إن أضر بکم، و لست أدعوکم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذى أوجدنى و أبداعنى أ فلا- تعقلون عنى ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنى ناصح لكم فى دعوتى، ما أريد إلا أن أحملکم على الحق.

قوله تعالى: «وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً» إلى آخر الآيه تقدم الكلام فى معنى قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فى صدر السوره.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً» فى موقع الجزاء لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» إلخ، أى إن تستغفروه و تتوبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً، و المراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا و أظل فهو سماء، و قيل المطر و هو شائع فى الاستعمال، و المدرار مبالغه من الدر، و أصل الدر اللبن ثم أستعير للمطر و لكل فائده و نفع فأرسال السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعه نافعه تحيى بها الأرض و ينبت الزرع و العشب، و تنضر بها الجنات و البساتين.

و قوله: «وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ» قيل المراد بها زياده قوه الإيمان على قوه الأبدان و قد كان القوم أولى قوه و شده فى أبدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت

قوه الإيمان على قوه أبدانهم وقيل المراد بها قوه الأبدان كما قال نوح لقومه :

«اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ:» نوح:- ١٢ و لعل التعميم أولى.

وقوله: «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» بمنزله التفسير لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ» أى إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهه دون الله إجرام منكم و معصيه توجب نزول السخط الإلهى عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم و ارجعوا إليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطله ممطره و زياده قوه إلى قوتكم.

و فى الآيه «أولا» إشعار أو دلالة على أنهم كانوا مبتلين بإمساك السماء و الجذب و السنه كما ربما أو ما إليه قوله: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ» و كذا قولهم على ما حكاه الله تعالى فى موضع آخر: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمِطِرٌ نَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» الأحقاف:- ٢٤.

و ثانيا: أن هناك ارتباطا تاما بين الأعمال الإنسانيه و بين الحوادث الكونيه التى تمسه فالأعمال الصالحه توجب فيضان الخيرات و نزول البركات، و الأعمال الطالحه تستدعى تتابع البلايا و المحن، و تجلب النقمه و الشقوه و الهلكه كما يشير إليه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» X الآيه X الأعراف:- ٩٦، و قد تقدم تفصيل الكلام فيه فى بيان الآيات ٩٤-١٠٢ من سوره الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب، و فى أحكام الأعمال فى الجزء الثانى منه.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» سألهم هود فى قوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» إلى آخر الآيات الثلاث أمرين هما أن يتركوا آلهتهم و يعودوا إلى عباده الله وحده و أن يؤمنوا به و يطيعوه فيما ينصح لهم فردوا عليه القول بما فى هذه الآيه إجمالا و تفصيلا:

أما إجمالا فبقولهم: «مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» يعنون أن دعوتك خاليه عن الحججه و الآيه المعجزه و لا موجب للإصغاء إلى ما هذا شأنه.

و أما تفصيلا فقد أجابوا عن دعوته إياهم إلى رفض الشركاء بقولهم: «وَمَا

«و عن دعوته إياهم إلى الإيمان و الطاعة بقولهم: «وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» فَأَيَسُوهُ فِي كِلْتَا الْمَسْأَلَتَيْنِ.

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي لبياس من إجابتهم بالمره فقالوا: «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» و الاعتراء الاعتراض و الإصابه يقولون: إنما نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل و الجنون لشتمك إياها و ذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبا بما تفوهت به في صوره الدعوه.

قوله تعالى: «قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» أجاب هود(ع) عن قولهم بإظهار البراءه من شركائهم من دون الله ثم التحدى عليهم بأن يكيدوا به جميعا و لا ينظروه.

فقوله: «أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ» إنشاء و ليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبري، و لا ينافي ذلك كونه بريئا من أول أمره فإن التبرز بالبراءه لا ينافي تحققها من قبل، و قوله: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» أمر و نهى تعجيزيان.

و إنما أجاب(ع) بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه(ع) بسوء مع تبرزه بالبراءه، و لو كانت آلهه ذات علم و قدره لقهرته و انتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء و هذه حجه بينه على أنها ليست بآلهه و على أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه، ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل أو تنكيل مع كونهم ذوى شده و قوه لا يعادلهم غيرهم فى الشده و البطش، و لو لا أنه نبى من عند الله صادق فى ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب أو دفع.

و من هنا يظهر وجه إشهداه(ع) فى تبريه ربه سبحانه و قومه أما إشهداه الله فليكون تبريه على حقيقته و عن ظهر القلب من غير تزويق و نفاق، و أما إشهداه إياهم فليعلموا به ثم يشاهدوا ما يجرى عليه الأمر من سكوت آلهتهم و عجز أنفسهم من الانتقام منه و من تنكيله.

و ظهر أيضا صحه ما احتمله بعضهم أن هذا التعجيز هو معجزه هود(ع) و ذلك أن ظاهر الجواب أن يقطع به ما ذكر من الرد فى صوره الحججه، و فيها

قولهم: «مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ» و من المستبعد جدا أن يهمل النبي هو(د(ع) في دعوته و حجته التعرض للجواب عنه مع كون هذا التحدى و التعجيز صالحا فى نفسه لأن يتخذ آيه معجزه كما أن التبرى من الشركاء من دون الله صالح لأن يكشف عن عدم كونهم آلهه من دون الله و عن أن بعض آلهتهم لم يعتره بسوء.

فالحق أن قوله: «إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا» إلى آخر الآيتين مشتمل على حجه عقليه على بطلان ألوهيه الشركاء، و على آيه معجزه لصحه رساله هو(د(ع).

و فى قوله: «جَمِيعاً» إشاره إلى أن مراده تعجيزهم و تعجيز آلهتهم جميعا فيكون أتم دلالة على كونه على الحق و كونهم على الباطل.

قوله تعالى: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» إلى آخر الآيه. لما كان الأمر الذى فى صورته التعجيز صالحا لأن يكون بداعى إظهار عجز الخصم و عدم قدرته، و صالحا لأن يصدر بداعى أن الأمر لا يخاف الخصم و إن كان الخصم قادرا على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويله و إكراهه على الطاعه و حمله على ما يريد منه كقول السحره لفرعون: «فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا»: طه-٧٢.

و كان قوله: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ» محتملا لأن يكون المراد به إظهار أنه لا يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» فذكر أنه متوكل فى أمره على الله الذى هو يدبر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فذكر أنه ناجح فى توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنه واحده هى نصره الحق و إظهاره على الباطل إذا تقابلا و تغالبا.

فتبريه من أصنامهم و تعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ» ثم لبثه بينهم فى عافيه و سلامه لا يمسونه بسوء و لا يستطيعون أن ينالوه بشر آيه معجزه و حجه سماويه على أنه رسول الله إليهم.

و قوله: «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» الدابه كل ما يدب فى الأرض من أصناف الحيوان، و الأخذ بالناصيه كناية عن كمال

السلطه و نهايه القدره، و كونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته فى الخليفه واحده ثابتة غير متغيره و هو تدبير الأمور على منهاج العدل و الحكمه فهو يحق الحق و يبطل الباطل إذا تعارضا.

فالمعنى أنى توكلت على الله ربي و ربكم فى نجاه حجتى التى ألقيتها إليكم و هو التبرز بالبراءه من آلهتكم و أنكم و آلهتكم لا تضروننى شيئاً فإنه المالك ذو السلطنه على و عليكم و على كل دابه، و سنته العادله ثابتة غير متغيره فسوف ينصر دينه و يحفظنى من شركم.

و لم يقل: «إن ربي و ربكم على صراط مستقيم» على وزان قوله: «عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» فإنه فى مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم، و هو يأخذه تعالى ربا بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده ربا لنفسه و يستمسك برابطه العبوديه التى بينه و بين ربه حتى ينجح طلبته، و هذا بخلاف مقام قوله:

« تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ » فإنه يريد هناك بيان عموم السلطه و الإحاطه.

قوله تعالى: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَسَدَّ أَبْغَتْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» و هذه الجملة من كلامه (ع) ناظر إلى قولهم فى آخر جدالهم: «إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به و دائمون على الجحد، و المعنى إن تتولوا و تعرضوا عن الإيمان بى و الإطاعه لأمرى فقد أبلغتكم رساله ربي و تمت عليكم الحججه و لزمتمكم البليه.

قوله تعالى: «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» هذا وعيد و إخبار بالتبعه التى يستتبعها إجرامهم، فإنه كان وعدهم إن يستغفروا الله و يتوبوا إليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا و يزيد قوه إلى قوتهم، و نهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

و قوله: «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أى يجعل قوما غيركم خلفاء فى الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفه منه فى الأرض كما قال تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» البقره: -٣٠، و قد كان (ع) بين لهم أنهم خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه: «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ

نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً:» X الآيه X، الأعراف: -٦٩.

و ظاهر السياق أن الجملة الخبرية معطوفه على أخرى مقدره، و التقدير:

و سيذهب بكم ربى و يستخلف قوما غيركم على حد قوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ:» الأنعام: -١٣٣.

و قوله: «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» ظاهر السياق أنه تتمه لما قبله أى لا- تقدرون على إضراره بشيء من الفوت و غيره إن أراد أن يهلككم و لا- أن تعذيبكم و إهلاككم يفوت منه شيئاً مما يريد أن يريده فإن ربى على كل شيء حفيظ لا يعزب عن علمه عازب و لا يفوت من قدرته فائت، و للمفسرين فى الآيه وجوه أخر بعيده عن الصواب أعرضنا عنها.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» المراد بمجىء الأمر نزول العذاب و بوجه أدق صدور الأمر الإلهي الذى يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالى: «وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ:» المؤمن: -٧٨.

و قوله: «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» الظاهر أن المراد بها الرحمه الخاصه بالمؤمنين المستوجه نصرهم فى دينهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهي و عذاب الاستئصال، قال تعالى :

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ:» المؤمن: -٥١.

و قوله: «وَ نَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» ظاهر السياق أنه العذاب الذى شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبه إلى ما قبله، و قيل: المراد به عذاب الآخرة و ليس بشيء.

قوله تعالى: «وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» الآيه و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصه عاد فأول التلخيصين قوله: «وَ تِلْكَ عَادٌ» -إلى قوله- وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة و المواعظه و الآيه المعجزه التى أبانت لهم طريق الرشد و ميزت لهم الحق من الباطل فجددوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون إلى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل الله و هو ظاهر قوله في موضع آخر: «كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ» الشعراء:- ١٢٤. و يشعر به أيضا قوله :

«وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» الأحقاف:- ٢١، و من الممكن أن يكون لهم رسل آخرون بعثوا إليهم فيما بين هود و نوح(ع) لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و اتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو إليه، و الجبار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق، فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعة الجبابره.

ثم ذكر الله و بال أمرهم بقوله: « وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى و أتبعهم الله فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من الرحمه، و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقبهم فلحق بهم، أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنوا سنه الإشراك و الكفر لمن بعدهم، قال تعالى: «وَ نَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ» يس:- ١٢.

و قيل: المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، و من أدرك آثارهم، و كل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآية: « وَ أَتَّبِعُوا » بقوله: « وَ أَتَّبِعُوا » لطف ظاهر.

قوله تعالى: « أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » أى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا إليه لخص به

التلخيص الأول فقوله: «أَلَا إِنَّ عَادًا» إلخ، يحاذى به وصف حالهم المذكور في قوله: «وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا» إلخ، وقوله: «أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ» إلخ، يحاذى به قوله: «وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ» إلخ.

و يتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنة السابقة اللعنة الإلهية دون لعن الناس، و الأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثة السابقة و خاصة الوجه الثاني دون الوجه الثالث.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى، عن أبى عمرو السعدى قال: قال على بن أبى طالب (ع):

فى قوله: «إِنَّ رَبِّيَ عَلِيٌّ صِهْرًا طِ مَسْتَقِيمٍ» يعنى أنه على حق يجرى بالإحسان إحسانا، و بالسئى سئيا، و يعفو عمن يشاء و يغفر، سبحانه و تعالى.

أقول: و قد تقدم توضيحه،

و قد ورد فى الروايه عنهم (ع): أن عادا كانت بلادهم فى البادية، و كان لهم زرع و نخيل كثيره، و لهم أعمار طويله و أجساد طويله فعبدوا الأصنام، و بعث الله إليهم هودا يدعوهم إلى الإسلام و خلع الأنداد- فأبوا و لم يؤمنوا بهود و آذوه- فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا. الحديث.

و روى إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنه عن الضحاك أيضا قال:

أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين- فقال لهم هود: «إِسْتِغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ- يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» فأبوا إلا تماديا، و قد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشاره إليه.

و اعلم أن الروايات فى قصه هود و عاد كثيره إلا أنها تشتمل على أمور لا سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب و لا إلى تأييدها بالاعتبار و لذلك طويينا ذكرها.

و ورد أيضا أخبار آخر من طرق الشيعة و أهل السنه فى وصف جنه عاد التى تنسب إلى شداد الملك و هى المذكوره فى قوله تعالى: «إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» الفجر: ٨، و سيأتى الكلام عليها إن شاء الله تعالى فى تفسير سوره الفجر.

١- عاد قوم هود:

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيره انقطعت أخبارهم و انمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يطمئن إليها و ليس فى التوراه الموجوده منهم ذكر.

و الذى يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاد-و ربما يسميهم عادا الأولى (النجم: ٥٠) و فيه إشاره إلى أن هناك عادا ثانيه- كانوا قوما يسكنون الأحقاف (١) من شبه جزيره العرب«الأحقاف: ٢١) بعد قوم نوح (الأعراف: ٦٩).

كانت لهم أجساد طويله (القمر: ٢٠، الحاقه: ٧) و كانوا ذوى بسطه فى الخلق (الأعراف: ٦٩) أولى قوه و بطش شديد (حم السجده: ١٥، الشعراء:

١٣٠) و كان لهم تقدم و رقى فى المدينه و الحضاره، لهم بلاد عامره و أراض خصبه ذات جنات و نخيل و زروع و مقام كريم (الشعراء و غيرها)، و ناهيك فى رقيهم و عظيم مدينتهم قوله تعالى فى وصفهم: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ: الفجر: ٨.

لم يزل القوم يتنعمون بنعمه الله حتى غيروا ما بأنفسهم فتعرت فيهم الوثنيه و بنوا بكل ريع آيه يعبثون و اتخذوا مصانع لعلمهم يخلدون و أطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هودا يدعوهم إلى الحق و يرشدهم إلى أن يعبدوا الله و يرفضوا الأوثان، و يعملوا بالعدل و الرحمه (الشعراء: ١٣٠) فبالغ فى وعظهم و بث النصيحه فيهم، و أنار الطريق و أوضح السبيل، و قطع عليهم العذر فقابلوه بالآباء و الامتناع، و واجهوه بالجحد و الإنكار و لم يؤمن به إلا شردمه منهم قليلون و أصر جمهورهم على البغى و العناد، و رموه بالسفه و الجنون، و ألحوا عليه بأن ينزل

ص: ٣٠٧

١- ١) الأحقاف جمع حقف و الرمل المعوج، و الأحقاف المذكور فى الكتاب العزيز واد بين عمان و أرض مهرة و قيل من عمان إلى حضرموت و هى و مال مشرفه على البحر بالشحر و قال الضحاك: الأحقاف جبل بالشام (المراصد).

عليهم العذاب الذي كان ينذرهم و يتوعدهم به قال: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَبْلَغَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
:الأحقاف: ٢٣.

فأنزل الله عليهم العذاب و أرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم (الذاريات: ٤٢) ريحا صرصرا في
أيام نحسات سبع ليل و ثمانيه أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه (الحاقه: ٧) و كانت تنزع الناس كأنهم
أعجاز نخل منقعر (القمر: ٢٠).

و كانوا بادئ ما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم استبشروا و قالوا: عارض ممطرنا و قد أخطئوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح
فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم (الأحقاف: ٢٥) فأهلكهم الله عن آخرهم و أنجى هودا و
الذين آمنوا معه برحمه منه (هود: ٥٨).

٢- شخصيه هود المعنويه:

و أما هود (ع) فهو من قوم عاد و ثاني الأنبياء الذين انتهضوا للدفاع عن الحق و دحض الوثنيه ممن ذكر الله قصته و ما قاساه من
المحنه و الأذى في جنب الله سبحانه، و أثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام و أشركه بهم في جميل الذكر عليه سلام الله.

[سوره هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٨]

اشاره

وَ إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا
تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ
(٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرَ مَكْدُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ
لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلًا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ (٦٨)

تذكر الآيات الكريمة قصه صالح النبي (ع) وقومه وهم ثمود، وهو (ع) ثالث الأنبياء القائمين بدعوه التوحيد الناهضين على الوثنيه. دعا ثمود إلى التوحيد و تحمل الأذى و المحنه فى جنب الله حتى قضى بينه و بين قومه بهلاكهم و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين.

قوله تعالى: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» تقدم الكلام فى نظيره الآيه فى قصه هود.

قوله تعالى: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» إلى آخر الآيه.

قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء و تربيته و أكثر ما يقال ذلك فى الحيوان قال:

«هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ». انتهى، و قال: العماره ضد الخراب يقال: عمر أرضه يعمرها عماره قال: «وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» يقال:

عمرته فعمر فهو معمور قال: «وَ عَمَرُوهُمَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهُمَا» «وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» و أعمارته الأرض و استعمارته إذا فوضت إليه العماره قال: «وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا»

انتهى، فالعمارة تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقبه منها كعماره الدار للسكنى و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحديد لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و الاستعمار هو طلب العماره بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامره تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

و على ما مر يكون معنى قوله: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» -و الكلام يفيد الحصر- أنه تعالى هو الذى أوجد على المواد الأرضيه هذه الحقيقه المسماه بالإنسان ثم كملها بالتربيه شيئاً فشيئاً و أفطره على أن يتصرف فى الأرض بتحويلها إلى حال ينتفع بها فى حياته، و يرفع بها ما يتنبه له من الحاجه و النقيصه أى إنكم لا- تفتقرون فى وجودكم و بقائكم إلا- إليه تعالى و تقدس.

فقول صالح: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» فى مقام التعليل و حجه يستدل بها على ما ألقاه إليهم من الدعوه بقوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» و لذلك جىء بالفصل كأنه قيل له: لم نعبده وحده؟ فقال:

لأنه هو الذى أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها.

و ذلك لأنهم إنما كانوا يعبدون الأوثان و يتخذونها شركاء لله تعالى لأنهم كانوا يقولون-على مزعمتهم- إن الله سبحانه أعظم من أن يحيط به فهم و أرفع و أبعد من أن تناله عباده أو ترتفع إليه مسأله، و لا بد للإنسان من ذلك فمن الواجب أن نعبد بعض مخلوقاته الشريفة التى فوض إليه أمر هذا العالم الأرضى و تدبير النظام الجارى فيه و نتقرب بالتضرع إليه حتى يرضى عنا فينزل علينا الخيرات، و لا يسخط علينا و نأمن بذلك الشرور، و هذا الإله الرب بالحقيقه شفيعنا عند الله لأنه إله الآلهه و رب الأرباب، و إليه يرجع الأمر كله.

فدين الوثنيه مبنى على انقطاع النسبه بين الله سبحانه و بين الإنسان و استقرارها بينه و بين تلك الوسائط الشريفة التى يتوجهون إليها مع استقلال هذه الوسائط فى التأثير، و شفاعتها عند الله.

و لما كان الله تعالى هو الذى أنشأ الإنسان من الأرض و استعمره فيها فهو تعالى ذو نسبه إلى الإنسان قريب منه، و لا استقلال لشيء من هذه الأسباب التى

نظمها و أجراها فى هذا العالم حتى يرجى منها خير بالإرضاء أو يترقب شر بالإسقاط.

فالله سبحانه هو الذى يجب أن يعبد فيرجى بذلك رضاه، و يتقى بذلك سخطه لمكان أنه هو الخالق للإنسان و لكل شىء المدبر أمره و أمر كل شىء فقوله:

« هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » مسوق لتعليل سابقه و الاحتجاج عليه من طريق إثبات النسبه بينه تعالى و بين الإنسان و نفى الاستقلال من الأسباب.

و لذلك عقبه بقوله: « فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » على وجه التفريع أى فإذا كان الله تعالى هو الذى يجب عليكم أن تعبدوه و تتركوا غيره لكونه هو خالقكم المدبر لأمر حياتكم فاسألوه أن يغفر لكم معصيتكم بعباده غيره، و ارجعوا إليه بالإيمان به و عبادته. إنه قريب مجيب.

و قد علل قوله: « فَاسْتَغْفِرُوهُ » إلخ، بقوله: « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ » لأنه استنتج من حجته المذكوره أنه تعالى يقوم بإيجاد الإنسان و تربيته و تدبير أمر حياته، و أنه لا-استقلال لشىء من الأسباب العماله فى الكون بل الله تعالى هو الذى يسوق هذا إلى هنا، و يصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الإنسان و بين حوائجه و جميع الأسباب العماله فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا- يدركه فهم و لا يناله عبادته و قربان، و إذا كان قريبا فهو مجيب، و إذا كان قريبا مجيبا و هو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا إليه.

قوله تعالى: « يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » إلخ، الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله و آثاره، و لا يرجى منها إلا الخير و النفع فكونه مرجوا هو أن يوجد ذا رشد و كمال فى شخصه و بيته فيستهل منه الخير و يترقب منه النفع، و قوله: « قَدْ كُنْتَ فِينَا » دليل على كونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم: « يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا » معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الأمله على صراط الترقى و التعالى لما كانت تشاهد فيك من أمارات الرشد و الكمال لكنهم يثسوا منك و من رزانه رأيك اليوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

وقولهم: «أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه، والاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذا الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه، واستمرار إقامة السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و الدليل على ما ذكرنا قوله: «أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» الدال على معنى العباده المستمره باتصال عباده الأبناء بعباده الآباء و لم يقل: أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؟ و الفرق بين التعبيرين من جهه المعنى واضح.

و من هنا يظهر أن تفسير بعض المفسرين كصاحب المنار و غيره قوله: «أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» بقولهم: «أَنْ نَعْبُدَ مَا كَانَ يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا» من الخطأ.

و قوله: «وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» حجه ثانيه لهم فى رد دعوه صالح (ع)، و حجتهم الأولى ما يتضمنه صدر الآيه و محصلها أن ما تدعو إليه من رفض عباده الأصنام بدعه منكره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنیان مليتهم، و تميت ذكرهم فعلىنا أن نرده، و الثانيه أنك لم تأت بحجه بينه على ما تدعو إليه تورث اليقين و تميظ الشكك عنا فنحن فى شك مريب مما تدعوننا إليه و ليس لنا أن نقبل ما تندب إليه على شك منا فيه.

و الإبرابه الاتهام و إساءه الظن يقال: رابنى منه كذا إذا أوجب فيه الشكك و أرابنى كذا إرابه إذا حملك على اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ أَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ» إلى آخر الآيه. المراد بالبينه الآيه المعجزه و بالرحمه النبوه، و قد تقدم الكلام فى نظير الآيه من قصه نوح (ع) فى السوره.

و قوله: «فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ» جواب الشرط، و حاصل المعنى:

أخبرونى إن كنت مؤيدا بآيه معجزه تنبئ عن صحه دعوتى و أعطانى الله الرساله فأمرنى بتبليغ رسالته فمن ينجنى من الله و يدفع عنى إن أطعتكم فيما تسألون و وافقتكم فيما تريدونه منى و هو ترك الدعوه.

ففى الكلام جواب عن كلتا حجيتهم و اعتذار عما لاموه عليه من الدعوه المبتدعه.

وقوله: «فَمَا تَزِيدُونِنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ» تفریح على قوله السابق الذى ذكره فى مقام دحض الحجتين و الاعتذار عن مخالفتهم و القيام بدعوتهم إلى خلاف سنتهم القومیه فالمعنى فما تزيدوننى فى حرصكم على ترك الدعوه و الرجوع إليكم و اللحوق بكم غير أن تخسروننى فما مخالفه الحق إلا خساره.

و قيل: المراد أنكم ما تزيدوننى فى قولكم: أَلَمْ نُنْهَازَا أَنْ نَعْبُدْ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ غير نسبتى إياكم إلى الخساره. و قيل: المعنى ما تزيدوننى إلا بصيره فى خسارتكم و الوجه الأول أوجه.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ» إضافة الناقه إلى الله إضافة تشریف كبيت الله و كتابه الله. و كانت الناقه آيه معجزه له (ع) تؤيد نبوته، و قد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله، و قال لهم: أنها تأكل فى أرض الله محرره، و حذرهم أن يمسوها بسوء أى يصبوها بضرب أو جرح أو قتل. و أخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل، و هذا معنى الآيه.

قوله تعالى: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَيدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» عقر الناقه نحرها، و الدار هى المكان الذى بينه الإنسان فيسكن فيه و يأوى إليه هو و أهله، و المراد بها فى الآيه المدينه سميت دارا لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها، و قيل المراد بالدار الدنيا، و هو بعيد.

و المراد بتمتعهم فى مدينتهم العيش و التنعم بالحياه لأن الحياه الدنيا متاع يتمتع به، أو الالتذاذ بأنواع النعم التى هيئوها فيها من مناظر ذات بهجه و الأثاث و المأكول و المشروب و الاسترسال فى أهواء أنفسهم.

و قوله: «ذَلِكَ وَعَيدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» الإشاره إلى قوله: «تَمَتَّعُوا» إلخ، و «وَعَيدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» بيان له.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا» إلى آخر الآيه. أما قوله: «فَلَمَّا

جَاءَ أَمْرُنَا نَجِيتَنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

«فقد تقدم الكلام فى مثله فى قصه هود.

و أما قوله: «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ فَمَعْطُوفٌ عَلَى مَحذُوفٍ وَالتقدير نجيناهم من العذاب و من خزى يومئذ، و الخزى العيب الذى تظهر فضيخته و يستحى من إظهاره أو أن التقدير: نجيناهم من القوم و من خزى يومئذ على حد قوله: «وَنَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فى موضع التعليل لمضمون صدر الآية و فيه التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة، و قد تقدم نظيره فى آخر قصه هود فى قوله: «أَلَا- إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ» و الوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدل به على خروجهم من زى العبودية و كفرهم بالربوبية و كفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالى: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» يقال:

جثم جثوما إذا وقع على وجهه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» غنى بالمكان أى أقام فيه و الضمير راجع إلى الديار.

قوله تعالى: «أَلَا- إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا- بُعِيداً لِمُؤَدَّ الْجَمَلَتَانِ تَلْخِصُ مَا تَقْدِمُ تَفْصِيلَهُ مِنَ الْقِصَّةِ فَالجملة الأولى تلخيص ما انتهى إليه أمر تمود و دعوه صالح (ع)، و الثانية تلخيص ما جازاهم الله به، و قد تقدم نظيره الآية فى آخر قصه هود.

(بحث روائى)

فى الكافى، مسندا عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع) قال: قلت له: «كَذَّبَتْ تَمُودٌ بِالنُّذْرِ- فَقَالُوا أَوْ بَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ- إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ» قال: هذا فيما كذبوا صالحا، و ما أهلك الله عز و جل قوما قط- حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم-.

فبعث الله إليهم صالحا فلم يجيبوه و عتوا عليه، و قالوا لن نؤمن لك حتى

تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء-و كانت الصخرة يعظمونها و يعبدونها-و يذبحون عندها فى رأس كل سنه و يجتمعون عندها،فقالوا:إن كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك-حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء-فأخرجها الله كما طلبوا منه-.

ثم أوحى الله تبارك و تعالى إليه أن يا صالح قل لهم:إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم و لكم شرب يوم-فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم- فيحبسونها فلا يبقى صغير و كبير-إلا شرب من لبنها يومهم ذلك-فإذا كان الليل و أصبحوا غدوا إلى مائهم-فشربوا منه ذلك اليوم و لم تشرب الناقة ذلك اليوم- فمكثوا بذلك ما شاء الله-.

ثم إنهم عتوا على الله و مشى بعضهم إلى بعض قال:اعقروا هذه الناقة و استريحوا منها-لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم و لها شرب يوم.ثم قالوا:من الذى يلى قتلها و نجعل له جعلاً ما أحب؟فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا-لا يعرف له أب يقال له:قدار-شقى من الأشقياء مشؤم عليهم فجعلوا له جعلاً-.

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذى كانت ترده تركها-حتى شربت و أقبلت راجعه فقعد لها فى طريقها-فضربها بالسيف ضربه فلم يعمل شيئا-فضربها ضربه أخرى فقتلها- و خرت على الأرض على جنبها،و هرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل-فرغا ثلاث مرات إلى السماء،و أقبل قوم صالح-فلم يبق منهم أحد إلا شركه فى ضربته، و اقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير و لا كبير- إلا أكل منها-.

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم و قال:يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أ عصيتم أمر ربكم؟فأوحى الله تبارك و تعالى إلى صالح(ع):إن قومك قد طغوا و بغوا و قتلوا ناقة-بعثها الله إليهم حجه عليهم و لم يكن لهم فيها ضرر-و كان لهم أعظم المنفعة فقل لهم:إنى مرسل إليهم عذابى إلى ثلاثة أيام-فإن هم تابوا و رجعوا قبلت توبتهم و صددت عنهم،و إن هم لم يتوبوا و لم يرجعوا-بعثت إليهم عذابى فى اليوم الثالث-.

فأتاهم صالح و قال:يا قوم إنى رسول ربكم إليكم-و هو يقول لكم:إن تبتم و رجعتم و استغفرتم-غفرت لكم و تبت عليكم،فلما قال لهم ذلك[قالوا ظ]كانوا

أعتى ما قالوا و أخبث-و قالوا:يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين-.

قال:يا قوم إنكم تصبحون غدا و جوهكم مصفره،و اليوم الثانى و جوهكم محمره و اليوم الثالث و جوهكم مسوده-فلما أن كان أول يوم أصبحوا و جوههم مصفره- فمشى بعضهم إلى بعض و قالوا:قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاه منهم:لا نسمع قول صالح و لا نقبل قوله و إن كان عظيما.فلما كان اليوم الثانى أصبحت و جوههم محمره-فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا:يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح-فقال العتاه منهم لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صالح-و لا تركنا آلهتنا التى كان آباؤنا يعبدونها- و لم يتوبوا و لم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث-أصبحوا و جوههم مسوده-فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا:يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاه منهم:قد أتانا ما قال لنا صالح-.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل-فصرخ لهم صرخه خرقت تلك الصرخه أسماعهم-و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم-و قد كانوا فى تلك الثلاثه الأيام قد تحنطوا- و تكفنوا و علموا أن العذاب نازل بهم-فماتوا جميعا فى طرفه عين:صغيرهم و كبيرهم-فلم يبق لهم ناعقه و لا- راعيه و لا- شىء إلا- أهلكه الله-فأصبحوا فى ديارهم و مضاجعهم موتى- فأرسل الله إليهم مع الصيحه النار من السماء-فأحرقهم أجمعين،و كانت هذه قصتهم.

أقول:و اشتمال الحديث على أمور خارقه للعاده كشرى الناس جميعا من لبن الناقه و كذا تغير ألوان و جوههم يوما فيوما لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز،و قد نص القرآن الكريم بذلك،و بأنها كانت لها شرب يوم و لأهل المدينه كلهم شرب يوم معلوم.

و أما كون الصيحه من جبرئيل فلا ينافى كونها صاعقه سماويه نازله عليهم إماتهم بصوتها و أحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبه حادث من الحوادث الكونيه خارق للعاده أو جار عليها إلى ملك روحانى إذا كان هو فى مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونيه من الموت و الحياه و الرزق و غيرها منسوبه إلى الملائكه العمالء.

و قوله(ع):إنهم قد كانوا فى الثلاثه الأيام قد تحنطوا و تكفنوا كأنه كناية عن تهيئهم للموت.

وقد وقع في بعض الروايات في وصف الناقة أنه كانت بين جنبيها مسافه ميل و هو مما يوهن الروايه لا لاستحاله وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهه أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبه بين أعضائها حينئذ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثه أميال و لا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتله بسيفه و لم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقه قطعاً، و مع ذلك لا يخلو قوله تعالى:

«لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ» من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمه جدا.

(كلام في قصه صالح في فصول)

١- ثمود قوم صالح(ع):

ثمود قوم من العرب العاربه كانوا يسكنون وادى القرى بين المدينه و الشام، و هم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم، و لقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم.

و الذى يقصه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أمه من العرب على ما يدل عليه اسم نبهم و قد كان منهم (هود: ٦١) نشثوا بعد قوم عاد و لهم حضاره و مدينه يعمرن الأرض و يتخذون من سهولها قصورا و ينحتون من الجبال بيوتا آمنين الأعراف: ٧٤) و من شغلهم الفلاحة بإجراء العيون و إنشاء الجنات و النخيل و الحرث (الشعراء: ١٤٨).

كانت ثمود تعيش على سنه الشعوب و القبائل يحكم فيهم سادتهم و شيوخهم و قد كانت فى المدينه التى بعث فيها صالح تسعه رهط يفسدون فى الأرض و لا يصلحون (النمل: ٤٨) فطغوا فى الأرض و عبدوا الأصنام و أفرطوا عتوا و ظلما.

٢- بعثه صالح(ع):

لما نسيت ثمود ربها و أسرفوا فى أمرهم أرسل الله إليهم صالحا النبى(ع) و كان من بيت الشرف و الفخار معروفا بالعقل و الكفايه (هود ٦٢- النمل ٤٩) فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه و أن يتركوا عباده الأصنام و أن يسيروا فى مجتمعهم بالعدل و الإحسان، و لا يعلوا فى الأرض و لا يسرفوا و لا يطغوا و أنذرهم بالعذاب «هود- الشعراء- الشمس و غيرها».

فقيام(ع)بالدعوة إلى دين الله بالحكمة و الموعظه الحسنه و صبر على الأذى فى جنب الله فلم يؤمن به إلا- جماعه قليله من ضعفائهم(الأعراف:٧٥) و أما الطغاه المستكبرون و عامه من تبعهم فأصروا على كفرهم و استدلوا الذين آمنوا به و رموه بالسفاهه و السحر(الأعراف ٦٦-الشعراء ١٥٣-النمل ٤٧).

و طلبوا منه البينه على مقاله،و سألوه آيه معجزه تدل على صدقه فى دعوى الرساله،و اقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقه فأتاهم بناقه على ما وصفوها به،و قال لهم:إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوما و تكفوا عنها يوما فتشربها الناقه فلها شرب يوم و لكم شرب يوم معلوم،و أن تذروها تأكل فى أرض الله كيف شاءت و لا- تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب(الأعراف ٧٢-هود ٦٤- الشعراء ١٥٦).

و كان الأمر على ذلك حيناً ثم إنهم طغوا و مكروا و بعثوا أشقاهم لقتل الناقه فعقرها،و قالوا لصالح اثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.قال صالح(ع):

تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكُمْ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ:

(هود-٦٥).

ثم مكرت شعوب المدينه و أرهاطها بصالح و تقاسموا بينهم لنبيتته و أهله ثم نقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله و إنا لصادقون،و مكروا مكرا و مكر الله مكرا و هم لا- يشعرون(النمل ٥٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ:الذاريات-٤٤ و الرجفه و الصيحه فأصبحوا فى دارهم جاثمين فتولى عنهم و قال يا قوم لقد أبلغتكم رساله ربي و نصحت لكم و لكن لا- تحبون الناصحين(الأعراف ٧٩-هود ٦٧) و أنجى الله الذين آمنوا و كانوا يتقون(حم السجده ١٨)و نادى بعدهم المنادى الإلهى:

ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود.

٣-شخصيه صالح(ع):

لم يرد لهذا النبى الصالح فى التوراه الحاضره ذكر.كان(ع)من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين فى القرآن بالقيام بأمر الله و النهضه للتوحيد على الوثنيه يذكره الله تعالى بعد نوح و هود،و يحمده و يثنى عليه بما أثنى به على أنبيائه و رسله،و قد اختاره و فضله كسائرهم على العالمين(ع).

ص: ٣١٨

اشاره

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَإِمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرِى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

(بيان)

تتضمن الآيات قصه بشرى إبراهيم(ع) بالولد، و أنها كالتوطئه لما سيدكر بعده من قصه ذهاب الملائكه إلى لوط النبى(ع) لإهلاك قومه فإن تلك القصة ذيل هذه القصة و فى آخر قصه البشرى ما يتبين به وجه قصه الإهلاك و هو قوله:

« إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » الآية.

قوله تعالى: « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى » إلى آخر الآية البشرى هى البشاره، و العجل ولد البقره، و الحنيد فعيل بمعنى المفعول أى المحنود و هو

اللحم المشوى على حجاره محماه بالنار كما أن القديد هو المشوى على حجاره محماه بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين، و ذكر بعضهم أنه المشوى الذى يقطر ماء و سمنًا، و قيل: هو مطلق المشوى، و قوله تعالى فى سورة الذاريات فى القصة:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثانى.

و قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَىٰ﴾ معطوف على قوله سابقا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قال فى المجمع: و إنما دخلت اللام لتأكيد الخبر و معنى قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصه بعد قصه، و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع فى حال توقع. انتهى.

و الرسل هم الملائكة المرسلون إلى إبراهيم للبشاره و إلى لوط لإهلاك قومه و قد اختلفت كلمات المفسرين فى عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلاله لفظ الجمع-الرسل-على ذلك، و فى بعض الروايات عن أئمه أهل البيت(ع) أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام، و سيأتى نقلها إن شاء الله فى البحث الروائى.

و البشرى التى جاءت بها الرسل إبراهيم(ع) لم يذكر بلفظها فى القصة، و التى ذكرت فيها منها هى البشاره لامرأته، و إنما ذكرت بشاره إبراهيم نفسه فى غير هذا المورد كسورتى الحجر و الذاريات، و لم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أ هو إسحاق أم إسماعيل(ع) أو أنهم بشروه بكليهما؟ و ظاهر سياق القصة فى هذه السوره أنها البشاره بإسحاق، و سيأتى البحث المستوفى عن ذلك فى آخر القصة.

و قوله: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَال سَلَامٌ﴾ أى تسالموا هم و إبراهيم فقالوا: سلاما أى سلمنا عليك سلاما، و قال إبراهيم: سلام أى عليكم سلام.

و السلام الواقع فى تحيه إبراهيم(ع) نكره و وقوعه نكره فى مقام التحيه دليل على أن المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخيم و مزيد التكريم و التقدير: عليكم سلام زاك طيب أو ما فى معناه، و لذا ذكر بعض المفسرين: أن رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حياهم بأحسن تحيتهم فبالغ فى إكرامهم ظنا منه أنهم ضيف.

وقوله: «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ» أى ما أبطأ فى أن قدم إليهم عجلا مشويا يقطر ماء و سمنا و أسرع فى ذلك.

قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» عدم وصول أيديهم إليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم إلى الطعام، و ذلك أماره العداوه و إضمار الشر، و نكرهم و أنكرهم بمعنى واحد و إنما كان أنكرهم لأنكاره ما شاهد منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبي، قال الراغب: الوجس الصوت الخفى، و التوجس التسمع، و الإيجاس وجود ذلك النفس قال: و أوجس منهم خيفه، و الواجس قالوا:

هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر. انتهى. فالجمله من الكناية كان لطروق الخيفه- و هو النوع من الخوف- و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبي، و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمنوه و طيبوا نفسه بقولهم: «لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكُمْ قَوْمٍ لُوطٍ».

و معنى الآيه أن إبراهيم(ع) لما قدم إليهم العجل المشوى رأهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل- و ذلك أماره الشر- استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطيبوا لنفسه: لا- تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه، و أنهم مرسلون لخطب جليل.

و نسبه استشعار الخوف إلى إبراهيم(ع) لا- ينافى ما كان عليه من مقام النبوه الملازم للعصمه الإلهيه من المعصيه و الرذائل الخلقيه فإن مطلق الخوف و هو تأثر النفس عن مشاهده المكروه التى تبعثها إلى التحذر منه و المبادرة إلى دفعه ليس من الرذائل، و إنما الرذيله هى التأثير الذى يستوجب بطلان مقاومه النفس و ظهور العي و الفزع و الذهول عن التدبير لدفع المكروه و هو المسمى بالجبن كما أن عدم التأثير عن مشاهده المكروه مطلقا و هو المسمى تهورا ليس من الفضيله فى شىء.

و ذلك أن الله سبحانه لم يخلق هذه الحالات النفسانيه التى تظهر فى النفوس

و منها التأثير و الانفعال عند مشاهدته المكروه و الشر كالشوق و الميل و الحب و غير ذلك عند مشاهدته المحبوب و الخير عبثا باطلا فإن جلب الخير و النفع و دفع الشر و الضرر مما فطر على ذلك أنواع الموجودات على كثرتها و عليه يدور رحي الوجود فى نظامه العام.

و لما كان هذا النوع المسمى بالإنسان إنما يسير فى مسير بقائه بالشعور و الإراده كان عمل الجلب و الدفع فيه مترشحا عن شعوره و إرادته، و لا يتم إلا عن تأثير نفسانى يسمى فى جانب الحب ميلا و شهوه و فى جانب البغض و الكراهه خوفا و وجلا.

ثم لما كانت هذه الأحوال النفسانيه الباطنه ربما ساقط الإنسان إلى أحد جانبي الإفراط و التفريط كان من الواجب على الإنسان أن يقوم من الدفع على ما ينبغى و هو فضيله الشجاعه كما أن من الواجب عليه أن يبادر من الجلب إلى ما ينبغى على ما ينبغى و هو فضيله العفه و هما حدا الاعتدال بين الإفراط و التفريط، و أما انتفاء التأثير بأن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكه الصريحه فى باب الدفع و هو التهور، أو لا تنزع نفسه إلى شىء مطلوب قط فى باب الجلب و الشهوه و هو الخمول و كذا بلوغ التأثير من القوه إلى حيث ينسى الإنسان نفسه و يذهل عن واجب رأيه و تدبيره فيجزع عن كل شبح يتراءى له فى باب الدفع و هو الجبن أو ينكب على كل ما تهواه نفسه و تشتت به كالبهيمة على عليقتها فى باب الشهوه و هو الشره فجميع هذه من الرذائل.

و الذى آثر الله سبحانه به أنبياءه من العصمه إنما يثبت فى نفوسهم فضيله الشجاعه دون التهور، و ليست الشجاعه تقابل الخوف الذى هو مطلق التأثير عن مشاهدته المكروه، و هو الذى يدعو النفس إلى القيام بواجب الدفع، و إنما تقابل الجبن الذى هو بلوغ التأثير النفسانى إلى حيث يبطل الرأى و التدبير و يستتبع العى و الانهزام.

قال تعالى: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ:» الأَحْزَاب: -٣٩، و قال مخاطبا لموسى (ع): «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى:» طه:

-٦٨، و قال حكاية عن قول شعيب له (ع): «لَا تَخَفْ نَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ:» القصص:-٢٥، وقال مخاطبا لنبيه(ص): «وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ:» الأنفال:-٥٨.

و الخليل(ع) هو النبي الكريم الذى قام بالدعوة الحقه إذ لا يذكر اسم الله وحده، و نازع و ثنيه قومه فحاج أباه آزر و قومه و حاج الملك الجبار نمرود و كان يدعى الألوهيه، و كسر أصنام القوم حتى ألقوه فى النار فأنجاه الله من النار فلم يجبنه شىء من تلك المهاول، و لا هزمه فى جهاده فى سبيل الله هازم، و مثل هذا النبي على ما له من الموقف الروحي إن خاف من شىء أو وجل من أحد أو ارتاعه أمر-على اختلاف تعبير الآيات-فإنما يخافه خوف حزم و لا يخافه خوف جبن، و إذا خاف من شىء على نفسه أو عرضه أو ماله فإنما يخاف الله لا لهوى من نفسه.

قوله تعالى: « وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » ضحكت من الضحك بفتح الضاد أى حاضت، و يؤيده تفريع البشاره عليه فى قوله عقيبه: «فَبَشَّرْنَاَهَا» إلخ، و يكون ضحكها أماره تقرب البشرى إلى القبول، و آيه تهيبى نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به، و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز، و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن إبراهيم(ع) كان يكلمهم و يكلمونه فى أمر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر إلى ما يجرى بين الضيفان و بين إبراهيم و ما كان يخطر ببالها شىء دون ذلك ففاجأها أنها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و أكثر المفسرين أخذوا الكلمه من الضحك بكسر الضاد ضد البكاء ثم اختلفوا فى توجيه سببه، و أقرب الوجوه هو أن يقال:إنها كانت قائمه هناك و قد ذعرت من امتناع الضيوف من الأكل و هو يهتف بالشر فلما لاحت لها أنهم ملائكه مكرمون نزلوا ببيتهم و أن لا شر فى ذلك يتوجه إليهم سرت و فرحت فضحكت فبشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب.

و هناك وجوه آخر ذكرها خاليه عن الدليل كقولهم إنها ضحكت تعجبا من غفله قوم لوط، و قولهم:إنها ضحكت تعجبا من امتناع الضيوف من الأكل

و الحال أنها تخدمهم بنفسها، و قولهم: إنها كانت أشارت إلى إبراهيم أن يضم إليه لوطا لأن فحشاء قومه سيعقبهم العذاب و الهلاك فلما سمعت من الملائكة قولهم:

إنا أرسلنا إلى قوم لوط سرت و ضحكت لإصابتها فى الرأى، و قولهم: إنها ضحكت تعجبا مما بشروها به من الولد و هى عجوز عقيم، و على هذا فى الكلام تقديم و تأخير و التقدير: فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فضحكت.

و قوله: «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» إسحاق هو ابنها من إبراهيم، و يعقوب هو ابن إسحاق (ع) فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد. هذا على قراءة يعقوب بالفتح و هو منزوع الخافض و قرئ برفع يعقوب و هو بيان لتتمه البشاره، و الأولى أرجح.

و كان فى هذا التعبير: «وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» إشارة إلى وجه تسميه يعقوب (ع) بهذا الاسم، و هو أنه كان يعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذكر فيها أنه وراءه، و يكون فيها تخطئه لما فى التوراه من السبب فى تسميه يعقوب به.

قال فى التوراه الحاضره: و كان إسحاق ابن أربعين سنه لما اتخذ لنفسه زوجه «رفقه» بنت بنوئيل الأرامى أخت لابان الأرامى من فدان الأرام، و صلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا فاستجاب له الرب فحبلت رفقه امرأته و تزاحم الولدان فى بطنها فقالت: إن كان هكذا فلما ذا أنا، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب: فى بطنك أمتان، و من أحشائك يفترق شعبان: شعب يقوى على شعب، و كبير يستعبد لصغير.

فلما كملت أيامها لتلد إذا فى بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروه شعر فدعى اسمه عيسو، و بعد ذلك خرج أخوه و يده قابضه يعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب. انتهى موضع الحاجه و هذا من لطائف القرآن الكريم.

قوله تعالى: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلَى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» الويل القبح و كل مساءه توجب التحسر من هلكه أو مصيبه أو فجيعة، أو فضيحة و نداؤه كناية عن حضوره و حلوله يقال: يا ويلى أى حضرنى و حل بى ما

فيه تحسرى، ويا ويلتا بزياده التاء عند النداء مثل يا أبتا.

و العجوز الشيخه من النساء، و البعل زوج المرأه و الأصل فى معناه القائم بالأمر المستغنى عن الغير يقال للنخل الذى يستغنى بماء السماء عن سقى الأنهار و العيون بعل، و يقال للصاحب و للرب: بعل. و منه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

و العجيب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهده ما لا يعلم سببه، و لذا يكثر فى الأمور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها:

« يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُّ ۚ أَخِي، وورد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائكه تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم و شيخ هرم بالغين فى الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاء فهو أمر عجيب على ما فيه من العار و الشين عند الناس فيضحكون منهما و يهزءون بهما و ذلك فضيحه.

قوله تعالى: « قَالُوا أَتَعَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » المجد هو الكرم و المجد الكريم كثير النوال و قد تقدم معنى بقيه مفردات الآيه.

و قولهم: « أَتَعَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » استفهام إنكارى أنكرت الملائكه تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب و استغراب الأمر، و الأمر المنسوب إلى الله سبحانه و هو الذى يفعل ما يشاء و هو على كل شىء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمه و مواهب عاليه يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه أخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

و لهذا الذى ذكرنا قالت الملائكه لها فى إنكار ما رأوا من تعجبها أولا:

« أَتَعَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب و استغراب لأن ساحه الألوهيه لا يشق شىء عليها و هو الخالق لكل شىء.

و ثانيا: « رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » فنبهوها بذلك أن الله أنزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت، و ألزمهم ذلك فليس من البعيد أن يكون من ذلك تولد مولود من والدين فى غير سنهما العادى المألوف لذلك.

وقوله: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ» في مقام التعليل لقوله: «رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» أي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود و منشأ كل كرم و جود يفيض من رحمته و بركاته على من يشاء من عباده.

قوله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» الروع الخوف و الرعب و المجادله في الأصل الإلحاح في البحث و المساءله للغلبه في الرأى، و المعنى أنه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفه بتبين أن النازلين به لا يريدون به سوءا و لا يضمرون له شرا. و جاءته البشرى بأن الله سيرزقه و زوجه إسحاق و من وراء إسحاق يعقوب أخذ يجادل الملائكه في قوم لوط يريد بذلك أن يصرف عنهم العذاب.

فقوله: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» لحكاية الحال الماضيه أو بتقدير فعل ماض قبله و تقديره: أخذ يجادلنا إلخ، لأن الأصل في جواب لما أن يكون فعلا ماضيا.

و يظهر من الآيه أن الملائكه أخبروه أولا: بأنهم مرسلون إلى قوم لوط ثم ألقوا إليه البشاره ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم (ع) يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم، و العذاب نازل لا مرد له.

و الذى ذكره الله من مجادلتها (ع) الملائكه هو قوله في موضع آخر: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالِ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِّنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ:» العنكبوت: - ٣٢.

قوله تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» الحلیم هو الذى لا يعاجل العقوبه و الانتقام، و الأواه كثير التأوه مما يصيبه أو يشاهده من السوء، و المنيب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع في كل أمر إلى الله.

و الآيه مسوقه لتعليل قوله في الآيه السابقه: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و فيه مدح بالغ لإبراهيم (ع) و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حلما لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا و يستقيموا، و كان

كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاك بهم مراجعا إلى الله في نجاتهم. لا أنه (ع) كان يكره عذاب الظالمين و ينتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم (ع) و بذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمرا فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله. فقولهم: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى انصرف عن هذا الجدل و لا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

و قولهم: ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أى بلغ أمره مبلغا لا يدفع بدافع و لا يتبدل بمبدل و يؤيده قوله في الجملة التالية: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فإن ظاهره المستقبل و لو كان الأمر صادرا لم يتخلف القضاء عن المقضى البتة و يؤيده أيضا قوله في ما سيأتى من آيات قصه قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾: إلخ، آيه- ٨٢ من السوره.

و قولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أى غير مدفوع عنهم بدافع فله الحكم لا معقب لحكمه، و الجملة بيان لما أمر به جىء بها تأكيدا للجملة السابقة و المقام مقام التأكيد، و لذلك جىء في الجملة الأولى بضمير الشأن و قد المفيد للتحقيق، و صدرت الجملتان معا بأن، و أضافوا الأمر إلى رب إبراهيم (ع) دون أمر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدل.

(بحث روائى)

في الكافي، بإسناده عن أبى يزيد الحمار عن أبى عبد الله (ع) قال: إن الله بعث أربعه أملا-ك في إهلا-ك قوم لوط: جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و كروبييل - فمروا بإبراهيم فسلموا عليه و هم معتمون فلم يعرفهم، و رأى هيئه حسنه فقال:

لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسى - و كان صاحب ضيافه فشوى لهم عجلا سمينا - حتى أنضجه فقربه إليهم فلما وضع بين أيديهم - رأى أيديهم لا تصل إليه فنكرهم - و أوجس منهم خيفه فلما رأى ذلك جبرئيل - حسر العمامه عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال: أنت هو؟

قال: نعم فمرت به امرأته-فبشرها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فقالت:

ما قال الله عز و جل و أجابوها بما فى الكتاب.-

فقال لهم إبراهيم:لما ذا جئتم؟فقالوا فى إهلاك قوم لوط.قال:إن كان فيها مائه من المؤمنين أ تهلكونها؟قال جبرئيل:لا.قال:و إن كان فيهم خمسون؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم ثلاثون؟قال:لا.قال:و إن كان فيهم عشرون؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم عشرة؟قال:لا.قال:و إن كان فيهم خمسة؟ قال:لا.قال:و إن كان فيهم واحد؟قال:لا.قال:فإن فيها لوطا.قالوا:

نحن أعلم بمن فيها-لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين-ثم مضوا.

قال:و قال الحسن بن على:لا- أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول الله عز و جل:«يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» الحديث و له تتمه ستوافيك فى قصه لوط.

أقول:و قوله:«لا- أعلم هذا القول إلا- و هو يستبقيهم» يمكن استفادته من قوله تعالى:«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» فإنه أنسب بكون غرضه استبقاء القوم لا- استبقاء نبي الله لوط.على أن قوله:«يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و قوله:«إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» إنما يناسب استبقاء القوم.

و فى تفسير العياشى، عن عبد الله بن سنان قال:سمعت أبا عبد الله(ع)يقول:

جاء بعجل حنيد مشويا نضيحا.

و فى معانى الأخبار، بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز و جل: فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ قَالَ:حاضت.

و فى الدر المشهور، أخرج إسحاق بن بشر و ابن عساكر من طريق جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال:"لما رأى إبراهيم أنه لا تصل إلى العجل أيديهم-نكرهم و خافهم،و إنما كان خوف إبراهيم أنهم كانوا فى ذلك الزمان-إذا هم أحدهم بامرئ سوء لم يأكل عنده-يقول:إذا أكرمت بطعامه حرم على أذاه،فخاف إبراهيم أن يريدوا به سوء فاضطربت مفاصله.-

و امرأته ساره قائمه تخدمهم،و كان إذا أراد أن يكرم ضيفا أقام ساره-

ليخدمهم فضحكت ساره، وإنما ضحكت أنها قالت: يا إبراهيم و ما تخاف؟ إنهم ثلاثة نفر و أنت و أهلک و غلمانک. قال لها جبرئيل: أيتها الضاحكه-أما إنک ستلدين غلاما يقال له: إسحاق- و من ورائه غلام يقال له: يعقوب- فأقبلت في صره فصكت وجهها فأقبلت والهه تقول: وا ويلتاه و وضعت يدها على وجهها استحياء- فذلك قوله: فصكت وجهها، و قالت: أ ألد و أنا عجوز و هذا بعلى شيخا-.

قال: لما بشر إبراهيم يقول الله: فلما ذهب عن إبراهيم الروح و جاءته البشرى بإسحاق- يجادلنا في قوم لوط، و كان جداله أنه قال: يا جبرئيل أين تريدون؟ و إلى من بعثتم؟ قال: إلى قوم لوط و قد أمرنا بعذابهم-.

فقال إبراهيم إن فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا- امرأته، و كانت فيما زعموا تسمى والقه. فقال إبراهيم: إن كان فيهم مائه مؤمن أ تعذبونهم؟ قال جبرئيل: لا. قال: فإن كان فيهم ثمانون مؤمنون- تعذبونهم؟ قال جبرئيل:

لا- حتى انتهى في العدد إلى واحد مؤمن قال جبرئيل: لا. فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمنا واحدا- قال: إن فيها لوطا. قالوا نحن أعلم بمن فيها- لننجينه و أهله إلا امرأته.

أقول: و في متن الحديث اضطراب ما من حيث ذكره قول إبراهيم: إن فيها لوطا أولا و ثانيا لكن المراد واضح.

و في تفسير العياشى، عن أبى حمزه الثمالى عن أبى جعفر (ع) قال: إن الله تبارك و تعالى لما قضى عذاب قوم لوط و قدره- أحب أن يعوض إبراهيم من عذاب قوم لوط بغلام عليم- يسلى به مصابه بهلاك قوم لوط-.

قال: فبعث الله رسلا إلى إبراهيم يبشرونه بإسماعيل. قال: فدخلوا عليه ليلا ففزع منهم- و خاف أن يكونوا سراقا- فلما رأته الرسل فزعا مذعورا قالوا:

سلاما. قال: سلام إنا منكم و جلون. قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم. قال أبو جعفر (ع): و الغلام العليم إسماعيل من هاجر- فقال إبراهيم للرسل: أ بشرتمونى- على أن مسنى الكبر فبم تبشرون. قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين.

قال إبراهيم للرسول: فما خطبكم بعد البشارة؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين قوم لوط - إنهم كانوا قوما فاسقين لننذرهم عذاب رب العالمين، قال أبو جعفر (ع): قال إبراهيم: إن فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله - إلا - امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين -.

فلما عذبهم الله أرسل الله إلى إبراهيم رسلا - يبشرونه بإسحاق و يعزونه بهلاك قوم لوط، و ذلك قوله: وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى - قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ - قَلِمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ - يعنى زكيا مشويا نضيجا - فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة - قالوا لا - تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط و امرأته قائمه. قال أبو جعفر (ع): إنما عنوا ساره قائمه - فبشروها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب - فضحكت يعنى فعجبت من قولهم.

أقول: و الروايه - كما ترى - تجعل قصه البشارة قصتين: البشارة بإسماعيل و البشارة بإسحاق و قد ولد بعد إسماعيل بسنين. ثم تحمل آيات سوره الحجر - لم يذكر فيها تقديم العجل المشوى إلى الضيوف - على البشرى بإسماعيل و لما يقع العذاب على قوم لوط حين ذاك، و تحمل آيات سورتي الذاريات و هود - و قد اختلطتا فى الروايه - على البشرى لساره بإسحاق و يعقوب، و أنها إنما كانت بعد هلاك قوم لوط فراجعوا إبراهيم و أخبروه بوقوع العذاب و بشروه البشارة الثانيه.

أما آيات سوره الحجر فإنها فى نفسها تحتمل الحمل على البشارة بإسماعيل و كذا الآيات الواقعه فى سوره الذاريات تحتمل أن تقص عما بعد هلاك قوم لوط و تكون البشرى بإسحاق و يعقوب عند ذلك.

و أما آيات سوره هود فإنها صريحه فى البشرى بإسحاق و يعقوب، و لكن ما فى ذيلها من قوله: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ» إلى آخر الآيات تأبى أن تنطبق على ما بعد هلاك قوم لوط، و إن كان ما فى صدرها من قوله: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ لَّا يَأْبَى وَحده الحمل على ما بعد الهلاك، و كذا جمله «إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ» لولا ما يحفها من قيود الكلام.

و بالجمله مفاد الآيات فى سوره هود هو وقوع البشرى بإسحاق قبل هلاك قوم

لوط، و عند ذلك كان جدال إبراهيم(ع)، و مقتضى ذلك أن تكون ما وقع من القصة فى سورة الذاريات هى الواقعه قبل هلاك القوم لا- بعد الهلاك، و كذا كون ما وقع من القصة فى سورة الحجر و فيه التصريح بكونه قبل هلاكهم و فيه جدال إبراهيم(ع) خاليا عن بشرى إسحاق و يعقوب لا بشرى إسماعيل.

و الحاصل أن اشتغال آيات هود على بشرى إسحاق و جدال إبراهيم(ع) الظاهر فى كونها قبل هلاك قوم لوط يوجب أن يكون المذكور من البشرى فى جميع السور الثلاث: هود و الحجر و الذاريات قصه واحده هى قصه البشرى بإسحاق قبل وقوع العذاب، و هذا مما يوهن الروايه جدا.

و فى الروايه شىء آخر و هو أنها أخذت الضحك بمعنى العجب و أخذت قوله:

« فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » من التقديم و التأخير، و أن التقدير: فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب فضحكت» و هو خلاف الظاهر من غير نكته ظاهره.

و فى تفسير العياشى، أيضا عن الفضل بن أبى قره قال: سمعت أبا عبد الله(ع) يقول: أوحى الله إلى إبراهيم أنه سيلد لك- فقال لساره فقالت: أألد و أنا عجوز؟ فأوحى الله إليه: أنها ستلد- و يعذب أولادها أربعمائنه سنه بردها الكلام على-.

قال: فلما طال على بنى إسرائيل العذاب- ضجوا و بكوا إلى الله أربعين صباحا- فأوحى الله إلى موسى و هارون أن يخلصهم من فرعون- فحط عنهم سبعين و مائه سنه.

قال: و قال أبو عبد الله(ع): هكذا أنتم. لو فعلتم فرج الله عنا فأما إذا لم تكونوا- فإن الأمر ينتهى إلى منتهاه.

أقول: وجود الرابطه بين أحوال الإنسان و ملكاته و بين خصوصيات تركيب بدنه مما لا شك فيه فلكل من جانبى الربط استدعاء و تأثير خاص فى الآخره ثم النطفه مأخوذه من الماده البدنيه حامله لما فى البدن من الخصوصيات الماديه و الروحيه طبعاً فمن الجائز أن يرث الأخلاف بعض خصوصيات أخلاق أسلافهم الماديه و الروحيه.

و قد تقدم كرارا فى المباحث السابقه أن بين صفات الإنسان الروحيه و أعماله

و بين الحوادث الخارجيه خيرا و شرا رابطته تامه كما يشير إليه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ:» الأعراف:-٩٦، و قوله: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ:» الشورى:-٣٠.

فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانيه عمل من الأعمال صالح أو طالح أو تظهر صفه من الصفات فضيله أو رذيله ثم يظهر أثره الجميل أو وباله السيئ في أعقابه، و الملاك في ذلك نوع من الوراثه كما مر، و قد تقدم في ذيل قوله تعالى: «وَلْيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضَلَالًا كَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ:» النساء:-٩ كلام في هذا المعنى في الجزء الرابع من الكتاب.

و فيه، عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبي جعفر(ع) و عن عبد الرحمن عن أبي عبد الله(ع): في قول الله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ» قال: دعاء:

أقول: و روى في الكافي، عن زراره عن أبي جعفر(ع) مثله .

و فيه، عن أبي بصير عن أحدهما(ع) قال: إن إبراهيم جادل في قوم لوط و قال: إن فيها لوطا. قالوا: نحن أعلم بمن فيها- فزاده إبراهيم فقال جبرئيل:

يا إبراهيم أعرض عن هذا- أنه قد جاء أمر ربك- و إنهم آتيهم عذاب غير مردود.

و في الدر المنثور، أخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف و الابتداء عن حسان بن أبجر قال: "كنت عند ابن عباس فجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس:

ما فعل فلان؟ قال: مات و ترك أربعة من الولد و ثلاثة من الورا. فقال ابن عباس:

«فَبَشِّرْ نَاهَا يَا إِسْحَاقَ- وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ» قال: ولد الولد.

(كلام في قصه البشرى)

قصه البشرى و سماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم(ع) وقعت في خمس من السور القرآنيه كلها مكيه و هى على ترتيب القرآن سوره هود و الحجر و العنكبوت و الصافات و الذاريات.

فالأولى ما فى سوره هود ٦٩-٧٦ قوله تعالى: «و لقد جاءت رسلنا إبراهيم

بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفه قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط.

و امرأته قائمه فضحكت فبشرناها بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب. قالت يا ويلتى أ ألد و أنا عجوز و هذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب. قالوا أ تعجبين من أمر الله رحمه الله و بركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فلما ذهب عن إبراهيم الروع و جاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا أنه قد جاء أمر ربك و إنهم آتيهم عذاب غير مردود.

و الثانيه ما فى سورة الحجر: ٥١-٦٠ قوله تعالى: «و نبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم و جلون.

قالوا لا- توجل إنا نبشرك بغلام عليم. قال أ بشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال و من يقنط من رحمه ربه إلا الضالون. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين».

و الثالثه ما فى سورة العنكبوت: ٣١-٣٢ قوله تعالى: «و لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين.

قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين».

و الرابعه ما فى سورة الصافات: ٩٩-١١٣ قوله تعالى: «و قال إنى ذاهب إلى ربي سيهدين. رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما و تله للجبين. و نادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين.

و فديناه بذبح عظيم. و تركنا عليه فى الآخريين. سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. و بشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. و باركنا عليه و على إسحاق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه ميين».

و الخامسة ما فى سورة الذاريات ٢٤-٣٠ قوله تعالى: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال أ لا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف و بشروه بسلام عليم فأقبلت امرأته فى صره فصكت وجهها و قالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم».

و يقع البحث فى قصة البشرى من وجوه:

أحدها: أنها هل هى بشرى واحده و هى المشتملة على بشرى إبراهيم و ساره بإسحاق و يعقوب و قد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو أنها قصتان: إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل و الأخرى تتضمن البشرى بإسحاق و يعقوب.

ربما رجح الثانى بناء على أن ما وقع من القصة فى سورة الذاريات صريح فى تقديم العجل المشوى، و أن إبراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه و امرأته العجوز العقيم و هى ساره أم إسحاق قطعاً، و ذيل الآيات ظاهر فى كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة: **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ - إِلَى أَنْ قَالُوا - فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** «الآيات و نظير ذلك ما فى سورة هود و قد قال فيها الملائكة لإزاله الروح عن إبراهيم ابتداء: **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ .**

و أما ما فى سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوى بل ظاهره أن إبراهيم و أهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشاره كما يقول تعالى:

« **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ** » و ذيل الآيات ظاهر فى كون ذلك قبل هلاك لوط.

و نظيره ما فى سورة العنكبوت من القصة و هى أظهر فى كون ذلك قبل الهلاك و يتضمن جدال إبراهيم فى قوم لوط، و قد تقدمت فى البحث الرواى السابق حديث العياشى فى هذا المعنى.

لكن الحق أن الآيات فى جميع السور الأربع سورة هود و الحجر و العنكبوت و الذاريات إنما تقص قصة البشاره بإسحاق و يعقوب دون إسماعيل.

و أما ما فى ذيل آيات الذاريات من قوله: «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا الظاهر فى الماضى و الفراغ عن الأمر فنظيره واقع فى آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ.

على أن قول الملائكة المرسلين و هم بعد فى الطريق: «إِنَّا أُرْسِلْنَا» لا مانع منه بحسب اللغة و العرف.

و أما قوله: «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» إلى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى و ليس من تتمه كلام الملائكة لإبراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة فى سورة الذاريات.

و أما ذكر الوجع فى آيات الحجر فى أول القصة بخلاف سورتي الذاريات و هود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوى فى آيات الحجر بخلافهما، على أن الارتباط التام بين أجزاء قصه مما يجوز أن يقدم بعضها على بعض حيناً و يعكس الأمر حيناً آخر كما أنه تعالى يذكر إنكار إبراهيم فى آيات الذاريات فى صدر القصة بعد سلامهم و فى سورة هود فى وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل، و هذا كثير الورد فى نظم القرآن.

على أن آيات هود صريحه فى البشرى بإسحاق و يعقوب و هى تتضمن جدال إبراهيم فى قوم لوط فى سياق لا يشك معه أنه كان قبل هلاك لوط، و لازمه كون بشرى إسحاق قبله لا بعده.

على أن من المتفق عليه أن إسماعيل كان أكبر سناً من إسحاق و بين ولادتهما سنون، و لو كانت هؤلاء الملائكة بشروا إبراهيم بإسماعيل فى مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك و بشروه بإسحاق فى منصرفهم عن هلاكهم بعيده كان الفصل بين البشريين يوماً أو يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق و بين ولادته سنون من الزمان و البشرى لا تطلق إلا على الإخبار بالجميل إذا كان مشرفاً على الوقوع إلا إذا كانت هناك عناية خاصة و أما الإخبار بمطلق الجميل فهو وعد و نحو ذلك.

و ثانيها أنه هل هناك بشرى بإسماعيل؟ و الحق أن ما ذكرت من البشرى فى صدر آيات الصافات إنما هى بشرى بإسماعيل و هى غير ما ذكرت فى ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحاً فإن سياق الآيات فى ذيل قوله: «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ»

ثم استئناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً: « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » لا يدع ريباً لمرتاب أن الغلام الحليم الذى بشر به أولاً غير إسحاق الذى بشر به ثانياً، وليس إلا إسماعيل.

و ذكر الطبرى فى تاريخه أن المراد بالبشارة الأولى فى هذه السوره أيضا البشارة بإسحاق قياسا على ذكر من البشارة فى سائر السور، وهو كما ترى. وقد تقدم كلام فى هذا المعنى فى قصص إبراهيم(ع) فى الجزء السابع من الكتاب.

و ثالثها: البحث فى القصة من جهة تطبيق ما فى التوراه الحاضره منها على ما استفيد من القرآن الكريم، و سيوافيك ذلك عند الكلام على قصه لوط(ع) فى ذيل الآيات التاليه.

و رابعها: البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكه و قد وقع فيها مثل قوله:

« يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » و قوله: « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ».

و قد تقدم أن سياق الآيات و خاصه قوله: « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ » لا يدل إلا على نعته بالجميل فلم يكن جداله إلا حرصاً منه فى نجاه عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى صراط الإيمان.

[سوره هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

إشارة

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَبِحَ إِلَيْكَ فَاسِيرٌ بَأْهْلِكَ بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

الآيات تذكر عذاب قوم لوط، وهي من وجه تتمه الآيات السابقة التي قصت نزول الملائكة و دخولهم على إبراهيم(ع) و تبشيريه بإسحاق فإنما كانت كالتوطئه لقصه عذاب قوم لوط.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصَيْبٌ» يقال: ساءه الأمر مساءه أى أوقع عليه السوء، و ساء بالأمر بالبناء للمجهول أى أوقع عليه من ناحيته و بسببه.

و الذرع مقاييسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها، و يطلق على نفس المقياس أيضا، و يقال: ضاق بالأمر ذرعا و هو كناية عن انسداد طريق الحيله و العجز عن الاهتداء إلى مخلص ينجو به الإنسان من النائبة كالذى يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه.

و العصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشد و اليوم العصيب هو اليوم الذى شد بالبلاء شدا لا يقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ينفك عن بعض.

و المعنى لما جاءت رسلنا لوطا و هم الملائكة النازلون بإبراهيم(ع) ساء مجيئهم لوطا، و عجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه فى صور غلمان

مرد صبيحي المنظر و كان قومه ذوى حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا عنهم و يتركوهم على حالهم، و لذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال: «هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» أى شديد ملتف بعض شره ببعض.

قوله تعالى: «وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» قال الراغب: يقال: هرع و أهرع ساقه سوقا بعنف و تخويف، انتهى. و عن كتاب العين، الإهراع السوق الحثيث، انتهى.

و قوله: «وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» أى و من قبل ذلك كانوا يفترون المعاصى و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف، و لا يحجبهم عن ذلك استحياء أو استئناس، و لا ينزجرون بموعظه أو ملامه أو مذمه لأن العاده تسهل كل صعب و تزين كل قبيح و وقبح.

و الجمله كالمعترضه بين قوله: «وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» و قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي» إلخ، و هى نافعه فى مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذى كان يهرعهم و يسوقهم إلى لوط (ع) هو أنهم كانوا يعملون السيئات و صاروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلك إلى المجيء إليه و قصد السوء بأضيافه.

و أما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكه و استقرار العاده سلبوا سماع القبول و أن يزجرهم زاجر من عظه أو نصيحه، و لذلك بدأ لوط فى تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» إلخ.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ» إلى آخر الآيه، لما رأهم تجمعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظه أو أغلاظ فى الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجحه لهم بأنهن أطهر لهم.

و إنما المراد بصيغه التفضيل -أطهر- مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب بقذاره، و المراد هى طهاره محضا، و هو استعمال شائع، قال تعالى: «مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ»: الجمعة: -١١، و قال «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ»: النساء: -١٢٨. و تفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

و تقييد قوله: «هُؤُلَاءِ بَنَاتِي» بقوله: «هُنَّ أَطَهَّرُ لَكُمْ» شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسهن عن نكاح لا عن سفاح و حاشا مقام نبي الله عن ذلك، و ذلك لأن السفاح لا طهاره فيه أصلا و قد قال تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَّ سَاءَ سَبِيلًا:» إسرائ: ٣٢، و قال: «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَّ مَا بَطَّنَ:» الأنعام: ١٥١، و قد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامه المشرعه في جميع الشرائع الإلهيه النازله على أنبيائه.

و من هنا يظهر فساد قول من يقول: إنه عرض عليهم بناته من غير تقييده بنكاح. و لست أدري ما معنى علاج فحشاء بفحشاء غيرها؟ و ما معنى قوله حينئذ:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ»؟ و لو كان يريد دفع الفضيحه و العار عن نفسه فقط لاكتفى بقوله:

«وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي».

و ربما قيل: إن المراد بقوله: «هُؤُلَاءِ بَنَاتِي» الإشارة إلى نساء القوم لأن النبي أبو أمته فساؤهم بناته كما أن رجالهم بنوه، يريد أن قصد الإناث و هو سبيل فطري خير لكم و أظهر من قصد الذكور من طريق الفحشاء.

و هو تحكم لا دليل عليه من جهه اللفظ البتة، و أما كونهم كفارا و بناته مسلمات و لا يجوز إنكاح المسلمه من الكافر فليس من المعلوم أن ذلك من شريعه إبراهيم حتى يتبعه لوط(ع) فمن الجائز أن يكون تزويج المؤمنه بالكافر جائزا في شرعه كما أنه كان جائزا في صدر الإسلام، و قد زوج النبي ص بنته من أبي العاص بن الربيع و هو كافر قبل الهجره ثم نسخ ذلك.

على أن قولهم في جوابه: «لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ» لا يلائم كون المراد بالبنات في كلامه إنما هي نساؤهم لا بناته من صلبه فإنهم ما كانوا مؤمنين به حتى يعترفوا بكون نساؤهم بناته إلا أن يكون المراد التهكم و لا قرينه عليه.

لا يقال تعبيره(ع) بالبنات و ليس له عندئذ إلا بنتان يدل على أن مراده بناته من نساء أمته لا بنتاه غير الصادق عليه لفظ الجمع.

لأننا نقول: لا دليل على ذلك من كلامه تعالى و لا وقع ذلك في نقل يعتمد عليه، نعم وقع في التوراه الحاضره أنه كان للوط بنتان فقط. و لا اعتماد على ما تتضمنه.

وقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» بيان للمطلوب، وقوله: «وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي» عطف تفسيري لقوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ» فإنه (ع) إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه و عصبه جاهليه منه، و لم يكن عنده فرق بين ضيفه و غيرهم فيما كان يردعهم، و قد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع و ألح على ذلك سنين متتاديه.

و إنما علق الردع على معنى الضيافه و إضافه الضيف إلى نفسه و ذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفه الفتوه و الكرامه فيهم و لذلك عقب ذلك بالاستغاثه و الاستنصار بقوله: «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» لعله يجد فيهم ذا رشد إنسانى فينتصر له و ينجيه و ضيوفه من أيدى أولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» الحجر: ٧٢ و لم يؤثر ذلك فيهم أثرا و لم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أياسوه به من أى إلحاح فى ذلك.

قوله تعالى: «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ» هذا جواب القوم عما دعاهم إليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفى أن يكون لهم فى بناته من حق و أنه يعلم ذلك و يعلم ما هو بغيتهم فى هذا الهجوم و ما ذا يريدون.

و قد قيل فى معنى نفيمهم الحق: إن معناه ما لنا فى بناتك من حاجه و ما ليس للإنسان فيه حاجه فكأنه لا حق له فيه ففى الكلام نوع استعاره.

و قيل: إن المراد ليس لنا فى بناتك من حق لأننا لا نتزوجهن و من لم يتزوج بامرأه فلا حق له فيها فالمراد بنفى الحق نفى سببه و هو الازدواج.

و قيل: المراد بالحق هو الحظ و النصيب دون الحق الشرعى أو العرفى أى لا رغبه لنا فيهن لأنهن نساء و لا ميل لنا إليهن.

و الذى يجب الالتفات إليه أنهم لم يقولوا: ما لنا فى بناتك من حق بل قالوا:

«لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ» فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك و بين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكروه بما كان يعلم من السنه القوميه الجاربه بينهم، و هو المنع من التعرض لنساء الناس و خاصه بالقهر و الغلبه أو ترك إتيان النساء بالمره و استباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم، و قد كان لوط يردعهم عن سنتهم ذلك إذ يقول لهم: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ» الأعراف: ٨١

«أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ:» شعراء- ٦٥ «أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ:» العنكبوت- ٢٩، ولا شك أن السنه القوميه الجاريه على فعل شىء يثبت حقا فيه،و الجاريه على تركه ينفى الحق.

و بالجمله هم يلفتون نظره(ع)إلى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنه القوميه و ما يعلم من إرادتهم فى الهجوم على داره هذا و لعل هذا أحسن الوجوه،و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالى:« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »يقال:

أوى إلى كذا يأوى أويا و مأوى أى انضم إليه،و آواه إليه يؤويه إيواء أى ضمه إليه.و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر أنه لما وعظهم لوط(ع)بالأمر بتقوى الله و تهيبج فتوتهم فى حفظ موقعه و رعايه حرمةه فى عدم التعرض لضيغه بما يجلب إليه العار و الخزى،و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولى الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أياسوه بقولهم:« لَقَدْ عَلِمْتُمُ اللَّئِمَاتُ فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مِمَّا نُرِيدُ »لم يبق له إلا- أن يظهر ما به من البث و الحزن فى صورته التمنى فتمنى أن يكون له منهم قوه يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين- و هو الرجل الرشيد الذى كان يسأل عنه فى استغاثته-أو يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم إليهم فيدفعهم بهم.

فقوله:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً » أى ليت لى قدره بسبيكم بانضمام رجل منكم رشيد إلى يقوم بنصرتى فأدفعكم به،و قوله:« أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ »أى أو كنت أنضم إلى ركن شديد أى عشيره منيعه يمنعكم منى هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

و قيل:إن معنى قوله:« لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »أتمنى أن يكون لى منعه و قدره و جماعه أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافى.و فيه أن فيه تبديل قوله:« بِكُمْ » إلى قولنا:بهم عليكم.و هو كما ترى.

و قيل:إن معنى « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً »لو قويت عليكم بنفسى.و فيه أنه أبعد

من لفظ الآية.

وقيل: إن الخطاب في الآية للأضياف دون القوم، ومعنى الآية أنه قال لأضيافه: أتمنى أن يكون لى بسببكم قوه ألقاهم بها. وفيه أن الانتقال من خطاب القوم إلى خطاب الأضياف ولا دليل من اللفظ ظاهرا يدل عليه إبهام و تعقيد من غير موجب، وكلامه تعالى أجل من ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِيَّبَكَ﴾ إلى آخر الآية عدم وصولهم إليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون، والمعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط: إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة و عرفوه أنهم مرسلون من عند الله، و طيخوا نفسه أن القوم لن يصلوا إليه و لن يقدرُوا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ القمر: -٣٧، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر و ازدحموا على بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ الإسراء و السرى بالضم السير بالليل فيكون قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ نوع توضيح له، و الباء للمصاحبه أو بمعنى فى. و القطع من الشىء طائفه منه و بعضه، و الالتفات افتعال من اللفت، قال الراغب: يقال: لفته عن كذا صرفه عنه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَاهُ﴾ أى تصرفنا، و منه التفت فلان إذا عدل عن قبله بوجهه، و امرأه لفوت تلفت من زوجها إلى ولدها من غيره. انتهى.

و القول دستور من الملائكة للوط (ع) إرشادا له إلى النجاه من العذاب النازل بالقوم صبيحه ليلتهم هاتيك، و فيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾.

و المعنى أنا مرسلون لعذاب القوم و هلاكهم فانج أنت بنفسك و أهلك و سيروا أنت و أهلك بقطع من هذا الليل و أخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحه ليلتهم هذه، و لا كثير وقت بينك و بين الصبح و لا ينظر أحدكم إلى وراء.

و ما ذكره بعضهم أن المراد بالالتفات الالتفات إلى مال أو متاع فى المدينة يأخذه معه أو الالتفات بمعنى التخلف عن السرى مما لا يلتفت إليه.

وقوله: «إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصَيَّبٌ بِمَا أَصَابَهُمْ» ظاهر السياق أنه استثناء من قوله: «بِأَهْلِكَ» لا من قوله: «أَحَدٌ» و في قوله: «إِنَّهُ مُصَيَّبٌ بِمَا أَصَابَهُمْ» بيان السبب لاستثنائها، وقال تعالى في غير هذا الموضع: «إِلَّا أَمْرًا تَكُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَائِبِينَ»: الحجر: -٦٠.

وقوله: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أى موعد هلاكهم الصبح و هو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق، كما قال تعالى في موضع آخر:

«فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ»: الحجر: -٧٣.

و الجملة الأولى تعليل لقوله: «فَأَسِيرَ بِأَهْلِكَ بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ» و فيه نوع استعجال كما تقدم، و يؤكد قوله: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» و من الجائز أن يكون لوط (ع) يستعجلهم فى عذاب القوم فيجيبوه بقولهم: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أى إن من المقدر أن يهلكوا بالصبح و ليس موعدا بعيدا أو يكون الجملة الأولى استعجالا من الملائكة، و الثانية تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون إليه، و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: «فَأَسِيرَ بِأَهْلِكَ بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَذْوَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ»: الحجر: -٦٥، و ظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد و أحوال ذلك إلى ما سيأتيه من الدلالة بالوحى الإلهى.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ» ضمائر التأنيث الثلاث راجعه إلى أرض القوم أو القرية أو بلادهم المعلومه من السياق، و السجيل على ما فى المجمع، بمعنى السجين و هو النار، و قال الراغب: السجين حجر و طين مختلط، و أصله فيما قيل فارسى معرب، انتهى. يشير إلى ما قيل إن أصله سنك كل، و قيل: إنه مأخوذ من السجل بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك، و قيل: مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرب المفيد معنى الحجر و الطين، و السجل بمعنى الكتاب أيضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسع فسمى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس،

و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب، و التسويم جعل الشيء ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى: و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعدابهم و هو كلمه « كُنْ » التى أشار إليها فى قوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ-كُنْ»: يس:-٨٣، جعلنا على أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجيل منضود معلمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و ذكر بعضهم أن القلب وقع على بلادهم و الإمطار بالسجيل عذب به الغائبون منهم. و قيل: إن القرية هى التى أمطرت حين رفعها جبرئيل ليخسفها. و قيل:

إنما أمطرت عليهم الحجاره بعد ما قلبت قريتهم تغليظا فى العقوبه. و الأقوال جميعا من التحكم من غير دليل من اللفظ.

و فى قوله تعالى فى غير هذا الموضع: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ»: الحجر:-٧٣، فقد كان هناك قلب و صيحه و إمطار بالحجاره و من الممكن أن يكون ذلك بحدوث بركان من البراكين بالقرب من بلادهم و تحدث به زلزه فى أرضهم و انفجار أرضى بصيحه توجب قلب مدنهم، و يمطر البركان عليهم من قطعات الحجاره التى يثيرها و يرميها، و الله أعلم.

قوله تعالى: «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» قيل المراد بالظالمين ظالمو أهل مكه أو المشركون من قوم النبى ص و الكلام مسوق للتهديد، و المعنى و ليست هذه الحجاره من ظالمى مكه ببعيد أو المعنى: ليست هذه القرى المخسوفه من ظالمى قومك ببعيد فإنه فى طريقهم بين مكه و الشام، كما قال تعالى فى موضع آخر:

«وَإِنَّهَا لِبَسِيبٍ مُّقِيمٍ»: الحجر:-٧٦، و قال: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ»: الصافات:-١٣٨.

و يؤيده العدول من سياق التكلم إلى الغيبه فى قوله: «مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ» فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا: مسومه عندنا إلى هذا التعبير ليتعرض لقومه (ص) بالتهديد أو بإنهاء الحديث إلى حسهم ليكون أقوى تأثيرا فى الحجاج عليهم.

و ربما احتمال أن المراد تهديد مطلق الظالمين و المراد أنه ليست الحجارة أى أمطارها من عند الله من معشر الظالمين و منهم قوم لوط الظالمون يبعيد، و يكون وجه الالتفات فى قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» أيضا التعريض لقوم النبى الظالمين المشركين.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن زكريا بن محمد [عن أبيه] عن عمرو عن أبى جعفر (ع) قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله - فطلبهم إبليس الطلب الشديد، و كان من فضلهم و خيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل - خرجوا بأجمعهم و تبقى النساء خلفهم - فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا - خرب إبليس ما يعملون -.

فقالوا بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذى يخرب متاعنا - فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان - فقالوا له: أنت الذى تخرب متاعنا مره بعد أخرى، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيتوه عند رجل - فلما كان الليل صاح له فقال له: ما لك؟ فقال فإن أبى ينومنى على بطنه فقال له: تعال فتم على بطنى -.

قال: فلم يزل يدلك الرجل - حتى علمه أن يفعل بنفسه فأولا علمه إبليس - و الثانى علمه هو ثم انسل يفر منهم، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام - و يعجبهم منه و هم لا يعرفونه - فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض - ثم جعلوا يرصدون ماره الطريق فيفعلون بهم - حتى تنكب مدينتهم الناس ثم تركوا نسائهم - و أقبلوا على الغلمان -.

فلما رأى أنه قد أحكم أمره فى الرجال جاء إلى النساء - فصير نفسه امرأه فقال لهن: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض؟ قلن: نعم رأينا ذلك و كل ذلك يعظهم لوط و يوصيهم - و إبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء -.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله - جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل فى زى غلمان - عليهم أقبية فمروا بلوط و هو يحترث. قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط. فقالوا: إنا رسل سيدنا إلى رب هذه البلده. قال: أ و لم يبلغ سيدكم ما يفعل

أهل هذه القرية؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم. قالوا:

أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. قال: فلي إليكم حاجه. قالوا: وما هي؟ قال:

تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام.-

قال: فجلسوا. قال: فبعث ابنته. قال: فجيئى لهم بخبز و جيئى لهم بماء فى القرعه-و جيئى لهم بعباء يتغطون بها من البرد-فلما أن ذهبت الابنه أقبل المطر و الوادى فقال لوط:الساعة تذهب بالصبيان الوادى قال: قوموا حتى نمضى، و جعل لوط يمشى فى أصل الحائط، و جعل جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل يمشون وسط الطريق. قال: يا بنى امشوا هاهنا فقالوا-أمرنا سيدنا أن نمر فى وسطها و كان لوط يستغنى الظلام.-

و مر إبليس فأخذ من حجر امرأه صبيا فطرحة فى البئر-فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط-فلما أن نظروا إلى الغلمان فى منزل لوط قالوا:يا لوط قد دخلت فى عملنا؟ فقال:هؤلاء ضيفى-فلا تفضحون فى ضيفى. قالوا:هم ثلاثة خذ واحدا و أعطنا اثنين. قال:و أدخلهم الحجره و قال:لو أن لى أهل بيت تمنعونى منكم.-

قال:و تدافعوا على الباب-و كسروا باب لوط و طرحوا لوطا-فقال له جبرئيل:إنا رسل ربك لن يصلوا إليك-فأخذ كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم و قال:شاهت الوجوه فعمى أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط:يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا:أمرنا أن نأخذهم بالسحر. قال:فلى إليكم حاجه. قالوا:

و ما حاجتك؟ قال:تأخذوهم الساعة فإنى أخاف أن يبدو لربى فيهم. فقالوا:

يا لوط إن موعدهم الصبح أ ليس الصبح بقريب-لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك و امض و دع امرأتك.-

فقال أبو جعفر(ع):رحم الله لوطا-لو علم من معه فى الحجره لعلم أنه منصور حيث يقول:«لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»أى ركن أشد من جبرئيل معه فى الحجره؟ فقال عز و جل لمحمد ص:«وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ»من ظالمى أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط، و قال رسول الله ص:من ألح فى وطى الرجال لم يمت-حتى يدعو الرجال إلى نفسه.

أقول: و الروايه لا- تخلو من تشويش ما فى اللفظ، و قد ذكر فيها الملائكه المرسلون ثلاثه، و فى بعض الروايات- كالروايه المذكوره فى الباب السابق عن أبى يزيد الحمار عن أبى عبد الله (ع)- أنهم كانوا أربعة بزياده كرويل، و فى بعض الروايات من طرق أهل السنه أنهم كانوا ثلاثه و هم جبرئيل و ميكائيل و رفايل، و الظاهر من الروايه أنها تأخذ قول لوط: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً إِنْخَ خطاباً منه للملائكه لا للقوم، و قد تقدمت الإشاره إليه فى بيان الآيات.

و قوله (ع): رحم الله لوطاً لو علم «إِنْخ» فى معنى قول النبى ص- على ما روى عنه- رحم الله لوطاً إن كان ليأوى إلى ركن شديد.

و قوله (ع): فقال عز و جل لمحمد ص إِنْخ إشاره إلى ما تقدم من احتمال كون الآيه، مسوقاً لتهديد قريش.

و فى تفسير القمى، بإسناده عن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع): فى قوله:

« وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ » قال: ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط- إلا رماه الله جندله من تلك الحجارة تكون منيته فيه- و لكن الخلق لا يرونه.

أقول:

و روى فى الكافى، بإسناده عن ميمون البان عنه (ع) مثله. و فيه:

من بات مصراً على اللواط لم يمت- حتى يرميه الله بحجاره تكون فيه منيته- و لا يراه أحد، و فى الحديثين إشعار بكون قوله: « وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » غير خاص بقريش، و إشعار بكون العذاب المذكور روحانياً غير مادي.

و فى الكافى، بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبى عبد الله (ع): فى قول لوط:

« هُوَ لِأَبْنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » قال: عرض عليهم التزويج.

و فى التهذيب عن الرضا (ع): عن إتيان الرجل المرأه من خلفها فقال:

أحلتها آيه من كتاب الله عز و جل: قول لوط: « هُوَ لِأَبْنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » قد علم أنهم لا يريدون الفرج.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ عن على رضى الله عنه أنه خطب فقال:

عشيره الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته- إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحده، و كفوا عنه أيدي كثيره مع مودتهم و حفاظتهم و نصرتهم- حتى لربما غضب

الرجل للرجل و ما يعرفه إلا بحسبه -و سأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ».

قال على رضى الله عنه: و الركن الشديد العشيره - فلم يكن للوط عشيره - فوالذى لا إله غيره ما بعث الله نبيا بعد لوط - إلا فى ثروه من قومه.

أقول: و آخر الروايه مروى من طرق أهل السنه و الشيعة.

و فى الكافى، فى حديث أبى يزيد الحمار عن أبى جعفر (ع) المنقول فى البحث الروائى السابق - قال: فأتوا يعنى الملائكه لوطا و هو فى زراعه قرب القرية - فسلموا عليه و هم معتمون فلما رأى هيئه حسنه - عليهم ثياب بيض و عمامه بيض قال لهم:

المنزل فقالوا: نعم فتقدمهم و مشوا خلفه - فنقدم على عرضه المنزل عليهم فقال: أى شىء صنعت؟ أتى بهم قومى و أنا أعرفهم؟ فقال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله.

قال جبرئيل: لا - نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات. فقال جبرئيل: هذه واحده فمشى ساعه ثم التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله فقال جبرئيل: هذه ثنتان. ثم مشى فلما بلغ باب المدينه التفت إليهم ثم قال: إنكم لتأتون شرارا من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه الثالثه - ثم دخل و دخلوا معه حتى دخل منزله -.

فلما رأتهم امرأته رأت هيئه حسنه فصعدت فوق السطح - فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان - أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب - فنزلت إليهم فقالت: عندنا قوم ما رأيت قط قوما أحسن منهم هيئه - فجاءوا إلى الباب ليدخلوا -.

فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم: يا قوم اتقوا الله و لا تخزون فى ضيفى - أليس منكم رجل رشيد؟ ثم قال: هؤلاء بناتى هن أظهر لكم فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا:

ما لنا فى بناتك من حق و إنك لتعلم ما نريد، فقال لهم: لو أن لى بكم قوه أو آوى إلى ركن شديد، فقال جبرئيل: لو يعلم أى قوه له -.

فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال: يا لوط دعهم يدخلون فلما دخلوا - أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم - و هو قول الله عز و جل:

« فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » ثم ناداه جبرئيل فقال له: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك - فأسر

بأهلك بقطع من الليل. وقال له جبرئيل: إنا بعثنا في إهلا-كهم فقال: يا جبرئيل عجل فقال: إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب-.

فأمره يتحمل و من معه إلا امرأته-ثم اقتلها يعنى المدينه جبرئيل بجناحه من سبع أرضين-ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نياح الكلاب-و صراخ الديوك ثم قلبها و أمطر عليها-و على من حول المدينه بحجاره من سجيل.

أقول:و ما اشتمل عليه آخر الروايه من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نياح كلابهم و صراخ ديوكهم أمر خارق للعاده،و هو و إن كان لا يستبعد من قدره الله سبحانه لكنه مما لا يكفى فى ثبوته أمثال هذه الروايه و هى من الآحاد.

على أن السنه الإلهيه جاريه على أن تفتنى فى الكرامات و المعجزات الحكمه و أى حكمه فى رفعهم إلى هذا الحد و لا أثر له فى عذابهم و لا فى تشديده؟ و قول بعض أهل الكلام:من الجائر أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعاده لطفاً من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقرباً للمؤمنين إلى الطاعه مبعداً لهم من المعصيه كلام مدخول فإن خلق الأمور العظيمه المعجبه و الحوادث الخارقه للعاده ليتأكد بها إيمان المؤمنين و يعتبر بها المعتبرون و إن كان لا يخلو من لطف إلا أنه إنما يكون لطفاً فيما كان بلوغه لهم من طريق الحس أو أى طريق علمى آخر،و أما روايه واحده أو ضعيفه و هى خاليه عن الحجيه لا يعبأ بها فلا- معنى لإيجاد الأمور الخارقه و الحوادث العجيبه لأجل حصول اعتبار أو مخافه من طريقها،و لا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا فى سنه الجهال من طغاه البشر و جابرتهم.

قال صاحب المنار فى تفسيره:و فى خرافات المفسرين المرويّه عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه و صعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب و الدجاج فيها ثم قلبها قلباً مستويّاً فجعل عاليها سافلها.

و هذا تصور مبنى على اعتقاد متصوره إن الأجرام السماويه المأهوله بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الأرض و ما فيها من الحيوان و يقون أحياء.و قد ثبت بالمشاهده و الاختبار الفعلى فى هذه الأيام التى يكتب هذا فيها أن الطيارات

و المناطيد التي تخلق في الجو تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء و يستحيل حياه الناس فيها،و هم يصنعون أنواعا منها يصنعون فيها من أكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه و تنفسه للحياه في طبقات الجو العليا و يصعدون فيها.

و قد أُشير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ».

فإن قيل: إن هذا الفعل المروى عن جبرئيل من الممكنات العقلية و كان وقوعه من خوارق العادات فلا يصح أن يجعل تصديقه موقوفا على ما عرف من سنن الكائنات.

قلت: نعم و لكن الشرط الأول لقبول الروايه في أمر جاء على غير السنن و النواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران و خراب أن تكون الروايه عن وحى إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا- شذوذ فيه و لا- عله على الأقل، و لم يذكر في كتاب الله تعالى، و لم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيه ص، و لا- تظهر حكمه الله فيه، و إنما روى عن بعض التابعين دون الصحابه. و لا شك أنه من الإسرائيليات.

و مما قالوه فيها: أن عدد أهلها كان أربعه آلاف ألف و بلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع؟ انتهى.

و الذي ذكره أن الحديث إنما روى عن التابعين دون الصحابه فإنه أن هذا المعنى مروى عن ابن عباس و عن الحذيفه بن اليمان،

ففي روايه ابن عباس- كما في الدر المنثور، عن إسحاق بن بشر و ابن عساكر من طريق جويبر و مقاتل عن الضحاك عنه-: «فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط- بما فيها من رجالها و نساءها و ثمارها و طيرها- فحوأها و طواها ثم قلعها من تخوم الثرى- ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلى السماء الدنيا- فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب و الطير- و النساء و الرجال من تحت جناح جبرئيل- ثم أرسلها منكوسه ثم أتبعها بالحجاره، و كانت الحجاره للرعاه و التجار- و من كان خارجا عن مدائنهم» الحديث.

و في روايه حذيفه بن اليمان- على ما في الدر المنثور، عن عبد الرزاق و ابن جرير

و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه-": «فاستأذن جبرئيل فى هلاكهم-فأذن له فاحتمل الأرض التى كانوا عليها، و أهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم- و أوقد تحتهم نارا ثم قلبها بهم-فسمعت امرأه لوط الوجبه و هى معهم-فالتفت فأصابها العذاب، و تبعت سفارهم الحجاره» الحديث.

و أما من التابعين فقد روى هذا المعنى عن سعيد بن جبير و مجاهد و أبى صالح و محمد بن كعب القرظى و عن السدى ما هو أغلظ من ذلك قال": «لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقطلع الأرض من سبع أرضين-فحملها حتى بلغ السماء الدنيا-ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض» الحديث.

و أما ما ذكره من أنه «يشترط فى قبول الروايه أن تكون منقوله بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه و لا-«فمسأله أصوليه، و الذى استقر عليه النظر اليوم فى المسأله أن الخبر إن كان متواترا أو محفوفًا بقرينه قطعيه فلا ريب فى حجيتها، و أما غير ذلك فلا- حجيه فيه إلا- الأخبار الوارده فى الأحكام الشرعيه الفرعيه إذا كان الخبر موثوق الصدور بالظن النوعى فإن لها حجيه.

و ذلك أن الحجيه الشرعيه من الاعتبارات العقلانيه فتتبع وجود أثر شرعى فى المورد يقبل الجعل و الاعتبار الشرعى و القضايا التاريخيه و الأمور الاعتقاديه لا معنى لجعل الحجيه فيها لعدم أثر شرعى و لا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علما و تعبيد الناس بذلك، و الموضوعات الخارجيه و إن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعى إلا أن آثارها جزئيه و الجعل الشرعى لا ينال إلا الكليات و ليطلب تفصيل القول فى المسأله من علم الأصول.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ص: رحم الله لوطا إن كان لياوى إلى ركن شديد.

أقول: مقتضى المقام الذى كان يجارى فيه لوط قومه و يأمرهم بتقوى الله و الاجتناب عن الفجور، و ظاهر سياق الآيات الحاكيه للمشاجره بينه و بين قومه أن لوطا إنما كان يتمنى أنصارا أولى رشد من بين قومه أو من غيرهم فقوله: «أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٍ شَدِيدٍ» يريد به أنصارا من غير القوم من عشيره أو أخلاء و أصدقاء فى الله

ينصرونه في الدفع عن أضيفه هذا و الركن الشديد معه في داره و هم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و لذلك لبوه من غير فصل و قالوا: يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ .

و لم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربه و أن كل النصر من عنده حتى ينسأه و يتمنى ناصراً غيره، و حاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم و قد قال الله تعالى في حقه: «آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا -X إلى أن قال X- وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ:» الأنبياء: -٧٥.

فقول النبي ص: «إن كان ليأوى إلى ركن شديد» معناه أن معه جبرئيل و سائر الملائكة و هو لا يعلم بذلك، و ليس معناه أن معه الله سبحانه و هو جاهل بمقام ربه.

فما في بعض الروايات الناقله للفظه رسول الله ص من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواه الحديث كما

عن أبي هريره قال: قال رسول الله ص: رحم الله لوطا- كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله تعالى. الحديث.

و كما عنه من طريق آخر قال: إن النبي ص قال: «يغفر الله للوط- إن كان ليأوى إلى ركن شديد» و لعل فيه نقلا بالمعنى و أن النبي ص قال: رحم الله لوطا فغيره الراوى إلى قوله: يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدبا من آداب العبوديه أو أذنب ذنبا بجهله مقام ربه و نسيانه ما لم يكن له أن ينسأه.

(كلام في قصة لوط و قومه في فصول)

١- قصته و قصة قومه في القرآن:

كان لوط (ع) من كلدان في أرض بابل و من السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم (ع) آمن به و قال: «إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي: العنكبوت- ٢٦ فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسه أرض فلسطين (الأنبياء: ٧١) فنزل في بعض بلادها (و هي مدينه سدوم على ما في التواريخ و التوراه و بعض الروايات).

و كان أهل المدينة و ما والاها من المدائن و قد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات (التوبه ٧٠) يعبدون الأصنام، و يأتون بالفاحشه: اللواط، و هم أول قوم شاع فيهم ذلك (الأعراف: ٨٠) حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار (العنكبوت: ٢٩) و لم يزل تشيع الفاحشه فيهم حتى عادت سنه قوميه ابتلت به عامتهم و تركوا النساء و قطعوا السبيل (العنكبوت: ٢٩).

فأرسل الله لوطا إليهم (الشعراء: ١٦٢) فدعاهم إلى تقوى الله و ترك الفحشاء و الرجوع إلى طريق الفطره و أنذرهم و خوفهم فلم يزداهم إلا عتوا و لم يكن جوابهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، و هددوه بالإخراج من بلدتهم و قالوا له: لئن لم تنته لتكونن من المخرجين (الشعراء: ١٦٧) و قالوا أخرجوا آل لوط من قريتك إنهم أناس يتطهرون (النمل: ٥٦).

٢- عاقبه أمرهم:

لم يزل لوط (ع) يدعوهم إلى سبيل الله و ملازمه سنه الفطره و ترك الفحشاء و هم يصرون على عمل الخبائث حتى استقر بهم الطغيان و حقت عليهم كلمه العذاب فبعث الله رسلا من الملائكه المكرمين لإهلاكهم فنزلوا أولا على إبراهيم (ع) و أخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجادلهم إبراهيم (ع) لعله يرد بذلك عنهم العذاب، و ذكرهم بأن فيهم لوطا فردوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط و أهله، و أنه قد جاء أمر الله و أن القوم آتيهم عذاب غير مردود (العنكبوت:

٣٢- هود: ٧٦).

فمضوا إلى لوط في صور غلمان مرد و دخلوا عليه ضيفا فشق ذلك على لوط و ضاق بهم ذرعا لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرضون لهم و أنهم غير تاركين البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك و أقبلوا يهرعون إليه و هم يستبشرون و هجموا على داره فخرج إليهم و بالغ في وعظهم و استثاره فتوتهم و رشدهم حتى عرض عليهم بناته و قال: يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ثُمَّ اسْتَغَاثَ وَقَالَ: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربه و أنهم غير تاركين أضيافه البتة حتى أيس لوط و قال: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (هود: ٨٠).

ص: ٣٥٣

قالت الملائكة عند ذلك يا لوط: إنا رسل ربك طب نفسا إن القوم لن يصلوا إليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عميانا يتخبطون و تفرقوا(القمر:٣٧).

ثم أمروا لوط(ع) أن يسرى بأهله من ليلته بقطع من الليل و يتبع أدبارهم و لا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبتها ما أصابهم، و أخبروه أنهم سيهلكون القوم مصبحين(هود:٨١-الحجر:٤٤).

فأخذت الصيحة القوم مشرقين، و أرسل الله عليهم حجاره من طين مسومه عند ربك للمسرفين، و قلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها و أخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين و هو بيت لوط و ترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم(الذاريات:٣٧-و غيرها).

و فى اختصاص الإيمان و الإسلام بيت لوط(ع)، و شمول العذاب لمدائنهم دلالة-أولا-على أن القوم كانوا كفارا غير مؤمنين و- ثانيا-على أن الفحشاء ما كانت شائعه فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك و النساء بريئات منها و كان لوط يدعو الناس إلى الرجوع إلى سبيل الفطره و سنه الخلقه التى هى مواصله الرجال و النساء لا تبعته عده من النساء و اجتمعن حوله و آمن به طبعاً، و لم يذكر من ذلك شىء فى كلامه سبحانه.

و فى ذلك تصديق ما تقدم فى الأخبار المأثوره أن الفحشاء شاعت بينهم، و اكتفى الرجال بالرجال باللواط، و النساء بالنساء بالسحق.

٣- شخصيه لوط المعنويه:

كان(ع)رسولا من الله إلى أهل المؤتفكات و هى مدينه سدوم و ما والاها من المدائن-و يقال: كانت أربع مدائن:سدوم و عموره و صوغر و صوبييم و قد أشركه فى جميع المقامات الروحيه التى وصف بها أنبياءه الكرام.

و مما وصفه به خاصه ما فى قوله: «و لوطاً آتيناَهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ:» الأنبياء:٧٥.

٤- لوط و قومه فى التوراه:

ذكرت (١)التوراه أن لوطا كان ابن أخى

ص: ٣٥٤

أبرام-إبراهيم-هاران بن تارخ و كان هو و أبرام فى بيت تارخ فى أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصدا أرض الكنعانيين فأقام بلده حاران و معه أبرام و لوط و مات هناك.

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران و معه لوط و لهما مال كثير و غلمان اكتسبا ذلك فى حاران فأتى أرض كنعان، و كان يرتحل أبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب، ثم أتى مصر، ثم صعد من هناك جنوبا نحو بيت إيل فأقام هناك.

و لوط السائر مع أبرام أيضا كان له غنم و بقر و خيام و لم يحتملها الأرض أن يسكنها و وقعت مخاصمه بين رعاها مواشيها فتفرقا فأخذرا من وقوع النزاع و التشاجر فاختار لوط دائره الأردن و سكن فى مدن الدائرة و نقل خيامه إلى سدوم، و كان أهل سدوم أشرارا و خطاه لدى الرب جدا، و نقل أبرام خيامه و أقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون.

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم و عموره و أدمه و صوبيم، و صوغر من جانب و أربعة من جيرانهم من جانب، انهزم فيها ملك سدوم و من معه من الملوك، و أخذ العدو جميع أملاك سدوم و عموره و جميع أطمعتهم، و أسر لوط فيمن أسر و سبى جميع أمواله، و انتهى الخبر إلى أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان، و كانوا يزيدون على ثلاث مائه فحاربهم و هزمهم، و أنجى لوطا و جميع أمواله من الأسر و السبى، و رده إلى مكانه الذى كان مقيما (فيه ملخص ما فى التوراه من صدر قصه لوط).

قالت التوراه (1) و ظهر له -لأبرام- الرب عند بلوطات ممرا و هو جالس فى باب الخيمه وقت حر النهار. فرفع عينيه و نظر و إذا ثلاثه رجال واقفون لديه.

فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمه و سجد إلى الأرض. و قال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمه فى عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء و اغسلوا أرجلكم و اتكئوا تحت هذه الشجره. فأخذ كسره خبز فتسندون قلوبكم ثم

ص: ٣٥٥

(١-١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين.

تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا: هكذا نفعنا كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى ساره وقال: أسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميدا اعجنى و اصنعى خبز مله، ثم ركض إبراهيم إلى البقر و أخذ عجلا رخصا و جيدا و أعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبدا و لبنا و العجل الذى عمله و وضعها قدامهم.

و إذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجره أكلوا.

و قالوا له: أين ساره امرأتك، فقال: ها هى فى الخيمه، فقال: إنى أرجع إليك نحو زمان الحياه و يكون لساره امرأتك ابن. و كانت ساره سامعه فى باب الخيمه و هو وراءه. و كان إبراهيم و ساره شيخين متقدمين فى الأيام. و قد انقطع أن يكون لساره عاده كالنساء. فضحكت ساره فى باطنها قائله: أ بعد فنائى يكون لى تنعم و سيدى قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لما ذا ضحكت ساره قائله:

أ فبالحقيقه ألد و أنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شىء؟ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياه و يكون لساره ابن، فأنكرت ساره قائله: لم أضحك، لأنها خافت.

فقال: لا بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك و تطلعوا نحو سدوم، و كان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم. فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟ و إبراهيم يكون أمه كبيره و قويه و يتبارك به جميع أمم الأرض. لأنى عرفته لكى يوصى بنيه و بيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برا و عدلا لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به.

فقال الرب: إن صراخ سدوم و عموره قد كثر و خطيئتهم قد عظمت جدا.

أنزل و أرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلى و إلا فأعلم. و انصرف الرجال من هناك و ذهبوا نحو سدوم. و أما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب.

فتقدم إبراهيم و قال: أ فتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينه. أ فتهلك المكان و لا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فىكون البار كالأثيم، حاشاك.

أ ديان كل الأرض لا يصنع عدلا؟ فقال الرب: إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فى المدينه فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم.

فأجاب إبراهيم و قال: إنى قد شرعت أكلم المولى و أنا تراب و رماد ربما نقص

الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال الرب: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة و أربعين. فعاد يكلمه أيضا و قال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال:

لا- أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا- يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال: لا- أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إنى قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال: لا أهلك من أجل العشرين.

فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المره فقط عسى أن يوجد هناك عشره، فقال: لا أهلك من أجل العشره. و ذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم و رجع إبراهيم إلى مكانه.

فجاء (١) الملائه كان إلى سدوم مساء و كان لوط جالسا في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما و سجد بوجهه إلى الأرض. و قال: يا سيدى ميلا إلى بيت عبدكما و بيتا و اغسلا أرجلكما ثم تبران و تذهبان فى طريقكما، فقالا: لا بل فى الساحه نبيت، فألح عليهما جدا، فما لا إليه و دخلا بيته، فصنع لهما ضيافه و خبزا فطيرا فأكلا.

و قبل ما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينه رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها فنادوا لوطا و قالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليله؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب و أغلق الباب وراءه. و قال:

لا- تفعلوا شرا يا إخوتى. هو ذا لى ابتان لم يعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن فى عيونكم. و أما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئا لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفى.

فقالوا: ابعدا إلى هناك. ثم قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرب و هو يحكم حكما. الآن نفعل بك شرا أكثر منهما. فألحوا على الرجل لوط جدا و تقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما و أدخلوا لوطا إليهما إلى البيت و أغلقا الباب و أما الرجلان الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

ص: ٣٥٧

و قال الرجلان للوط: من لك أيضا هاهنا أصهارك و بنوك و بناتك و كل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكهم. فخرج لوط و كلم أصهاره الآخذين بناته و قال: قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة، فكان كما زح في أعين أصهاره.

و لما طلع الفجر كان الملاً كان يعجلان لوطا قائلين: قم خذ امرأتك و ابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. و لما توانى أمسك الرجلان بيده و بيد امرأته و بيد ابنتيه لشفقه الرب عليه و أخرجاه وضعاه خارج المدينة.

و كان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: اهرب لحياتك. لا- تنظر إلى ورائك و لا تقف في كل الدوائر. اهرب إلى الجبل لئلا تهلك فقال لهما لوط: لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمه في عينيك و عظمت لطفك الذي صنعت إلى باستبقاء نفسى. و أنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركنى فأموت. هو ذا المدينة هذه قريه للهرب إليها. و هى صغيره أهرب إلى هناك أ ليست هى صغيره فتحيا نفسى. فقال له: إنى قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضا أن لا أقلب المدينة التى تكلمت عنها. أسرع اهرب إلى هناك لأنى لا أستطيع أن أفعل شيئا حتى تجيء إلى هناك- لذلك دعى اسم المدينة صوغر.

و إذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم و عموره كبريتا و نارا من عند الرب من السماء. و قلب تلك المدن و كل الدوائر و جميع سكان المدن و نبات الأرض. و نظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

و بكر إبراهيم فى الغد إلى المكان الذى وقف فيه أمام الرب و تطلع نحو سدوم و عموره و نحو كل أرض الدوائر. و نظر و إذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون. و حدث لما أخبر الله مدن الدوائر أن الله ذكر إبراهيم. و أرسل لوطا من وسط الانقلاب حين قلب المدن التى سكن فيها لوط.

و صعد لوط من صوغر و سكن فى الجبل و ابتاه معه لأنه خاف أن يسكن فى صوغر فسكن فى المغاره هو و ابتاه. و قالت البكر للصغيره: أبونا قد شاخ و ليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعاده كل الأرض هلم نسقى أبانا خمرا و نضطجع معه فنحى من أيينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليله. و دخلت البكر و اضطجعت

مع أبيها و لم يعلم باضطجاعها و لا بقيامها و حدث فى الغد أن البكر قالت للصغيره إنى قد اضطجعت البارحه مع أبى. نسقيه خمرا الليله أيضا فادخلى اضطجعى معه فحبنى من أينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليله أيضا. و قامت الصغيره و اضطجعت معه. و لم يعلم باضطجاعها و لا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

فولدت البكر ابنا و دعت اسمه موآب و هو أبو الموابين إلى اليوم و الصغيره أيضا ولدت ابنا و دعت اسمه بن عمى و هو أبو بنى عمون إلى اليوم. انتهى.

هذا ما قصته التوراه فى لوط و قومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصة و من وجوه غيرها.

ففيها كون الملك المرسل للبشرى و العذاب ملكين اثنين. و قد عبر القرآن بالرسل - بلفظ الجمع و أقله ثلاثة -.

و فيها أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه و قدمه إليهم، و القرآن ينفى ذلك و يقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل إليه.

و فيها: إثبات بنتين للوط، و القرآن يعبر بلفظ البنات. و فيها كيفية إخراج الملائكه لوطا و كيفية تعذيب القوم و صيروره المرأه عمودا من ملح و غير ذلك.

و فيها نسبة التجسم صريحه إلى الله سبحانه، و ما ذكرته من قصه لوط مع بنتيه أخيرا، و القرآن ينزه ساحه الحق سبحانه عن التجسم و يبرئ أنبياءه و رسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحه قدسهم.

[سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥]

اشاره

وَ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَتَّقُوا الْمَكِيَالَ وَ الْمِيْرَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمَكِيَالَ وَ الْمِيْرَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِ لَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

تذكر الآيات قصه شعيب(ع) وقومه و هم أهل مدين، و كانوا يعبدون الأصنام، و كان قد شاع التطفيف فى الكيل و الوزن عندهم و اشتد الفساد فيهم فأرسل الله سبحانه شعيبا(ع) إليهم فدعاهم إلى التوحيد و توفيه الميزان و المكيال بالقسط و ترك الفساد فى الأرض، و بشرهم و أنذرهم و بالغ فى عظمتهم

و قد روى عن النبى ص أنه قال: كان شعيب خطيب الأنبياء.

فلم يجبه القوم إلا- بالرد و العصيان، هددوه بالرجم و الطرد من بينهم و بالغوا فى إيذائه و إيذاء شرذمه من الناس آمنوا به و صددهم عن سبيل الله و داموا على ذلك حتى سأل الله أن يقضى بينه و بينهم فأهلكهم الله تعالى.

قوله تعالى: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» إلى آخر الآية عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء و أممهم، و مدين اسم مدينه كان يسكنها قوم شعيب ففى نسبه إرسال شعيب إلى مدين و كان مرسلًا إلى أهله نوع من المجاز فى الإسناد كقولنا:

جرى الميزاب، و فى عد شعيب(ع) أخا لهم دلالة على أنه كان ينتسب إليهم.

و قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» تقدم تفسيره فى نظائره.

و قوله: «وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ» المكيال و الميزان اسما آله بمعنى ما يكال به و ما يوزن به، و لا يوصفان بالنقص و إنما يوصف بالنقص كالزيادة و المساواه المكيل و الموزون فنسبه النقص إلى المكيال و الميزان من المجاز العقلى.

و فى تخصيص نقص المكيال و الميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم و إقبالهم عليه و إفراطهم فيه بحيث ظهر فساده و بان سبئ أثره فأوجب ذلك شده اهتمام به من داعى الحق فدعاهم إلى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصى.

و قوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» أى أشاهدكم فى خير، و هو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجة لكم إلى نقص المكيال و الميزان، و اختلاس اليسير من أشياء الناس طمعا فى ذلك من غير سبيله المشروع و ظلما و عتوا، و على هذا فقوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» تعليل لقوله: «وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ».

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعنايه الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهه من دونه و تشرکوا به غيره، و أن تفسدوا فى الأرض بنقص المكيال و الميزان، و على هذا يكون تعليلا- لما تقدمه من الجملتين أعنى قوله: «أَعْبُدُوا اللَّهَ» إلخ، و قوله: «وَلَا تَتَّقُوا» إلخ، كما أن قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كذلك.

فمحصل قوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ» إلى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه الله: أحدهما: أنكم فى خير و لا حاجه لكم إلى بخرس أموال الناس من غير سبيل حلها. و ثانيهما: أن وراء مخالفه أمر الله يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيد أن يراد بقوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» إنى أراكم برؤيه خير أى أنظر إليكم نظر الناصح المشفق الذى لا- يصاحب نظره إلا الخير و لا يريد بكم غير السعاده، و على هذا يكون قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كعطف التفسير بالنسبه إليه.

و قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» يشير به إلى يوم القيامه أو يوم نزول عذاب الاستئصال و معنى كون اليوم- هو يوم القضاء بالعذاب- محيطا أنه لا مخرج منه و لا مفر و لا ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر و لا معين، و لا ينفع فيه توبه و لا شفاعه، و يتول معنى الإحاطه إلى كون العذاب قطعيا لا مناص منه و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» إلخ، الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخرس النقص كرر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام بأمر لا غنى لمجتمعهم عنه، و ذلك أنه دعاهم أولا- إلى الصلاح بالنهاى عن نقص المكيال و الميزان، و عاد ثانيا فأمر بإيفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخرس الناس أشياءهم إشاره إلى أن مجرد التحرز عن نقص المكيال و الميزان لا يكفى فى إعطاء هذا الأمر حقه- وإنما نهى عنه أولا لتكون معرفه إجماليه هى كالمقدمه لمعرفه التكليف تفصيلا- بل يجب أن يوفى الكائل و الوازن مكياله و ميزانه و يعطياهما حقهما و لا يبخرسا و لا- ينقصا الأشياء المنسوبه إلى الناس بالمعامله حتى يعلما أنهما أديا إلى الناس أشياءهم و ردا إليهم مالهم على ما هو عليه.

وقوله: «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» قال الراغب: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جبد إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذى يدرك حسا و العثى فيما يدرك حكما يقال: عثى يعثى عثيا، و على هذا «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» و عثا يعثو عثوا. انتهى.

و على هذا فقوله: «مُفْسِدِينَ» حال من ضمير «لَا تَعْتَوْا» لإفاده التأكيد نظير ما يفيدته قولنا: لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله أعنى قوله: «وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» نهى مستأنف عن الفساد فى الأرض من قتل أو جرح أو أى ظلم مالى أو جاهى أو عرضى لكن لا يبعد أن يستفاد من السياق كون الجمله عطفا تفسيرا للنهى السابق فيكون نهيا تأكيدا عن التطفيف و نقص المكىال و الميزان لأنه من الفساد فى الأرض.

بيان ذلك: أن الاجتماع المدنى الدائر بين أفراد النوع الإنسانى مبنى على المبادله حقيقه فما من مواصله و مرابطه بين فردين من أفراد النوع إلا و فيه إعطاء و أخذ فلا يزال المجتمعون يتعاونون فى شئون حياتهم يفيد فيه الواحد غيره ليستفيد منه ما يماثله أو يزيد عليه و يدفع إليه نفعا ليجذب منه إلى نفسه نفعا و هو المعامله و المبادله.

و من أظهر مصاديق هذه المبادله المعاملات المالىه و خاصه فى الأمتعه التى لها حجم أو وزن مما يكتال أو يوزن فإن ذلك من أقدم ما تنبه الإنسان لوجوب إجراء سنه المبادله فيه.

فالمعاملات المالىه و خاصه البيع و الشرى من أركان حياه الإنسان الاجتماعيه يقدر الواحد منهم ما يحتاج إليه فى حياته الضروريه بالكيل أو الوزن، و ما يجب عليه أن يبذله فى حذائه من الثمن ثم يسير فى حياته بانيا لها على هذا التقدير و التدبير.

فإذا خانه معامله و نقص المكىال و الميزان من حيث لا يشعر هو فقد أفسد تدبيره و أبطل تقديره، و اختل بذلك نظام معيسته من الجهتين معا من جهه ما يقتنيه من لوازم الحياه بالاشترء و من جهه ما يبذله من الثمن الزائد الذى يتعب نفسه فى تحصيله بالاكْتساب فيسلب إصابه النظر و حسن التدبير فى حياته و يتخبط فى مسيرها خبط العشواء و هو الفساد.

و إذا شاع ذلك فى مجتمع فقد شاع الفساد فيما بينهم و لم يلبثوا دون أن يسلبوا

الوثوق و الاطمئنان و اعتماد بعضهم على بعض و يرتحل بذلك الأمن العام من بينهم و هو النكبه الشامله التى تحيط بالصالح و الطالح و المطفف و الذى يوفى المكيال و الميزان على حد سواء، و عاد بذلك اجتماعهم اجتماعا على المكر و إفساد الحياه لا اجتماعا على التعاون لسعادتها، قال تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقَيْسِ طَاسِ الْمُسِيَّبِ تَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» إسرائ: ٣٥.

قوله تعالى: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ» البقيه بمعنى الباقي و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذى يبقى له بعد تمام المعامله فيضعه فى سبيل حوائجه، و ذلك أن المبادله و إن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح، و إنما كان الواحد منهم يقتنى شيئا من متاع الحياه، فإذا كان يزيد على ما يحتاج إليه بدل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج إليه و لا يملكه ثم أخذت نفس التجاره و تبادل الأمتعه من الأثمان حرفه يكتسب بها المال و يقتنى بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد أو أنواع شتى و عرضه على أرباب الحاجه للمبادله، و أضاف إلى رأس ماله فيه شيئا من الربح بإزاء عمله فى الجمع و العرض و رضى بذلك الناس المشتررون لما فيه من تسهيل أمر المبادله عليهم فللتاجر فى تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوم معيشته و يحول إليه ثروه يقتنيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذى هو بقيه إلهيه هداكم الله إليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذى تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذى ساقه الله إليه من طريق حله، و أما غير ذلك مما لا يرتضيه الله و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له إليه.

و قيل: إن الاشتراط بالإيمان فى قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» للدلاله على اشتراط الإيمان للعلم بذلك لا لأصله و المعنى إن كنتم مؤمنين علمتم صحه قولى: إن بقيه الله خير لكم.

و قيل معنى الآيه ثواب طاعه الله - بكون البقيه بمعنى ثواب الطاعه الباقي - خير لكم إن كنتم مؤمنين. و قيل غير ذلك.

وقوله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» أى و ما يرجع إلى قدرتى شىء مما عندكم من نفس أو عمل أو طاعه أو رزق و نعمه فإنما أنا رسول ليس عليه إلا البلاغ، لكم أن تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم أو تسقطوا فى مهبط الهلكه من غير أن أقدر على جلب خير إليكم أو دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ»: الأنعام: -١٠٤.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» إلى آخر الآيه، رد منهم لحجه شعيب عليه، و هو من ألطف التركيب، و مغزى مرادهم أنا فى حريه فيما نختاره لأنفسنا من دين أو نتصرف به فى أموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت أو تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شىء مما تشاهد منا بما تصلى و تتقرب إلى ربك و أردت أن تأمر و تنهى فلا تتعد نفسك لأنك لا تملك إلا إياها.

و قد أدوا مرادهم هذا فى صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه فى قالب الاستفهام الإنكارى و هو أن الذى تريده منا من ترك عباده الأصنام، و ترك ما شئنا من التصرف فى أموالنا هو الذى بعثتك إليه صلاتك و شوهته فى عينك فأمرتك به لما أنها ملكتك لكنك أردت منا ما أرادته منك صلاتك و لست تملكنا أنت و لا صلاتك لأننا أحرار فى شعورنا و إرادتنا لنا أن نختار أى دين شئنا و نتصرف فى أموالنا أى تصرف أردنا من غير حجر و لا منع و لم نتحل إلا ديننا الذى هو دين آبائنا و لم نتصرف إلا فى أموالنا و لا حجر على ذى مال فى ماله.

فما معنى أن تأمرك إياك صلاتك بشىء و نكون نحن الممثلون لما أمرتك به؟ و بعبارة أخرى ما معنى أن تأمرك صلاتك بفعلا القائم بنا دونك؟ فهل هذا إلا سفها من رأى؟ و إنك لأنت الحليم الرشيد و الحليم لا يعجل فى زجر من يراه مسيئا و انتقام من يراه مجرما حتى ينجلى له وجه الصواب، و الرشيد لا يقدم على أمر فيه غى و ضلال فكيف أقدمت على مثل هذا الأمر السفهى الذى لا صور له إلا الجهاله و الغى؟ و قد ظهر بهذا البيان أولا: أنهم إنما نسبوا الأمر إلى الصلاه لما فيها من البعث و الدعوه إلى معارضه القوم فى عبادتهم الأصنام و نقصهم المكيال و الميزان،

و هذا هو السر في تعبيرهم عن ذلك بقولهم: «أَصِيْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ» الخ، دون أن يقولوا: أصلاتك تنهاك أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ مع أن التعبير عن المنع بالنهي عن الفعل أقرب إلى الطبع من التعبير بالأمر بالترك و لذلك عبر عنه شعيب بالنهي في جوابه عن قولهم إذ قال: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ» و لم يقل إلى ما أمركم بتركه. و المراد-على أى حال-منعه إياهم عن عباده الأصنام و التطفيف فافهم ذلك فإنه من لطائف هذه الآيه التي ملئت لطفه و حسنا.

و ثانيا: أنهم إنما قالوا: «أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» دون أن يقولوا: أن نترك آلهتنا أو أن نترك الأوثان ليشيروا بذلك إلى الحجة في ذلك و هي أن هذه الأصنام دام على عبادتها آباؤنا فهي سنه قومية لنا، و لا ضير في الجرى على سنه قومية ورثها الخلف من السلف، و نشأ عليها الجيل بعد الجيل فإننا نعبد آلهتنا و ندوم على ديننا و هو دين آباؤنا و نحفظ رسما مليا عن الضيعه.

و ثالثا: أنهم إنما قالوا: «أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا» فذكروا الأموال مضافه إلى أنفسهم ليكون في ذلك إيماء إلى الحجة فإن الشيء إذا صار مالا لأحد لم يشك ذو ريب في أن له أن يتصرف فيه و ليس لغيره ممن يعترف بمالته له أن يعارضه في ذلك، و للمرء أن يسير في مسير الحياه و يتدبر في أمر المعيشه بما يستطيعه من الحذق و الاحتيا، و يهديه إليه الذكاء و الكياسه.

و رابعا: أن قولهم: «أَصِيْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ - إلى قوله- إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» مبنى على التهكم و الاستهزاء إلا أن التهكم في تعليقهم أمر الصلاه شعيبا على تركهم ما يعبد آباؤهم، و كذا في نسبة الأمر إلى الصلاه لا غير، و أما نسبة الحلم و الرشد إليه فليس فيها تهكم و استهزاء، و لذلك أكد قوله: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» إيان و اللام و إتيان الخبر جملة اسميه ليكون أقوى في إثبات الحلم و الرشد له فيصير أبلغ في ملامته و الإنكار عليه، و أن الذي لا شك في حلمه و رشده قبيح عليه أن يقدم على مثل هذا الأمر السفهى، و ينتهض على سلب حريه الناس و استقلالهم في الشعور و الإراده.

و ظهر بذلك أن ما ذكره كثير منهم أنهم و صفوه بالحلم و الرشد على سبيل الاستهزاء يعنون به أنه موصوف بضدهما و هو الجهاله و الغي. ليس بصواب.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا» إلى آخر الآيه، المراد بكونه على بينه من ربه كونه على آيه بينه و هي آيه النبوه و المعجزه الداله على صدق النبي في دعوى النبوه، و المراد بكونه رزق من الله رزقا حسنا أن الله آتاه من لدنه وحي النبوه المشتمل على أصول المعارف و الشرائع، و قد مر توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدم.

و المعنى: أخبروني إن كنت رسولا من الله إليكم و خصني بوحى المعارف و الشرائع و أيدني بآيه بينه يدل على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي؟ و هل ما أدعوكم إليه دعوه سفيهه؟ و هل في ذلك تحكم مني عليكم أو سلب مني لحریتكم؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء و لستم بأحرار بالنسبه إليه بل أنتم عباده يأمركم بما شاء، و له الحكم و إليه ترجعون.

و قوله: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ» تعديده المخالفه بإلى لتضمنيه معنى ما يتعدى بها كالميل و نحوه؟ و التقدير: أخالفكم مائلا إلى ما أنهاكم عنه أو أميل إلى ما أنهاكم عنه مخالفا لكم.

و الجمله جواب عن ما اتهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحريه في أعمالهم و يستعبدهم و يتحكم عليهم، و محصله أنه لو كان يريد ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه، و هو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتهموه به و إنما يريد الإصلاح ما استطاع.

توضيحه: أن الصنع الإلهي و إن أنشأ الإنسان مختارا في فعله حرا في عمله له أن يميل في مظان العمل إلى كل من جانبي الفعل و الترك فله بحسب هذه النشأه حريه تامه بالقياس إلى بنى نوعه الذين هم أمثاله و أشباهه في الخلقه لهم ما له و عليهم ما عليه فليس لأحد أن يتحكم على آخر عن هوى من نفسه.

إلا- أنه أفطره على الاجتماع فلا تتم له الحياه إلا في مجتمع من أفراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختص كل منهم بما له من نصيب بمقدار ما له من الزنه الاجتماعيه، و من البديهي أن الاجتماع لا يقوم على ساق إلا بسنن و قوانين تجرى فيها، و حكومه يتولاها بعضهم تحفظ النظم و تجرى القوانين كل ذلك على حسب ما يدعو إليه مصالح المجتمع.

فلا مناص من أن يفدى المجتمعون بعض حريتهم قبال القانون و السنه الجاربه

بالحرمان من الانطلاق والاسترسال ليسعدوا لذلك بنيل بعض مشترياتهم وإحياء البعض الباقي من حريتهم.

فالإنسان الاجتماعي لا- حريه له قبال المسائل الحيويه التي تدعو إليه مصالح المجتمع و منافعه،و الذى يتحكمه الحكومه فى ذلك من الأمر و النهى ليس من الاستعداد و الاستكبار فى شىء إذ إنها إنما يتحكم فيما لا حريه للإنسان الاجتماعي فيه،و كذا الواحد من الناس المجتمعين إذا رأى من أعمال إخوانه المجتمعين ما يضر بحال المجتمع أو لا- ينفع لإبطاله ركنا من أركان المصالح الأساسيه فيها فبعثه ذلك إلى وعظهم بما يرشدهم إلى اتباع سبيل الرشده فأمرهم بما يجب عليهم العمل به و نهاهم عن اقتراف ما يجب عليهم الانتهاء عنه لم يكن هذا الواحد متحكما عن هوى النفس مستعبدا للأحرار المجتمعين من بنى نوعه فإنه لا حريه لهم قبال المصالح العاليه و الأحكام اللازمه المراعاة فى مجتمعهم،و ليس ما يلقيه إليهم من الأمر و النهى فى هذا الباب أمرا أو نهيا له فى الحقيقه بل كان أمرا و نهيا ناشئين عن دعوه المصالح المذكوره قائمين بالمجتمع من حيث هو مجتمع بشخصيته الوسيعة،و إنما الواحد الذى يلقى إليهم الأمر و النهى بمنزله لسان ناطق لا يزيد على ذلك.

و أماره ذلك أن يأتمر هو نفسه بما يأمر به و ينتهى هو نفسه عما ينهى عنه من غير أن يخالف قوله فعله و نظره عمله، إذ الإنسان مطبوع على التحفظ على منافعه و رعايه مصالحه فلو كان فيما يدعو إليه غيره من العمل خير و هو مشترك بينهما لم يخالفه بشخصه،و لم يترك لنفسه ما يستحسنه لغيره،و لذلك قال(ع) فيما ألقاه إليهم من الجواب: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ» و قال أيضا كما حكاه الله تميمًا للفائده و دفعا لأي تهمه تتوجه إليه: «وَمَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ:» الشعراء:- ١٨٠.

فهو(ع) يشير بقوله: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ» إلخ، إلى أن الذى ينهاهم عنه من الأمور التى فيها صلاح مجتمعهم الذى هو أحد أفراده،و يجب على الجميع مراعاتها و ملازمتها،و ليس اقتراحا استعباديا عن هوى من نفسه،و لذلك عقبه بقوله: «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ».

و ملخص المقام أنهم لما سمعوا من شعيب(ع)الدعوه إلى ترك عباده الأصنام

والتطيف ردوه بأن ذلك اقتراح منه مخالف لما هم عليه من الحرية الإنسانية التي تسوغ لهم أن يعبدوا من شاءوا و يفعلوا في أموالهم ما شاءوا.

فرد عليهم شعيب(ع) بأن الذي يدعوهم إليه ليس من قبل نفسه حتى ينافى مسألتهم ذلك حریتهم و يبطل به استقلالهم في الشعور و الإرادة بل هو رسول من ربهم إليهم و له على ذلك آية بينه، و الذي أتاهم به من عند الله الذي يملكهم و يملك كل شيء و هم عباده لا حرية لهم قبالة، و لا خيره لهم فيما يريد منهم.

على أن الذي ألقاه إليهم من الأمور التي فيها صلاح مجتمعهم و سعادته أنفسهم في الدنيا و الآخرة، و أماره ذلك أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه بل هو مثلهم في العمل به، و إنما يريد الإصلاح ما استطاع، و لا يريد منهم على ذلك أجرا إن أجره إلا على رب العالمين.

و قوله: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنه(ع) لما ذكر لهم أنه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح على مقدار ما له من الاستطاعة و في ضوئها أثبت لنفسه استطاعة و قدره و ليست للعبد باستقلاله و حيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص و القصور بقوله: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» أي إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعه مني من تدبير أمور مجتمعكم و توفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه و لا - مخرج من إحاطته و لا - استقلال في أمر دونه فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الاستطاعة، و هو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه و توفيقى به.

بين(ع) هذه الحقيقة، و اعترف بأن توفيقه بالله، و ذلك من فروع كونه تعالى هو الفاطر لكل نفس و الحافظ عليها و القائم على كل نفس بما كسبت كما قال :

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: الفاطر:- ١، و قال: «وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ»: السبأ:- ٢١، و قال: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»: الرعد:- ٣٣، و قال: «إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا»: الفاطر:- ٤١ و محصله أنه تعالى هو الذي أبدع الأشياء و أعمالها و الروابط التي بينها و أظهرها بالوجود،

و هو الذى قبض على كل شىء فأمسكه و أمسك آثاره و الروابط التى بينها أن تزول و تغيب وراء ستر البطلان.

و لانزم ذلك أنه تعالى و كيل كل شىء فى تدبير أموره فهى منسوبة إليه تعالى فى تحققها و تحقق الروابط التى بينها لما أنه محيط بها قاهر عليها و لها مع ذلك نسبه إلى ذلك الشىء بإذنه تعالى.

و من الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقه أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربه و الإنابه و الرجوع إليه، و لذلك لما ذكر شعيب(ع) أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل و الإنابه فقال: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ».

(كلام فى معنى حرية الإنسان فى عمله)

الإنسان بحسب الخلقه موجود ذو شعور و إرادته له أن يختار لنفسه ما يشاء من الفعل و بعبارة أخرى له فى كل فعل يقف عليه أن يختار جانب الفعل و له أن يختار جانب الترك فكل فعل من الأفعال الممكنة الإتيان إذا عرض عليه كان هو بحسب الطبع واقفا بالنسبه إليه على نقطه يلتقى فيها طريقان: الفعل و الترك فهو مضطر فى التلبس و الاتصاف بأصل الاختيار لكنه مختار فى الأفعال المنتسبه إليه الصادره عنه باختياره أى إنه مطلق العنان بالنسبه إلى الفعل و الترك بحسب الفطره غير مقيد بشىء من الجانبين و لا مغلول، و هو المراد بحريه الإنسان تكوينا.

و لانزم هذه الحريه التكوينية حريه أخرى تشريعيه يتقلد بها فى حياته الاجتماعيه و هو أن له أن يختار لنفسه ما شاء من طرق الحياه و يعمل بما شاء من العمل، و ليس لأحد من بنى نوعه أن يستعلى عليه فيستعبده و يتملك إرادته و عمله فيحمل بهوى نفسه عليه ما يكرهه فإن أفراد النوع أمثال لكل منهم ما لغيره من الطبيعه الحره، قال تعالى: «وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» آل عمران:- ٦٤ و قال: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ -X إلى أن قال X- تُمْ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ» آل عمران:- ٧٩.

هذا ما للإنسان بالقياس إلى أمثاله من بنى نوعه، وإما بالقياس إلى العلل و الأسباب الكونية التى أوجدت الطبيعه الإنسانيه فلا حريه له قبالتها فإنها تملكه و تحيط به من جميع الجهات و تقلبه ظهرا لبطن، و هى التى بإنشائها و نفوذ أمرها فعلت بالإنسان ما فعلت فأظهرته على ما هو عليه من البنيان و الخواص من غير أن يكون له الخيره من أمره فيقبل ما يحبه و يرد ما يكرهه بل كان كما أريد لا كما أراد حتى إن أعمال الإنسان الاختياريه و هى ميدان الحريه الإنسانيه إنما تطيع الإنسان فيما أذنت فيه هذه العلل و الأسباب فليس كل ما أحبه الإنسان و أراد به بواقع و لا هو فى كل ما اختاره لنفسه بموفق له، و هو ظاهر.

و هذه العلل و الأسباب هى التى جهزت الإنسان بجهازات تذكره حوائجه و نواقص وجوده، و تبعثه إلى أعمال فيها سعادته و ارتفاع نواقصه و حوائجه كالغاذيه مثلا التى تذكره الجوع و العطش و تهديه إلى الخبز و الماء لتحصيل الشبع و الرى و هكذا سائر الجهازات التى فى وجوده.

ثم إن هذه العلل و الأسباب أوجبت إيجابا تشريعيًا على الإنسان الفرد أمورًا ذات مصالح واقعيه لا يسعه إنكارها و لا الاستنكاف بالاستغناء عنها كالأكل و الشرب و الإيواء و الالتقاء من الحر و البرد و الدفاع تجاه كل ما يضاد منافع وجوده.

ثم أفطرته بالحياه الاجتماعيه فأذعن بوجود تأسيس المجتمع المنزلى و المدنى و السير فى مسير التعاون و التعامل، و يضطره ذلك إلى الحرمان عن موهبه الحريه من جهتين:

إحدهما أن الاجتماع لا يتم من الفرد إلا بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقًا متقابله محترمه عنده ليعطوه بإزائها حقوقًا يحترمونها و ذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له، و ينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم، و يحرم عن الانطلاق و الاسترسال فى العمل على حسب ما يحرمهم فليس له أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد بل هو حر فيما لا يزاحم حريه الآخرين، و هذا حرمان عن بعض الحريه للحصول على بعضها.

و ثانيتهما: أن المجتمع لا يقوم له صلب دون أن يجرى فيه سنن و قوانين يتسلمها الأفراد المجتمعون أو أكثرهم تضمن تلك السنن و القوانين منافعهم العامه بحسب

ما للاجتماع من الحياه الراقيه أو المنحطه الرديه، و يستحفظ بها مصالحهم العاليه الاجتماعيه.

و من المعلوم أن احترام السنن و القوانين يسلب الحريه عن المجتمعين في مواردنا فالذى يستن سنه أو يقنن قانونا سواء كان هو عامه المجتمعين أو المندوبين منهم أو السلطان أو كان هو الله و رسوله-على حسب اختلاف السنن و القوانين-يحرم الناس بعض حريتهم ليحفظ به البعض الآخر منها، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾: القصص:-٦٨، و قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾: الأحزاب:-٣٦.

فتلخص أن الإنسان إنما هو حر بالقياس إلى أبناء نوعه فيما يقترحونه لهوى من أنفسهم، و أما بالنسبه إلى ما تقتضيه مصالحه الملزمه و خاصه المصالح الاجتماعيه العامه على ما تهديه إليها و إلى مقتضياتها العلل و الأسباب فلا حريه له البته، و لا أن الدعوه إلى سنه أو أى عمل يوافق المصالح الإنسانيه من ناحيه القانون أو من بيده إجراؤه أو الناصح المتبرع الذى يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر متمسكا بحجه بينه، من التحكم الباطل و سلب الحريه المشروعه فى شىء.

ثم إن العلل و الأسباب المذكوره و ما تهدى إليه من المصالح مصاديق لإرادته الله سبحانه أو إذنه-على ما يهدى إليه و يبينه تعليم التوحيد فى الإسلام-فهو سبحانه المالك على الإطلاق، و ليس لغيره إلا المملوكيه من كل جهه، و لا للإنسان إلا العبوديه محضا فمالكيته المطلقه تسلب أى حريه متوهمه للإنسان بالنسبه إلى ربه كما أنها هى تعطيه الحريه بالقياس إلى سائر بنى نوعه كما قال تعالى: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: آل عمران:-٦٤.

فهو سبحانه الحاكم على الإطلاق و المطاع من غير قيد و شرط كما قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ و قد أعطى حق الأمر و النهى و الطاعه لرسوله و لأولى الأمر و للمؤمنين من الأمه الإسلاميه فلا حريه لأحد قبال كلمه الحق التى يأتون به و يدعون إليه، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾: النساء:-٥٩، و قال

تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» التوبة: ٧١.

قوله تعالى: «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ» الجرم بالفتح فالسكون-على ما ذكره الراغب-قطع الثمره عن الشجر وقد أستعير لكل اكتساب مكروه، والشقاق المخالفه و المعاداه.و المعنى:احذروا أن يكتسب لكم مخالفتى و معاداتى بسبب ما أدعوكم إليه أصابه مصيبه مثل مصيبه قوم نوح و هى الغرق أو قوم هود و هى الريح العقيم أو قوم صالح و هى الصيحه و الرجهف.

و قوله: «وَمَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» أى لا فصل كثيرا بين زمانهم و زمانكم و قد كانت الفاصله الزمانيه بين القومين أقل من ثلاثه قرون،و قد كان لوط معاصرا لإبراهيم(ع)و شعيب معاصرا لموسى(ع).

وقيل:المراد به نفى البعد المكانى،و الإشارة إلى أن بلادهم الخربه قريبه منكم لقرب مدين من سدوم و هو بالأرض المقدسه، فالمعنى:و ما مكان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقيه الظاهره.و السياق لا يساعد عليه و التقدير خلاف الأصل لا يصار إليه إلا بدليل.

قوله تعالى: «وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» قد تقدم الكلام فى معنى قوله: «وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى استغفروا الله من ذنوبكم و ارجعوا إليه بالإيمان به و برسوله إن الله ذو رحمه و موده يرحم المستغفرين التائبين و يحبهم.

وقد قال أولاء: «إِسْتِغْفِرُوا رَبَّكُمْ فَأَضَافَ الرَّبَّ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ فِي مَقَامِ تَعْلِيلِهِ: «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» و لعل الوجه فيه أنه ذكر فى مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من الله سبحانه صفه ربوبيته لأنها الصفه التى ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه،و أضاف ربوبيته إليهم بقوله: «رَبَّكُمْ» لتأكيد الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الأرباب من دون الله.

و كان من حق الكلام أن يقول فى تعليله:إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلا- ثناء على الله سبحانه،و قد أثبت سابقا أنه رب القوم إضافه ثانيا

إلى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى أن ربكم و ربي رحيم ودود.

على أن في هذه الإضافة معنى المعرفة و الخبره فتفيد تأييدا لصحة القول فإنه في معنى أنه تعالى رحيم ودود و كيف لا؟ و هو ربي أعرفه بهذين الوصفين.

و الودود من أسماء الله تعالى، و هو فعول من الود بمعنى الحب إلا أن المستفاد من موارد استعماله أنه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذى له آثار و تبعات ظاهره كالألفه و المراوده و الإحسان، قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» الروم: ٢١.

و الله سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا» إبراهيم: ٣٤ فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا» إلى آخر الآيه، الفقه أبلغ من الفهم و أقوى، و رهط الرجل عشيرته و قومه، و قيل:

إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشره و على هذا ففى قولهم: رهطك، إشاره إلى قتلهم و هوان أمرهم، و الرجم هو الرمي بالحجاره.

لما حاجهم شعيب(ع) و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون أن يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجه فذكروا له:

أولا: أن كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له، و هذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائده فيه.

ثم عقبوه بقولهم: «وَ إِذَا لَرَّاكَ فِينَا ضَعِيفًا» أى لا- نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه، و السمع و القبول له فإننا لا نراك فينا إلا ضعيفا لا يعبا بأمره و لا يلتفت إلى قوله.

ثم هددوه بقولهم: «وَ لَوْ لَا- رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أى و لو لا هذا نفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكننا نراعى جانبهم فيك، و فى تقليل العشيره إيماء إلى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير أن يبالوا بعشيرته، و إنما كفهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» تأكيداً لقولهم: «لَوْ لَا- رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتل،

و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك. فمحصل قولهم إهانه شعيب و أنهم لا يعبتون به و لا بما قال، و إنما يراعون في ترك التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ الظهري نسبة إلى الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غير بالنسب و هو الشيء الذي وراء الظهر فيترك نسيا منسيا يقال: اتخذته وراءه ظهريا أى نسيه و لم يذكره و لم يعتن به.

و هذا نقض من شعيب لقولهم: ﴿ وَ لَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ أى كيف تعززون رهطى و تحترمون جانبهم، و لا تعززون الله سبحانه و لا تحترمون جانبه و إنى أنا الذى أدعوكم إليه من جانبه؟ فهل رهطى أعز عليكم من الله؟ و قد جعلتموه نسيا منسيا و ليس لكم ذلك و ما كان لكم أن تفعلوه إن ربى بما تعملون محيط بما له من الإحاطه بكل شىء و جودا و علما و قدره. و فى الآيه طعن فى رأيهم بالسفه كما طعنوا فى الآيه السابقه فى رأيه بالهوان.

قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ إلى آخر الآيه. قال فى المجمع:، المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل. انتهى و هو فى الأصل. كما قيل -من مكن مكانه كضخم ضخامه إذا قوى على العمل كل القوه و يقال- تمكن من كذا أى أحاط به قوه.

و هذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بأنه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق و لا اضطراب من كفرهم به و تمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوه و التمكن فلهم عملهم و له عمله فسوف يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذى يأخذه العذاب. هم أو هو؟ و يعلمون من هو كاذب؟ فليرتقبوا و هو معهم رقيب لا يفارقهم.

قوله تعالى: ﴿ وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا - إلى قوله - جَائِمِينَ ﴾ تقدم ما يتضح به معنى الآيه.

قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الْأَبْعَادَ لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ غنى فى المكان إذا أقام فيه. و قوله: ﴿ الْأَبْعَادَ لِمَدِينٍ ﴾ الخ. فيه لعنهم كما لعنت ثمود، و قد تقدم بعض الكلام فيه فى القصص السابقه.

فى تفسير القمى، قال:" قال: بعث الله شعيبا إلى مدين- و هى قرية على طريق الشام فلم يؤمنوا به.

و فى تفسير العياشى، عن أحمد بن محمد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله: «إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلِي» قال: كان سعرهم رخيصا.

و فيه، عن محمد بن الفضيل عن الرضا (ع) قال: سألته عن انتظار الفرج فقال:

أ و ليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج؟ ثم قال: إن الله تبارك و تعالى يقول:

« وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ».

أقول: قوله: ليس تعلم بمعنى لا تعلم و هى لغة مولده.

و فى المعانى، بإسناده عن عبد الله بن الفضل الهاشمى عن أبى عبد الله (ع) قال: قلت: فقوله عز و جل: «وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» و قوله عز و جل: «إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ- وَ إِن يَخْذُكُمُ اللَّهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟» فقال: إذا فعل العبد ما أمر الله عز و جل به من الطاعة- كان فعله وفقا لأمر الله عز و جل و سمي العبد موفقا، و إذا أراد العبد أن يدخل فى شىء من معاصى الله- فحال الله تبارك و تعالى بينه و بين تلك المعصية فتركها- كان تركه لها بتوفيق الله تعالى، و متى خلى بينه و بين المعصية فلم يحل بينه و بينها- حتى يتركها فقد خذله و لم ينصره و لم يوفقه.

أقول: محصل بيانه (ع) أن توفيقه تعالى و خذلانه من صفاته الفعلية فالتوفيق هو نظمه الأسباب بحيث تؤدى العبد إلى العمل الصالح أو عدم إيجاده بعض الأسباب التى يستعان بها على المعصية. و الخذلان خلاف ذلك. و على ذلك فمتعلق التوفيق الأسباب لأنه إيجاد التوافق بينها و هى المتصفه بها، و أما توصيف العبد به فمن قبيل الوصف بحال المتعلق.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى الحلية عن على قال: قلت: يا رسول الله أوصنى. قال: قل: ربى الله ثم استقم. قلت: ربى الله و ما توفيقى إلا بالله- عليه توكلت و إليه أنيب. قال: ليهنئك العلم أبا الحسن- لقد شربت العلم شربا و نهلتته نهلا.

أقول: و قد تقدمت الإشارة إلى نبذه من معنى الجملة.

و فيه، أخرج الواحدى و ابن عساكر عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله

ص: بكى شعيب(ع) من حب الله حتى عمى-فرد الله عليه بصره، و أوحى الله إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟ أ شوقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال: لا و لكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذى تصنع بي؟ فأوحى الله إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقا-فهنيئا لك لقائى، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمى.

أقول: المراد بالنظر إليه تعالى هو النظر القلبي دون النظر الحسى المستلزم للجسميه، تعالى عن ذلك، و قد تقدم توضيحه فى تفسير قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا:» الأعراف:- ١٤٣ فى الجزء الثامن من الكتاب.

و فيه، أخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، أنه خطب فتلا- هذه الآية فى شعيب: «وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا» قال: كان مكفوفاً ففسبوه إلى الضعف. «وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» قال على: فوالله الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم- ما هابوا إلا العشير.

(كلام فى قصة شعيب و قومه فى القرآن فى فصول)

١- [قصته عليه السلام]

هو(ع) ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسمائهم فى القرآن و هم هود و صالح و شعيب و محمد(ع) ذكر الله تعالى طرفا من قصصه فى سور الأعراف و هود و الشعراء و القصص و العنكبوت.

كان(ع) من أهل مدين-مدينه فى طريق الشام من الجزيره- و كان معاصرا لموسى(ع)، و قد زوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج و إن أتم عشرا فمن عنده(القصص: ٢٧) فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه و سار بأهله إلى مصر.

و كان قومه من أهل مدين يعبدون الأصنام و كانوا قوما منعمين بالأمن و الرفاهيه و الخصب و رخص الأسعار فشاع الفساد بينهم و التطفيف بنقص المكيال و الميزان (هود: ٨٤ و غيرها) فأرسل الله إليهم شعيبا و أمره أن ينهاهم عن عباده الأصنام و عن الفساد فى الأرض و نقص المكيال و الميزان فدعاهم إلى ما أمر به و وعظهم بالإنذار و التبشير و ذكرهم ما أصاب قوم نوح و قوم هود و قوم صالح و قوم لوط.

و بالغ (ع) فى الاحتجاج عليهم و عظمتهم فلم يزدهم إلا طغيانا و كفرا و فسوقا (الأعراف و هود و غيرهما من السور) و لم يؤمنوا به إلا عدده قليله منهم فأخذوا فى إيذائهم و السخرية بهم و تهديدهم عن اتباع شعيب (ع)، و كانوا يقعدون بكل صراط يوعدون و يصدون عن سبيل الله من آمن به و يبغونها عوجا (الأعراف: ٨٦).

و أخذوا يرمونه (ع) بأنه مسحور و أنه كاذب (الشعراء: ١٨٦، ١٨٥) و أخافوه بالرجم، و هددوه و الذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودن فى ملتهم (الأعراف: ٨٨) و لم يزالوا به حتى أياسوه من إيمانهم فتركهم و أنفسهم (هود: ٩٣) و دعا الله بالفتح قال: ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق و أنت خير الفاتحين.

فأرسل الله إليهم عذاب يوم الظله (الشعراء: ١٨٩) و قد كانوا يستهزءون به أن أسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين و أخذتهم الصيحة (هود):

و الرجفة (الأعراف: ٩١-العنكبوت: ٣٧) فأصبحوا فى ديارهم جاثمين و نجى شعيبا و من معه من المؤمنين (هود: ٩٤) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ: الأعراف: -٩٣.

٢- شخصيته المعنوية

، كان (ع) من زمرة الرسل المكرمين و قد أشركه الله تعالى فيما أثناهم به من الثناء الجميل فى كتابه، و قد حكى عنه فيما كلم به قومه و خاصه فى سور الأعراف و هود و الشعراء شيئا كثيرا من حقائق المعارف و العلوم الإلهية و الأدب البارع مع ربه و مع الناس.

و قد سمي نفسه الرسول الأمين (الشعراء: ١٧٨) و مصلحا (هود: ٨٨) و أنه من الصالحين (الشعراء: ٢٧) فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء، و قد خدمه الكليم موسى بن عمران (ع) زهاء عشر سنين سلام الله عليه.

٣- ذكره فى التوراه

، لم تقص التوراه قصته مع قومه و إنما أشارت إليه فى ضمن ما ذكرت قصه قتل موسى القبطى و فراره من مصر إلى مديان (القصه) فسمته «رعويل كاهن مديان». (١)

ص: ٣٧٨

إشارة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (۹۶) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَغْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹)

(بيان)

إشارة إلى قصة موسى -الكليم- (ع)، وهو أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن ذكر باسمه في مائه و نيف و ثلاثين موضعا منه في بضع و ثلاثين سورة و قد اعتنى بتفصيل قصته أكثر من غيره غير أنه تعالى أجمل القول فيها في هذه السورة فاكتفى بالإشارة الإجمالية إليها.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ» الباء في قوله بِآيَاتِنَا للمصاحبه أي و لقد أرسلنا موسى مصحوبا لآياتنا و ذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء و الرسل و أيدهم بالآيات المعجزه طائفتان منهم من أوتى الآيه المعجزه على حسب ما اقترحه قومه كصالح (ع) المؤيد بآيه الناقه، و طائفه أيدوا بآيه من الآيات في بدء بعثتهم كموسى و عيسى و محمد (ع)، كما قال تعالى خطابا لموسى (ع):

«اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِنَا» طه: -۴۲، و قال في عيسى (ع): «وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» X الخ: آل عمران: -۴۹، و قال في محمد ص «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ» الصف: -۹، و الهدى القرآن بدليل قوله:

«ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» البقره: -۲، و قال تعالى: «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ» الأعراف: -۱۵۷.

فموسى(ع)مرسل مع آيات و سلطان مبین، و ظاهر أن المراد بهذه الآيات الأمور الخارقة التي كانت تجرى على يده، و يدل على ذلك سياق قصصه(ع)في القرآن الكريم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحجة القاطعه التي يتسلط على العقول و الأفهام فيعم الآيه المعجزه و الحجة العقلية، و على تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العام على الخاص.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبین أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه و بين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذى ما ابتلى بمثله أحد من الرسل غير موسى(ع)لكن الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه و جنوده و نجى بنى إسرائيل بيده، و يشعر بهذا المعنى قوله: «فَالَا رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْزُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرى:» طه:- ٤٦، و قوله لموسى(ع): «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى:» طه:- ٦٨.

و فى هذه الآيه و نظائرها دلالة واضحة على أن رساله موسى(ع)ما كانت تختص بقومه من بنى إسرائيل بل كانت تعمهم و غيرهم.

قوله تعالى: «إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْتِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» نسبه رسالته إلى فرعون و ملئه-و الملائم أشرف القوم و عظمائهم الذين يملئون القلوب هيبه-دون جميع قومه لعلها للإشارة إلى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعا لا رأى لهم إلا ما رآه لهم عظمائهم.

و قوله: «فَمَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» إلخ، الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعم من القول و الفعل كما حكى الله عن فرعون فى قوله: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ:» المؤمن:- ٢٩، فينطبق على السنه و الطريقه التي كان يتخذها و يأمر بها. و كان الآيه محاذاه لقول فرعون هذا فكذبه الله تعالى بقوله: «وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ».

و الرشيد فعيل من الرشد خلاف الغى أى و ما أمر فرعون بذى رشد حتى يهدى إلى الحق بل كان ذا غى و جهاله، و قيل: الرشيد بمعنى المرشد.

و فى الجملة أعنى قوله: «[□] وَأَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» وضع الظاهر موضع المضمرة و الأصل «أمره» و لعل الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلك من الضمير البته.

قوله تعالى: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» أى يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمة الضلال، قال تعالى :

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ:» القصص: -٤١.

و قوله: «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ» تفریع على سابقه أى يقدمهم فيوردهم النار، و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع، و ربما قيل: تفریع على قوله: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أى اتبعوه فأوردهم الاتباع النار، و قد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله :

«وَ حَقَّ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ:» المؤمن:-
٤٦ حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا، و لا يخفى أن الآيات ظاهره فى خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها فى العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوا و عشيا، و فى يوم القيامة بالدخول فى أشد العذاب الذى سجل فيها أنه النار.

و قوله: «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» الورد هو الماء الذى يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشرب، قال الراغب فى المفردات: الورد أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره يقال: وردت الماء أرد و رودا فأنا وارد و الماء مورود. و قد أوردت الإبل الماء قال: «وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود. انتهى.

و على هذا فى الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التى يقصدها الإنسان فى الحياه لمساغيه المبذوله بالماء الذى يقصده العطشان فعذب السعاده التى يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده، و سعاده الإنسان الأخيره هى رضوان الله و الجنة لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقه تبدلت غايتهم إلى النار فكانت النار هو الورد الذى يردونه، و بس الورد المورود لأن الورد، هو الذى يخمد لهيب الصدر و يروى الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل إلى عذاب النار فبئس الورد المورود.

قوله تعالى: « وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى هم اتبعوا أمر فرعون فأتبعتهم لعنه من الله فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه، و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من رحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخرة.

و قوله: « وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ » الرغد هو العطيه و الأصل فى معناه العون، و سميت العطيه رfgدا و مرفودا لأنه عون للآخذ على حوائجه و المعنى و بئس الرغد رفدهم يوم القيامة و هو النار التى يسجرون فيها، و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر: وَ أَتَّبِعَانَّهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ: القصص: -٤٢.

و ربما أخذ: « يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ظرفا فالآيه متعلقا بقوله: « أَتَّبِعُوا » أو بقوله:

« لَعْنَةً » نظير قوله: « فِي هَذِهِ »، و المعنى: و أتبعهم الله فى الدنيا و الآخرة لعنه أو فأتبعهم الله لعنه الدنيا و الآخرة ثم استؤنف فقيل: بئس الرغد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الإبتاع باللعن.

تم و الحمد لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

